الفقيه في الشعر الأندلسي
من عصر الإمارة حتى نهاية عصر
المرابطين

إعداد

علي أحمد السعد الحسبان

إشراف

الأستاذ الدكتور يونس شنوان شديفات

حقل التخصص ــ أدب ونقد

٢٠٠٨/٧/١٧م

الفقيه في الشعر الأندلسي
من عصر الإمارة حتى نهاية عصر المرابطين

إعداد

علي أحمد السعد الحسبان

بكالوريوس لغة عربية، الجامعة الأردنية ١٩٨٨م

قدمت هذه الدراسة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية
تخصص أدب ونقد في جامعة اليرموك، إربد، الأردن

أعضاء لجنة المناقشة

أ.د . يونس شنوان شديفات...رئيساً ومشرفاً

أستاذ الأدب الأندلسي بجامعة اليرموك

أ.د. عبدالقادر أحمد الرباعي...عضواً

رئيس جامعة جدارا ، وأستاذ الأدب العباسي

أ.د. صلاح محمد جرار...عضواً

نائب رئيس الجامعة الأردنية ، وأستاذ الأدب الأندلسي

أ.د. ماجد ياسين جعافرة...عضواً

أستاذ الأدب العباسي بجامعة اليرموك

تاريخ مناقشة الرسالة: الخميس/ ١٧/٧ / ٢٠٠٨م

الإهداء:

إلى الرئة التي أتنفس بها........ أبي وأمي

إلى السـند الذي أتكئ عليه.......... أخواني وأخواتي

إلى الأمل الذي أنتظره........ زوجتي وأبنائي

إلى الروح الخالدة عند ربها....... الشهيد عبدالقادر الحسبان

الفهرس

الملخص :

الحسبان،علي أحمد.**الفقيه في الشعر الأندلسي من عصر الإمارة إلى نهاية عصر المرابطين** رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ٢٠٠٨. إشراف: الأستاذ الدكتور يونس شنوان شديفات .

للفقيه في المجتمع الإسلامي مكانة عظيمة ومتميزة ، وهي في الأندلس أشد عظمة وتميزاً ، وجاءت هذه الدراسة لتلقي بعض الأضواء الكاشفة على حياة الفقهاء ، وتتتبع الصورة التي رسمها الشعراء لهم من خلال الشعر الذي قيل فيهم ، وقد جاءت في تمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة .

تناول الباحث في التمهيد : مصطلح الفقيه في اللغة والاصطلاح ، والمذاهب الفقهية التي انتشرت في الأندلس، خصوصاً المذهب المالكي الذي أصبح المذهب الرسمي للدولة الأندلسية في مختلف العصور .

وتناولت الدراسة في الباب الأول ثلاثة موضوعات أساسية هي: مكانة الفقيه في المجتمع الأندلسي في عصر الدولة الأموية في الأندلس ، وعصر ملوك الطوائف ، وعصر المرابطين ، ثم تناولت مكونات الفقيه الثقافية والعلمية والفكرية، والصفات الخلقية والسلوكية التي يجب أن تتوفر في الفقيه المثال ، وأخيراً طبيعة العلاقة التي كانت تربط الفقهاء بمختلف شرائح المجتمع الأندلسي ، وبينت الدراسة المكانة العظيمة التي حازها الفقهاء في الأندلس والدور الكبير الذي قاموا به في الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية ، وأنواع المعارف والعلوم التي اكتسبها الفقيه المثال حتّى وصل إلى تلك المكانة السامية .

أما الباب الثاني :فقد تتبع الباحث فيه صورة الفقيه الإيجابية ، وصورته السلبية ، وصورته في أزجال ابن قزمان ، وبينت الدراسة التباين الواضح في اللوحات التي رسمها

الشعراء لهم ، ففي حين كانت الصورة مشرقة وبهية ، كشفت عـن مكانـة الفقيـه العلميـة والاجتماعية في الرثاء والمديح ، كانت في المقابل صورة مزرية ، قاتمة بالغ الشعراء كثيـراً في رسمها، وتشكيلها، والسخرية منها .

أمّا الباب الثالث فتناول نماذج من الشعر الذي قيل في نقد الفقهاء وهجائهم ، وتناول بالتحليل الكشف عن طبيعة اللغة الشعرية ، والألفاظ التي استخدمها الشعراء في توجيه نقـدهم للفقهاء ، والأنماط البلاغية المتنوعة التي استخدمها الشعراء في صورهم الشعرية .

وأخيراً جاءت الخاتمة لتحمل بعض النتائج التي توصل إليهـا الباحـث مـن هـذه الدراسة .

والله الموفق

المقدمة:

للفقيه في المجتمع الإسلامي مكانة متميزة ، ورفيعة اكتسبها من خلال الدور العظيم الذي كان يضطلع به ،والمهام الخطيرة التي توكل إليه فيما يخص الفرد والمجتمع والدين، فهو المخول باستنباط الأحكام الشرعية من مصادرها ، وعليه يتوقف مصير أحكام الدين والشرع ،فهو من عناصر المجتمع الإسلامي الفاعلة التي لا يستغني عنها الحاكم والفرد والجماعة على السواء ، فقوله القول الحسم في القضايا التي تهم الفرد والمجتمع ، ولا صوت يعلو على صوت الحق الذي يأتي به استناداً إلى أحكام الشرع والدين .

وإذا كانت مكانة الفقيه عظيمة ومتميزة في المجتمع الإسلامي عامة ، فهي في الأندلس أشد تميزاً وعظمة وسمواً ، فقد اجتمعت مجموعة من العوامل التي جعلت من الفقيه شخصية رئيسة ومؤثرة في المجتمع الأندلسي، لا يمكن تهميشها ، أو الاستغناء عنها وعن دورها ، ومن هذه العوامل : الظروف السياسية والاجتماعية التي رافقت قيام الدولة الأموية في الأندلس ، وشعور أرباب السلطة والسياسة بالحاجة الشديدة إلى جهد الفقهاء ودورهم في ترسيخ أركان الدولة ، واستقرار الحكم فيها . ومن هنا عمل الحكام والملوك في مختلف العصور على منح الفقهاء امتيازات عظيمة ، وقلّدوهم مناصب رفيعة في الدولة وجعلوا كلمتهم مسموعة ونافذة في كثير من الأمور ، ووصل الأمر في بعض مراحل حياة الأندلس السياسية إلى أن يتسلم الفقهاء زمام الأمور ، وقيادة حركات التمرد ، التي كادت أن تزعزع أركان الحكم وتقوضه ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل كان للفقهاء دور كبير وعظيم في السعي وتمهيد الطريق ليوسف بن تاشفين زعيم المرابطين ، لوضع يده على الأندلس ، وضمها إلى مملكته ، وإنهاء حكم ملوك الطوائف الذي مزقته الفرقة والتناحر والنزاع ، وكانت الأندلس على وشك السقوط بيد النصارى ، وإنهاء حكم الإسلام لها .

وفي هذه الدراسة سيقوم الباحث _ بعون الله وتوفيقه _ بتسليط الضوء على بعض الجوانب الأساسية من حياة الفقهاء ، وعلاقتهم بالسلطة والمجتمع والأفراد ، والصورة التي رسمها الشعراء للفقهاء في أشعارهم ، سواء كانت إيجابية أم سلبية .

أهمية الدراسة :

تعود أهمية هذه الدراسة إلى جملة من الاعتبارات التي يمكن إجمالها بالآتي :

ـ إن هذا الموضوع جديد في تناوله بهذه الصورة ، فالدراسات التي دارت حول الفقيه لم تكن مستقلة في تناول صورة الفقيه في الشعر الأندلسي ، وإنما جاء الحديث عنه في كتب عامّة ، تناولت جميع ما يتعلق بالأدب الأندلسي ومواضيعه .

ـ الدور الكبير الذي قام به الفقهاء في الفترة مدار البحث ، والمكانة الاجتماعية التي حظي بها هؤلاء الفقهاء في مختلف مجالات الحياة ، وما رافقه من تغير في الولاءات من قبل جميع شرائح المجتمع ، لا سيما الأدباء والفقهاء ، إذ كانوا (الفقهاء) عنصراً مؤثراً وفاعلاً لا يمكن تغييبه عن الساحة الأندلسية .

ـ يعد الشعر الذي قيل في الفقهاء ، سواء كان مديحاً أم هجاءً أم نقداً ، من الوثائق المهمة التي تشهد على هذا العصر في مختلف مناحي الحياة .

ـ تكمن أهمية هذا البحث في الأسباب التي دعت الشعراء إلى توجيه سهام نقدهم إلى الفقهاء في الأندلس .

الدراسات السابقة :

هناك مجموعة من الدراسات التي دار موضوعها حول الفقهاء في الأندلس ، ولكنها تناولته من الناحية التاريخية البحتة ، ولم يتطرق أصحابها إلى صورة الفقيه في الأدب عامة ، وفي الشعر خاصة ، فصورة الفقيه في الشعر تختلف تماماً عن التأريخ للفقهاء ، فما

يصوره الشاعر ليس كما ينقله المؤرخ ، خصوصاً إذا ما عرفنا أن هناك تنافراً شديداً بين الشعراء والفقهاء في الأندلس ، نتيجة التنافس على الحظوة والمكانة الاجتماعية ، وإحساس الشعراء بأن الفقهاء قد اغتصبوا هذه المكانة التي اعتلوها على مرّ العصور ، ومن الدراسات التي أفردت للحديث عن الفقهاء في الأندلس تاريخياً :

١ .الكبيسي، خليل إبراهيم . دور الفقهاء في الحياة السياسية والاجتماعية بالأندلس في عصري الإمارة والخلافة، رسالة دكتوراه ، جامعة بغداد ، ١٩٨٠م .

٢ . الحميدي، غانم سعد عبدالكريم. فقهاء الأندلس في عصر الخلافة ودورهم السياسي والإداري والثقافي، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، عام ٢٠٠٢م .

٣ . عوض الله ، رحاب صبري حسن. دور الفقهاء في الحياة العامة في عصر ملوك الطوائف ، رسالة ماجستير ، الجامعة الأردنية ، ٢٠٠٣م.

٤ . المومني، محمد خالد مصطفى. الفقهاء وثورة أهل الربض في الأندلس ، رسالة دكتوراه ، الجامعة الأردنية ٢٠٠٣ .

تعتمد هذه الدراسة منهجاً تحليلياً في البحث والاستقصاء ، يقوم على تتبع صورة الفقيه في الشعر الأندلسي ، في أمهات المصادر الأندلسية والإفادة من الدراسات الحديثة التي تناولت التاريخ والأدب الأندلسيين ، واستجلاء هذه الصورة من الشعر الذي قيل في الفقهاء ، سواء كانت هذه الصورة إيجابية أم سلبية ، واستقصاء هذه الأشعار وتحليلها ، ثم الاستعانة بالمناهج الأخرى التي تلقي إضاءات كاشفة على جوانب الموضوع المختلفة ، وما تفرضه النصوص الشعرية مدار البحث والدراسة، وتشتمل هذه الدراسة على مقدمة،وتمهيد، وثلاثة أبواب، وخاتمة

المقدمة : وتشتمل على أهمية الدراسة والدراسات السابقة ومنهج البحث .

التمهيد : ويتناول مصطلح الفقيه بين اللغة والاصطلاح ، ويتضمن نبذه عن المذاهب الفقهية التي انتشرت في الأندلس في الفترة مدار البحث ، والأسباب التي جعلت من المذهب المالكي تحديداً المذهب الرسمي للدولة **في الأندلس .**

الباب الأول : وجاء بعنوان : مكانة الفقيه في المجتمع الأندلسي ، وقد قسم هذا الباب إلى ثلاثة فصول .

تناول الفصل الأول مكانة الفقيه في المجتمع الأندلسي ، وتناول الفصل الثاني الصفات الواجب توافرها في الفقيه حتى يحظى بلقب فقيه ، ومكونات الفقيه الثقافية والدينية واللغوية والاجتماعية ، بينما تناول الفصل الثالث ثلاثة محاور رئيسة هي : علاقة الفقيه بالحكام والملوك والأمراء سواء كانت إيجابية أم سلبية ، ثم علاقة الفقهاء بعضهم ببعض ، وثالثاً علاقة الفقهاء بشرائح المجتمع المختلفة .

الباب الثاني وعنوانه **:صورة الفقيه في الشعر الأندلسي**، وجاء في ثلاثة فصول .

تناول الفصل الأول الصورة الإيجابية للفقيه في الشعر ، وفي الفصل الثاني الصورة السلبية للفقيه ، بينما تناول الفصل الثالث: صورة الفقيه في الموشح والزجل ، وتم التركيز على صورته في أزجال ابن قزمان .

الباب الثالث:وجاء تحت عنوان:**دراسة لنماذج من الشعر الأندلسي في نقد الفقهاء.** وفيه تحليل لبعض المقطوعات والقصائد التي قالها الشعراء في نقد الفقهاء وهجائهم ، وتضمن الحديث عن اللغة الشعرية ، والأساليب اللغوية ، والصورة الشعرية .

أما الخاتمة : فقد استعرضت باختصار ما جاء في هذه الدراسة ، وما توصل إليه الباحث من نتائج .

وأخيراً أقدم جزيل الشكر، والعرفان بالجميل ، لأستاذي الدكتور يونس شنوان شديفات، الـذي رعى هذا البحث منذ أن كان فكرة، وتابعه بتوجيهاته القيمة والسديدة إلى أن خرج بهذه الصورة التي أرجو أن تكون قد أضاءت بعض الجوانب القاتمة في ما يخص صورة الفقيه في الشعر الأندلسي .

كما أوجه خالص شكري وتقديري للأساتذة العلماء الأجلاء: الأستاذ الدكتور عبدالقادر أحمد الرباعي، رئيس جامعة جدارا ، والأستاذ الدكتور صلاح محمد جرار، نائب رئيس الجامعة الأردنية ، وأستاذ الأدب الأندلسي فيها، والأستاذ الدكتور ماجد ياسين جعافرة ، أستاذ الأدب العباسي في جامعة اليرموك على الجهد الكبير الذي تجشموه في قراءة هذه الدراسة ، وإبداء الملاحظات القيمة حول ما جاء فيها، وستكون موضع الاهتمام والمراجعة بإذن الله.

كما لا أنسى توجيه شكري وتقديري لأستاذي الدكتور عبدالكريم خليفة ، رئيس مجمع اللغة العربية على تشجيعه لي في تخطي الصعاب التي واجهتني في بداية هذا المشوار.

لهم مني جميعاً جزيل الشكر والتقدير.

التمهيد:

أولاً: الفقيه بين اللغة والاصطلاح:

قبل استعراض مفهوم الفقيه في اللغة والاصطلاح يحسن التوقف عند مصطلح الفقه؛ لمعرفة المعاني والدلالات التي جاءت بها معاجم اللغة لهذا المصطلح، ليسهل بعد ذلك إيضاح مفهوم الفقيه ،والوقوف على آراء العلماء الذين خاضوا هذا المجال.

فالفقه في الأصل – كما ورد في لسان العرب – الفهم. فيقال: أوتي فلان فقهاً في الدين؛ أي فهماً فيه، وفَقُه فقهاً: بمعنى علم علماً، وفَقِه الشيء بالكسر: فهم، والفقه: الفطنة والفقه: العلم بالشيء والفهم له، وغلب على الدين لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلم، كما غلب النجم على الثريا(١).

وجاء في القاموس المحيط :الفقه العلم بالشيء والفهم له والفطنة ، وغلب على علم الدين لشرفه(٢) ، وهذه المعاني والدلالات يؤكدها القرآن الكريم، والحديث الشريف، فقد وردت لفظة فقه ومشتقاتها في القرآن الكريم، في عشرين موضعاً، وجميع هذه الألفاظ وردت بصيغة المضارع، وإذا تتبعنا معاني هذه الألفاظ، فإنها تشير إلى الفهم والعلم بالشيء أو نفيهما.

فقد جاء في سورة التوبة للحض على التفقه في الدين ، والسماع من الرسول ﷺ لتبليغ الناس هذا العلم الذي يأخذونه منه في شؤون دينهم ودنياهم ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (٣) أي ليكونوا علماء بهذا الدين(*).

وفي سورة الكهف وردت كلمة يفقهون في قصة ذي القرنين في قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمَاً لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴾ (٤) بمعنى يفهمون، وجاء على لسان سيدنا موسى عندما دعا ربه أن يأخذ بيده، ويكون له عوناً، بعد تكليفه بالرسالة ، وعرضها على فرعون وقومه: ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ۞ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ (٥) أي يفقهوه ويعلموه.

---

(1) ابن منظور. **لسان العرب**، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٣، مادة: فقه.

(2) الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب.**القاموس المحيط**، ضبط وتوثيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٩، مادة فقه.

(3) **سورة التوبة**: الآية ١٢٢.

(*) تسابق المسلمون للخروج إلى الجهاد بعدما سمعوا كثرة الترغيب فيه، حتى بلغ من أمرهم أنهم كادوا يتركونه ﷺ في المدينة وحده، فنزلت الآية تأمرهم بان تنفر طائفة للجهاد وتبقى الأخرى لتسمع الرسول وتبلغ الآخرين عندما يحضرون. انظر: القرآن الكريم تفسير وبيان، إعداد:محمد حسن الحمصي، دار الرشيد، دمشق ـ بيروت،ص ٢٠٥.

(4) **سورة الكهف**: الآية ٩٣.

(5) **سورة طه**: الآية ٢٧-٢٨.

وفي أحاديث الرسول ﷺ لم يخرج المعنى اللغوي للفقه عما ورد في القرآن الكريم وما جاء في معاجم اللغة، ففي الحديث الشريف: " من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين"[1]، أي يفهمه قواعد الإسلام ،وما يتصل بها من فروع، ويعطيه فهماً دقيقاً في أحكامه ومراميه ،وقد دعا الرسول ﷺ لابن عباس: "اللهم فقهه في الدين"[2]، أي علمه أحكام الدين، وتفسير القرآن، وبيان معانيه وعبره.

الفقه في الاصطلاح:

إذا كان الفقه بمعناه اللغوي معروفاً في العصر الجاهلي بمعنى الفهم والفطنة، فإنه بالمعنى الاصطلاحي وليد البيئة الإسلامية الجديدة، فقد شاع هذا المصطلح بعد انتشار الدعوة الإسلامية، وحاجة المجتمع الإسلامي الجديد لتنظيم أمور دينه ودنياه، والبتّ في القضايا المستجدة في مختلف نواحي الحياة ، نتيجة التوسع الكبير والانتشار الواسع للدين، ودخول أجناس وأعراق متباينة في الفكر والثقافة والعادات والتقاليد في هذا الدين.

وفي الوقت الذي اتفق فيه العلماء المسلمون على الإطار العام لمفهوم الفقه، فقد تباينت آراؤهم في تفاصيله ومحتواه، فقد غلب في الصدر الأول استعمال الفقه في فهم أحكام الدين جميعها، أي فهم كل ما شرع الله لعباده من الأحكام، سواء كانت متعلقة بالإيمان والعقائد، وما يتصل بهما، أم كانت أحكام الفروض والحدود والأوامر والنواهي والتخيير[3].

بينما يرى العلاّمة ابن خلدون[4] في مقدمته ،أن الفقه يختص بمعرفة الأحكام التي جاءت بها الشريعة الإسلامية في أفعال العباد ، والمستمدة أدلتها من القرآن الكريم ،وحديث الرسول ﷺ، فالفقه عنده هو: "معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة، وهي متلقاة من الكتاب والسنة، وما نصبه الشارع لمعرفتها من الأدلة؛ فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قيل لها فقه"[5].

وتوسع العلماء المعاصرون في تحديد الأمور التي يختص بها الفقه، فشمل جميع مظاهر الحياة : الدينية والاجتماعية والسياسية والمالية ، وغيرها، فقد عرّفوه بـ "معرفة القوانين الإسلامية التي تنظم معاملات الناس على اختلاف شعابهم ، من عبادات وأحوال شخصية،

---

(1) العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر، **فتح الباري، شرح صحيح البخاري**، ج١، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٧٩هـ، ص ١٦٤.

(2) السابق، ص ٢٤٤.

(3) إسماعيل، شعبان محمد: **التشريع الإسلامي مصادره وأطواره**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥، ص ١٠.

(4) هو أبو زيد عبدالرحمن ولي الدين بن خلدون، ولد بتونس سنة ٧٣٢هـ ، حفظ القرآن صغيراً على يد والده، تولى مجموعة من الوظائف للعامة، وتنقل بين المغرب والأندلس ،ومصر . توفي سنة ٨٠٨هـ. انظر: ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد. **مقدمة ابن خلدون**، تح: علي عبدالواحد وافي ، نهضة مصر، ٢٠٠٤، مقدمة المحقق عن حياة ابن خلدون.

(5) ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد.(ت ٨٠٨هـ) **مقدمة ابن خلدون**، ج٣، ص٩٤٧.

وشؤون اجتماعية وقضائية ومالية وسياسية وعسكرية ، على أن تتم هذه القوانين من خلال الأدلة الشرعية في الإسلام، وهي القرآن والسنة، والاجتهاد بضروبه الكثيرة"[١].

الفقيه في اللغة:

لا يخرج معنى الفقيه لغة واصطلاحاً عن معنى الفقه، فهو مأخوذ منه، ومشتق من معانيه، فمما جاء في لسان العرب[٢]:رجل فقيه. عالم، وكل عالم بشيء فهو فقيه، وفقيه العرب: عالم العرب. ويقال: رجل فقيه: وقد فَقُهَ يَفْقهُ فقاهةً إذا صار وساد الفقهاء،ويقال: فحلٌ فقيه (للجمل) طبٌّ بالضرب حاذق. أي فطنٌ، يميز النوق الحوامل من الحوائل.

وفي المعجم المدرسي جاء الفقيه بمعنى: العالم بالشيء، والراسخ في علم الفقه وأصول الشريعة، ومن كان شديد الفهم (ج) فقهاء[٣].

ورجل فقيه: أي فطن في الدين، عالم بأسراره، وفقيه أي مجتهد ومستنبط للأحكام[٤].

وفي زمن الصحابة أُطلق لقب الفقيه على القراء الحاذقين، الذين عندهم العلم الواسع بالقرآن الكريم وأحكامه، وما سمعوه من الرسول الكريم حول ذلك، فابن خلدون "يرى أن الصحابة لم يكونوا كلهم أهل فتيا، ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم، وإنما كان ذلك مختصاً بالحاملين للقرآن، العارفين بناسخه ومنسوخه، ومتشابهه ومحكمه، وسائر دلالاته، بما تلقوه من النبي ﷺ، أو ممن سمعه منهم من عِليتهم، وكانوا يسمون لذلك القراء، وبقي الأمر كذلك صدر الملة (صدر الإسلام) حتى تمكن الاستنباط، وكمل الفقه، وأصبح صناعة وعلماً، فبُدِّلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء"[٥].

أما الحسن البصري[٦] فيرى أن الفقيه يطلق على ذلك الإنسان الذي يتصف بمجموعة من الصفات والأخلاق الفاضلة التي تربطه بالله تعالى حيناً، أو صفات خلقية حميدة يتمتع بها، أو سلوك فاضل قويم في معاملة الناس ، فهو "الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير

---

(1) بهجت، منجد مصطفى. **الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهد ملوك الطوائف والمرابطين**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٦، ص ١٠٦.

(2) ابن منظور. **لسان العرب**، ، مادة: فقه.

(3) أبو حرب، محمد خير. **المعجم المدرسي**، وزارة التربية في الجمهورية العربية السورية، ط١، ١٩٨٥، مادة: فقه.

(4) ابن بيه، عبدالله شيخ محفوظ. **مجلة البحوث الفقهية المعاصرة**، العدد ١، السّنة ٢٠٠٦، ص ١١٧-١٣٨.

(5) ابن خلدون. **مقدمة ابن خلدون**، ص ٩٤٧ـ٩٤٨ .

(6) هو أبو سعيد الحسن بن يسار البصري، تابعي، أدرك بعض الصحابة ، كان شجاعاً، ناسكاً، فصيحاً، عالماً، وكان إمام أهل البصرة، توفي سنة ١١٠هـ . انظر: العمري، ابن فضل الله شهاب الدين أبي العباس أحمد بن يحيى . **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تح: محمد عبدالقادر خريسات ، و عصام مصطفى عقلة، ويوسف أحمد بني ياسين، مركز زايد للتراث والتاريخ،العين، الإمارات ، ٢٠٠١ ، المجلد السادس ، ص٤٧٩.

بدينه، المداوم على عبادة ربه، الورع، الكاف نفسه عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لجماعتهم"[١].

ويرى عمر الأشقر أن كلمة فقيه تطلق على عالم الدين المتمكن، الحاذق، الذي يستطيع أن يسبر أغوار الآيات القرآنية وأحاديث المصطفى ﷺ ، ويستنبط منها الأحكام التي تهم جماعة المسلمين، فالفقيه في رأيه : "هو صاحب البصيرة في دينه، الذي خلص إلى معاني النصوص ، واستطاع أن يخلص إلى الأحكام والعبر والفوائد التي تحويها النصوص"[٢].

ومن مجمل التعريفات السابقة للفقيه، نخلص إلى أن الفقيه مصطلح يدل على ذلك الشخص المتبحر في علوم الدين وأحكامه، وصاحب البصيرة النافذة في استنباط الأحكام من مصادرها، وإسنادها إلى أدلتها الشرعية من القرآن والسنة، وقد خصه الله بنوع من الفهم لكتاب الله، وسنة رسوله، علاوة على تمتعه بصفات خلقية مثالية.

ومن كل ما سبق تتضح بجلاء تلك العلاقة الوثيقة، والدلالة الواضحة بين مصطلحي الفقه والفقيه في اللغة، وما جاء على ألسنة العرب قبل الإسلام وبعده، وبين مفهومهما في اصطلاح الشرع والعلماء، فهما وجهان لعملة واحدة، لا يمكن فهم أحدهما ودراسته بمعزل عن الآخر.

فإذا كان الفقه في رأي تاج الدين السبكي[٣] "العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية"[٤] فإن الفقيه هو العالم المتمكن من هذه الأحكام، القادر على إسنادها إلى أدلتها التفصيلية من الكتاب والسنة، فالفقيه في الاصطلاح ما هو إلا ترجمة دقيقة وموسعة لمفهومه في اللغة، رغم تطور دلالته، ابتداءً من العصر الجاهلي الذي أطلق اسم فقيه على الفحل من الجمال، الفطن، المميز النوق الحوامل من غيرها، مروراً بعصر صدر الإسلام الذي استعار هذا المفهوم باسم القراء، ليدل على صاحب البصيرة في الدين، العالم بأسراره، ثم أطلق على العالم المجتهد الذي حباه الله قدرة وملكة تمكنه من استنباط الأحكام الشرعية ،وإسنادها إلى أدلتها الشرعية، ثم أطلق هذا المفهوم على الحافظ لبعض المسائل الفقهية، ولو لم يملك القدرة على استنباط الأحكام[٥].

---

(1) الغزالي. **إحياء علوم الدين**، دار المعرفة للطباعة، بيروت (د.ت)، ص ٣٢.

(2) الأشقر، عمر سليمان. تاريخ **الفقه الإسلامي**، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، ودار النفائس للنشر والتوزيع، الكويت، ط٢، ١٩٨٩، ص ١٢.

(3) هو أبو نصر عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي السبكي، كان طلق اللسان، قوي الحجة، تعصب عليه شيوخ عصره فاتهموه بالكفر، واستحلال شرب الخمر، فجرى عليه من المحن والشدائد ما لم يجر على فقيه مثله، توفي بالطاعون سنة ٧٧١هـ. انظر: السبكي،تاج الدين عبدالوهاب بن علي. **جمع الجوامع في أصول الفقه**، تح: عبدالمنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ٢٠٠١، ص٩.

(4) السبكي، **جمع الجوامع في أصول الفقه**، ص ٦.

(5) انظر: ابن بيه، عبدالله شيخ محفوظ. **مجلة البحوث الفقهية المعاصرة**، ص ١٢٢.

إن العالم المختص بعلم الدين والشريعة، والمستنبط لأحكامهما من مصادرهما الشرعية هو ما أجمع علماء الأمة بإطلاق اسم الفقيه عليه، ولكن في المجتمع الأندلسي خرج هذا المفهوم لمعانٍ أوسع وأشمل، فليس الفقيه عندهم محصوراً بعالم الدين، بل تعداه ليشمل كل من نبه بأي فرع من فروع المعرفة، فعالم اللغة، وعالم النحو، والشاعر المجيد، والأديب الفذ، كلهم في نظر أهل الأندلس فقهاء، ليس هذا حسب، بل أطلق في عهد المرابطين على الأمير العظيم أو الحاكم النابه، فإذا ما أرادوا تعظيم شخص ما، ورفع مكانته، والاعتراف بفضله أطلقوا عليه اسم فقيه، "فللفقه رونق ووجاهة،... وسمة الفقيه عندهم (أهل الأندلس) جليلة، حتى إنّ الملثمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه، وهي الآن بالمغرب بمنزلة القاضي بالمشرق ،وقد يقولون للكاتب والنحوي، واللغوي فقيه، لأنها عندهم من أرفع السمات"[1].

يؤكد هذا أن المتصفح لكتب التراجم المعروفة في الأندلس ،يجد كثرة إطلاق هذا اللفظ على أعلام غير متخصصين في علوم الدين، بل على شعراء، وكتاب، ونحاة ،ولغويين، مما يؤكد العلاقة الوثيقة بين مصطلح الفقيه في اللغة، الذي وضح سابقاً ،وما سار عليه أهل الأندلس من تسمية علمائهم فقهاء.

وعلى هذا، فإن الفقيه مدار البحث والدراسة ، سيركز بالدرجة الأولى على الفقيه بمعناه الاصطلاحي، أي العالم بأحكام الدين والشريعة (عالم الدين) دون غيره من العلماء، مع الإشارة إلى أن هذا الفقيه، قد يجمع إلى جانب علمه الديني، علوماً أدبية أو نحوية أو لغوية، أو يكون قد تقلد مناصب رفيعة في الدولة، سياسية أو إدارية أو اجتماعية، كأن يكون مصلحاً أو قائداً أو قاضياً أو مشاوَراً أو حتى حاكما ، فنبوغه في مجالات متعددة لا ينفي عنه أن يكون فقيهاً ،بل هذه من الصفات التي يحسن أن تتوفر في الفقيه العامل.

ثانياً: المذاهب الفقهية التي انتشرت في الأندلس:

عندما فتحت الأندلس، ودخل كثير من أهلها في الإسلام، كان هؤلاء بحاجة إلى من يوضح لهم أحكام دينهم الجديد ،وييسر عليهم تعاليمه ،حتى يتمكن هذا الدين من قلوبهم، ولما كانت المذاهب الفقهية التي تفصّل هذه الأحكام ،وتستنبطها من مصادرها لم تظهر بعد، فقد كانت الوسيلة في نشر تلك التعاليم السير على مذهب السلف وأهل الحديث، وذلك بتقليد الصحابة،

---

(1) المقَّري، أحمد بن محمد. **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الجديدة، ٢٠٠٤، المجلد١، ص ٢٢١.

والسلف الصالح في حياتهم وأحكامهم، واستمر هذا الحال طيلة الفترة التي سبقت ظهور المذاهب الفقهية المعروفة[1].

ونتيجة لتغير الظروف بشكل عام ،وكثرة المستجدات في الأندلس، كان مسلمو هذه البلاد بحاجة إلى مذهب يجمعهم، ويعينهم في فهم أمور دينهم، وتنظيم أمور حياتهم، فكان مذهب الإمام الأوزاعي[2] إمام أهل الشام وفقيهها، هو الذي حاز قصب السبق في دخول الأندلس، ليكون بذلك أول مذهب فقهي سار على أحكامه أهلها، ومن أبرز الشخصيات التي عملت على نقل هذا المذهب ونشره في بلاد الأندلس الفقيه الشامي: صعصعة بن سلام (ت ١٩٢هـ) [3]

وتعددت الأسباب التي عللت دخول هذا المذهب إلى الأندلس قبل غيره من المذاهب، فقد أشار أحد الباحثين إلى أن من الأسباب التي ساعدت على انتشار مذهب الأوزاعي في الأندلس هو ذيوعه بين الجنود الأوائل الفاتحين، خاصة ذوي الأصول الشامية[4].

وأرى أن هذا الرأي ليس دقيقاً، فعندما فتحت الأندلس (٩٢هـ)، لم يكن هناك مذاهب فقهية معروفة خصوصاً مذهب الأوزاعي، الذي ولد صاحبه عام (٨٨هـ)، أي في فترة تلك الفتوحات، فكيف أمكن لهؤلاء الجنود نقل هذا المذهب ونشره وهو لم يظهر بعد؟

والأقرب إلى الصواب : أن انتشار مذهب الأوزاعي في الأندلس يعود إلى بعض أتباعه ومريديه، الذين حملوه عندما رحلوا إلى الأندلس إبان ضعف دولة بني أمية في دمشق واضطرابها، في أواخر عهدها ثم سقوطها على يد العباسيين عام (١٣٢هـ) [5].

---

(1) انظر فروخ، عمر. **العرب والإسلام في الحوض العربي من البحر المتوسط**، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٨١، ص ١٨٤-١٨٥.

(2) هو عبد الرحمن بن عمرو أبو عمر الأوزاعي، ولد عام (٨٨هـ)، كان نجماً ساطعاً بين العلماء، وكان فقيهاً عالماً ،ويذهب بعض العلماء إلى أنه سمي بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة أوزاع من جنوب الجزيرة العربية، ويرى آخرون أن الأوزاعي نسبة إلى حي من أحياء دمشق، توفي عام (١٥٧هـ). انظر: الشناوي، أحمد . وزميلاه ، **دائرة المعارف الإسلامية**، دار الفكر، مجلد ٣، أوزاعي، ص ١٣٩.

(3) هو صعصعة بن سلام الدمشقي ولعل نسبته إلى الأندلس لاستقراره فيها، فقيه من أصحاب الأوزاعي وهو أول من أدخل مذهب الأوزاعي إلى الأندلس ، توفي سنة (١٩٢هـ) وقيل (١٨٠هـ). انظر: الضبي، أحمد بن يحيى ، **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس**، تح: روحية عبد الرحمن السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧، ص ٢٨١.

(4) أبو لبدة، سامر طلعت توفيق. **أبو اسحق الالبيري الفقيه الزاهد، دراسة في شعره وفكره**، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ٢٠٠٣، ص ٢٦.

(5) انظر: إسماعيل، محمد شعبان. **التشريع الإسلامي مصادره وأطواره**، ص ٣٥٤-٣٥٥.

ومن الأسباب الأخرى التي ساعدت على انتشار هذا المذهب في الأندلس، أن حاضرة الدولة الأموية (دمشق) التي كان الأوزاعي فقيهها، وإمامها أقرب إلى الأندلس من العراق والحجاز، موطن المذاهب الفقهية الأخرى، وكانت الأندلس في مرحلة الفتح والولاة بحكم خضوعها لسيطرة الأمويين أكثر ارتباطاً بما يدور بدمشق من غيرها، بالإضافة إلى أن تبادل التجارة، وإرسال الوفود بينهما أشد وأعمق من العراق والحجاز[1]،ويعدّ هذا المذهب من المذاهب السنية التي انقرضت ،ولم يطل العمل بها كمذاهب، ولم يعمر في الأندلس أكثر من خمسين عاماً، بعد أن واجه المذهب المالكي القوي المدعوم من السلطة السياسية.

٢. مذهب الإمام مالك[٢]:

يعد مذهب الإمام مالك المذهب الأقوى،والأوسع انتشاراً، والأشد سطوةً في الأندلس، فبعد أن كان أهلها على مذهب الأوزاعي ــ كما سبق ــ بدأت طلائع هذا المذهب بالانتشار سريعاً في تلك الديار ،على يد مجموعة من الفقهاء الذين تلقوا العلم على مالك، وبعض تلاميذه وعادوا إلى الأندلس لنشر هذا المذهب، وما لبث أن طغى على مذهب الإمام الأوزاعي وحل محله، ليكون المذهب القوي الذي فرض وجوده بقوة، في أغلب فترات الحكم الإسلامي للأندلس، وخاصة في الفترة مدار البحث.

وهناك أسباب وتفسيرات متعددة اجتهد أصحابها في توضيح سيطرة هذا المذهب على أهل الأندلس، فالحكم المستنصر[٣]أوضح جملة من الأسباب التي جعلت ولاة الأمر يحتضنون مذهب مالك، وينبذون ما سواه ، وذلك في كتاب بعثه إلى الفقيه أبي إبراهيم [٤]، بين له سمات هذا المذهب وخصائصه "وكل من زاغ عن مذهب مالك، فإنه ممن رين على قلبه، وزين له سوء عمله، وقد نظرنا طويلاً في أخبار الفقهاء، وقرأنا ما صُنّف في أخبارهم إلى يومنا هذا، فلم

---

(1) انظر: الصفار، عبد الرزاق قاسم. **الإمام الأوزاعي ومنهجه كما يبدو من فقهه**، بغداد، ط١، ١٩٧٦، ص ٦٢٣.

(2) هو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي، نسبة إلى قبيلة أصبح اليمنية، بدأ حياته العلمية بعلم الرواية ، والعلم بفتاوي الصحابة وتتبعها، حتى اشتهر بإمام دار الهجرة، توفي سنة١٧٩هـ. انظر: أبو زهرة ، الإمام محمد. **تاريخ المذاهب الإسلامية تاريخ المذاهب الفقهية**، ج١، دار الفكر العربي، ١٩٨٧، ص ٣٩٠ــ ٤٣٣.

(3)هو الحكم بن عبدالرحمن بن محمد المعروف بالمستنصر بالله، كان حسن السيرة والسلوك، جامعاً للعلوم ، محباً لها، مكرماً لأهلها، وجمع من الكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد من ملوك الأندلس قبله، توفي سنة ست وستين وثلاثمائة، وله من العمر سبع وأربعون سنة. انظر: ابن سعيد المغربي.**المغرب في حلى المغرب** ، تح: شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة، ط٣، ١٩٧٨، ج١ ، ص١٨٦

(4)هو إسحق بن إبراهيم بن مسرة التجيبي، كان خيراً ، ديناً ورعاً من أهل العلم والعقل والفهم والزهد والتقشف، والبعد عن السلطان، ولم يكن في عصره أبر منه، توفي سنة ٣٥٤هـ . انظر: عياض، القاضي. **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، تح: أحمد بكير محمود،منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، دار مكتبة الفكر، ليبيا،ج٢، ص ٤٢٤ــ ٤٢٩.

نر مذهباً من المذاهب غيره أسلم منه، فإن فيهم الجهمية، والرافضة ،والخوارج والمرجئة، والشيعة، إلاّ مذهب مالك رحمه الله تعالى. فإنّا ما سمعنا أحداً ممن تقلد مذهبه، قال بشيء من هذه البدع ،فالاستمساك به نجاة إن شاء الله تعالى"(1).ومن هذه الرسالة يبدو واضحاً ، أن خلفاء بني أمية في الأندلس، كانوا لا ينظرون بعين الرضا ،إلى الأفكار المذهبية التي انتشرت في العصر العباسي، وكانت السبب في كثير من الاضطرابات والفتن ،التي كادت أن تعصف بالخلافة العباسية في أكثر من عهد. فاجتهدوا في توحيد المذهب في الفقه والقضاء ،فوجدوا أن مذهب مالك هو الذي يناسب عصرهم.

أما ابن حزم فيرى أن سبب انتشار مذهب مالك في الأندلس يعود إلى قوة السلطان، وذلك أن يحيى بن يحيى(2) أحد أشهر من تلقوا العلم عن مالك "كان مكيناً عند السلطان، مقبول القول في القضاة ،وكان لا يلي قاضٍ في أقطار الأندلس إلا بمشورته واختياره، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به"(3).

ويرى ابن خلدون أن التشابه في البداوة بين أهل الأندلس، وأهل الحجاز،وابتعادهما عن الحضارة التي لأهل العراق، جعلت أهل الأندلس يميلون إلى مذهب إمام أهل المدينة الإمام مالك(4)وعبّر شاعر أندلسي يدعى طالب بن عصمة(5) بأبيات شعرية وضح فيها ما تميز به مذهب الإمام مالك وفقهه من سهولة، ومرونة، تهدي الناس إلى أمور دينهم، فهو ذروة العلم، بينما الآخرون يستمدون العلم منه ولا يدانونه فيقول(6) من الطويل:

إمَامُ الوَرَى فِي الهَدْيِ والسَّمْتِ مَالِكُ وَفِي الفِقْهِ وَالآثَارِ مَا إنْ يُدَارَكُ
فَآرَاؤُه فِي الفِقْهِ يَسطَعُ نُورُهَا وَتَسْهُلُ فِي إيضَاحِهِنّ المَسَالِكُ
وآثَارُه يَهْدِي العِبَادَ وَمِيضُهَا لَعَمْرِي كَمَا تَهْدِي النُّجُومَ الشَّوَابِكُ

(1) عياض . **ترتيب المدارك وتقريب المسالك** ،ج1، مرجع سابق، ص51.

(2) هو يحيى بن يحيى الليثي، أصله من البربر، راوي الموطأ عن مالك، لقبه مالك بعاقل الأندلس ، انتهت إليه الرياسة في الأندلس، وبه اشتهر مذهب مالك في تلك الديار، كان معظماً عند الأمراء، وكان أعلى من القضاة قدراً عند ولاة الأمر بالأندلس ، وكان ممن اتهم بالهيج في وقعة الربض المشهورة توفي سنة 234هـ، ودفن في قرطبة، انظر المقري. **نفح الطيب** ، ، ج2، ص 9-12.

(3) المقري . **نفح الطيب** ، ج2، ص 10.

(4)انظر:ابن خلدون،**مقدمة ابن خلدون**. ص 954.

(5) هو طالب بن عصمة، أندلسي، سكن الإسكندرية، كان من الرواة عن مالك، توفي سنة ثلاث وسبعين ومائة. أنظر: ابن الفرضي،عبدالله بن محمد بن يوسف الأزدي. **تاريخ علماء الأندلس**، تح: روحية السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997، ص172.

(6) ابن الفرضي. (ت 403هـ) **تاريخ علماء الأندلس** مرجع سابق، ص172.

لَــهُ مِــنْ ذُرَى العِلْــمِ الــسَّنَامُ وَشِــلْوُهُ وَفِــي سَــائِرِ النَّــاسِ الــشَّظَا وَالــسَّنَابِكُ

ويرى غسان عبد الخالق أن المرحلة التي انتشر فيها مذهب مالك في الأندلس تتطلب هذا التحول عن مذهب الأوزاعي، إلى مذهب مالك؛ لمواكبته تلك التطورات الحضارية والازدهار الحضاري اللذين شاعا في الأندلس، فالتطور والازدهار الحضاريان يستتبعان بالضرورة التوسع في القضايا والأحكام المتعلقة بالممارسات والمعاملات والعبادات، كما أن التواصل الثقافي الذي لم يتوقف بين المشرق والمغرب، كان يملي ضرورة مواكبة التطور في الفكر الفقهي[1]، وهذا هو الفرق بين مذهب مالك ومذهب الأوزاعي، الذي كان يعمل على حذر دون مراعاة لتلك التطورات والتغيرات في المجتمع الأندلسي.

وثمة من يعزو الأسباب التي دفعت حكام الأندلس وأهلها لتبني المذهب المالكي دون غيره من المذاهب، إلى سبب سياسي بالدرجة الأولى، ويرى أن مبادرة هشام بن عبد الرحمن ومن بعده ابنه الحكم إلى احتضان مذهب مالك ،وفرضه بقوة السلطان على مجتمع الأندلس كان بسبب اضطهاد العباسيين الإمام مالكاً ، بسبب بعض فتاواه، مما جعل مالكاً يضمر حقداً وبغضاً للعباسيين ،ويتوق إلى حاكم عادل لبلاده مثل حاكم الأندلس الذي أثنى عليه خيراً، ودون شك فقد التقى هذا البغض مع بغض الأمويين في الأندلس للعباسيين، مما أدى إلى تقاربهما، واطمئنان كل منهما للآخر، وتقديراً واحتراماً لموقف مالك من أمراء الأندلس عمل هؤلاء على فرض مذهبه في الأندلس كلها ،علاوة على ذلك فإن الممالك الشيعية التي كانت تحيط بالأندلس ،وتدعم مذهب أبي حنيفة الموالي للعباسيين ،كانت سبباً في التشدد الذي أظهره أهل الأندلس لكل التيارات الفكرية التي تناوئ الحكم الأموي في الأندلس،فالخلاف الشديد بين هذه التيارات الفكرية (خوارج، شيعة، معتزلة، متصوفة) وبين الأمويين معروف، إذ كان لهذه التيارات وخصوصاً الشيعة الدور الأكبر في سقوط دولة بني أمية في المشرق[2].

ولعل ما ذكره الحكم المستنصر، وما جاء به ابن حزم كان له الدور الأكبر في شيوع مذهب مالك ،خصوصاً إذا عرفنا أن تلاميذه الذين عملوا على نشر مذهبه في الأندلس عادوا من المشرق بسمعة طيبة عنه، وعن أخلاقه، وإطرائه لحاكم الأندلس آنذاك هشام بن عبد الرحمن، وتمنيه أن يكون في بلاده حاكم مثله، مما جعل الأمير هشاماً يقدر هذا العالم الجليل ،ويقرب تلاميذه منه، ويحمل أهل الأندلس كلها على اتباع مذهبه.

مما سبق نخلص إلى أن مذهب مالك فرض وجوده في الأندلس لأسباب متعددة، وأصبح المذهب الوحيد المعترف به، لذلك "أقامت الغالبية العظمى من فقهائه نفسها حارسة يقظة عليه،

---

(1) عبد الخالق، غسان إسماعيل. **الدولة والمذهب في العلاقة بين الأمويين ومالك بن أنس في الأندلس**، مجلة أفكار، عمان، عدد (١٢٤)، ص ٩٨.

(2) انظر: يفوت، سالم. **ابن حزم والفكر الفلسفي في الأندلس والمغرب**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، ص ٩٤-٩٦.

حتى انتهى به إلى الجمود النظري، وكانت الأفكار المناسبة تجيء دائماً مصبوغة بلون مالكي ، وتأخذ شكلاً واحداً يوحي بالحذر"[١].

هكذا وصفت مالكية الأندلس بالجمود والتحجر، والانغلاق والتقوقع على نفسها،فدافعت عن المذهب المالكي ،ووقفت أمام كل فكر يأتي من المذاهب الأخرى،حتى لو كانت أفكار المذاهب السنية التي تشترك مع المالكية في ذلك.

ولكن سالم يفوت، يعارض من يصف المذهب المالكي في الأندلس بالجمود والتحجر، بل ويبرر ذلك ويصفه بأنه دفاع عن النفس، تمثل بعداوة أتباع المذهب لكلّ الأفكار والدعايات غير السنية، وحتى السنية التي لا تسير وفق منهج فقهاء الأندلس المالكيين، "فما يسمى جموداً أو تحجراً كان مبرراً تاريخياً، إذ كان الفقهاء يعتقدون أن ليس هناك بد من ذلك إذا أرادوا حقاً الاحتفاظ بوحدة دينية في الأندلس والمغرب"[٢].

ويعود الفضل إلى انتشار هذا المذهب في الأندلس، إلى مجموعة من الفقهاء الأندلسيين الذين رحلوا إلى الشرق ، وتحديداً إلى الحجاز موطن الإمام مالك، وتلقوا عنه العلم مباشرة أو عن تلاميذه الكبار ،والشائع أن زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون[٣] هو أول من أدخل الموطأ إلى الأندلس وعمل على نسخه ونشره فيها، ومن الذين كانت لهم اليد الطولى في نشر هذا المذهب في الأندلس: عيسى بن دينار[٤]، ويحيى بن يحيى الليثي،صاحب الكلمة القوية، والمسموعة عند الأمراء، والنفوذ الواسع الذي مكّنه من فرض المذهب المالكي كمذهب رسمي للدولة.

عمل الفقهاء الذين درسوا على الإمام مالك أو تلاميذه الكبار على تدوين الفقه المالكي لحفظه ونشره بين الناس في الأندلس، فعبد الملك بن حبيب[٥]، دوّن الفقه المالكي ومسائله

---

(1) بروفنسال، ليفي. **الحضارة العربية في اسبانيا**، ترجمة: الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥، ص ١٥٠.

(2) يفوت. **ابن حزم والفكر الفلسفي في الأندلس والمغرب**، ص ٩٧.

(3) هو زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي المعروف بشبطون، كان فقيه الأندلس على مذهب مالك، فقد سمع الموطأ عنه، وهو أول من أدخل مذهبه الأندلس، رفض تولي القضاء لهشام بن عبد الرحمن والد الحكم وهرب خوفاً من إكراهه على ذلك، توفي عام (١٩٣هـ)، انظر: المقري . **نفح الطيب** ، ج ٢، ص ٤٥.

(4) هو عيسى بن دينار بن وافد الغافقي، فقيه الأندلس، وهو إمام في الفقه على مذهب مالك وعلي طريقة عالية من الزهد والعبادة، وكان يميل إلى ترك الرأي والأخذ بالحديث، توفيسنة (٢١٢هـ)، انظر ترجمته في الضبي.**بغية الملتمس** ،ترجمة رقم ١١٤٤، ص ٣٥١.

(5) هو عبدالملك بن حبيب (١٧٩-٢٣٧) رحل إلى المشرق وتردد على حلقات الدرس هناك وخاصة في المدينة حيث درس الفقه على مذهب مالك وأصبح من كبار أنصاره، ولما عاد إلى الأندلس أصبح من أكبر العاملين على تحويل أهل الأندلس إلى المالكية، وقد اشتهر في الأندلس، ولقب بـ "عالم الأندلس" وكان لا يُسمع تلاميذه إلا كتبه، وموطأ مالك، وألف الواضحة التي تعتبر أحسن شرح على موطأ مالك. انظر، المقّري. **نفح الطيب** ، ج٢، ص ٥.

المختلفة، وما أخذ عن مالك بكتاب سماه الواضحة، التي أصبحت الكتاب الثاني بعد الموطأ، والمرجع الأساس في الفقه المالكي لمدة طويلة(١).

أما عبد السلام التنوخي المعروف بسحنون(٢) فقد ألف المدونة(٣) التي دوّن فيها مجموعة من الأسئلة الفقهية ،وأحكام مذهب مالك فيها، ثم اختصرها محمد بن أحمد العتبي القرطبي(٤)، بما يسمى المستخرجة (٥)أو العتبية وهذه المدونات أو المختصرات أصبحت على يد فقهاء المذهب، هي الكتب الأساسية لمختلف القضايا والأحكام المستجدة في حياة أهل الأندلس، مما أدى بالفقهاء المشتغلين إلى الكسل والتقليد والبعد عن الاجتهاد الشخصي ،والرجوع إلى الكتاب والسنة ،وما أثر عن الصحابة، أو استنباط الأحكام الشرعية من أصولها المعروفة(٦).

المذهب الظاهري:

يعد دواد بن خلف الأصفهاني(٧) المؤسس الأول لهذا المذهب الفقهي، الذي نشأ في العراق أول ما نشأ ،وفقهه يقوم على الالتزام بالمصدرين الكبيرين، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والوقوف عند

---

(1) انظر يفوت. **ابن حزم والفكر الفلسفي في الأندلس والمغرب**، ص ٩٨.

(2) هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي المعروف بسحنون، أصله من حمص بالشام ولد سنة (١٦٠هـ) وسمي بسحنون باسم طائر (حديد) لحدته في المسائل، ، صنف المدونة في مذهب مالك ونشرها في القيروان وعليها يعتمد المالكية، انظر :عياض. **ترتيب المدارك وتقريب المسالك** ، مجلد١، ص ٥٨٥-٦٢٦.

(3) المدونة: كتاب جمعه أسد بن الفرات في الأسدية، ثم أخذها سحنون ورتبها وصححها على ابن القاسم ونشرها باسم المدونة الكبرى، وهي تجمع آراء مالك المروية عنه، والمخرّجة على أصوله، وبعض آراء أصحابه، وبعض الآثار والأحاديث التي وردت في مسائل الفقه المالكي، انظر: عياض. **ترتيب المدارك وتقريب المسالك**، ج١، ص ٤٩٦-٤٧٣.

(4) أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبي الأندلسي القرطبي، الفقيه المالكي المشهور، صاحب العتبية ،كان حافظاً للمسائل الفقهية، جامعاً لها، وهو الذي جمع المستخرجة أو العتبية من الأسمعة المسموعة غالباً من مالك وأكثر فيها من الروايات المطروحة ،والمسائل الشاذة الغريبة ،فدخل فيها خطأ كثير، توفي في الأندلس سنة (٢٥٥هـ)، انظرالمقري، **نفح الطيب** ، ج٢، ص ٢١٥-٢١٦.

(٥) المستخرجة وضعها العتبي، وأكثرفيها من الروايات المطروحة، والمسائل الشاذة، والمسائل التي لا أصول لها ، وكان يأتي بالمسائل الغريبة ، فإذا أعجبته قال: أدخلوها في المستخرجة، وفيها خطأ كبير، وجلها مكذوب. انظر: عياض . **ترتيب المدارك**، ج٢، ص١٤٤.

(6) انظر يفوت. **ابن حزم والفكر الفلسفي بالمغرب والأندلس**، ص ٩٨-١٠٠.

(7) داود بن خلف الأصفهاني أبو سليمان، صاحب المدرسة الظاهرية في الفقه الإسلامي، وهي المدرسة التي لا تأخذ في القرآن والحديث إلا بظاهر اللفظ، ولد في الكوفة عام (٢٠٠هـ)، وكان على مذهب الإمام الشافعي ،ولكنه كان أكثر من الشافعية تعصباً، وذلك أنه لم ينكر الرأي فحسب، بل أنكر أيضاً القياس، وقد التف حوله كثير من التلاميذ، ووجدت تعاليمه بعد ذلك في شخص ابن حزم داعياً موهوباً متعصباً لها. انظر:الشنتاوي ، أحمد وزميله. **دائرة المعارف الإسلامية**، دار الفكر، المجلد التاسع، مادة: داود، ص ١٢٩-١٣٠.

ظاهر نصوصهما، كما تدل عليه ألفاظ اللغة[١] ،وهو بهذا قد أنكر وبشدة الرأي والقياس، وهما من المرتكزات الأساسية التي قامت عليها المذاهب الفقهية المعروفة والمشهورة، ولكنه أقر بالإجماع، وعمل به، ولكن هذا الإجماع هو إجماع الصحابة دون غيرهم[٢].

وقد وصلت أفكار هذا المذهب ومبادئه إلى الأندلس عن طريق عبدالله بن محمد بن قاسم بن هلال[٣]، وكان قد تتلمذ على داود الأصفهاني،بعد أن كان مالكياً، ونسخ كتبه وأقبل بها إلى الأندلس حيث نشرها بين طلاب العلم[٤]،ويعد منذر بن سعيد البلوطي[٥] (٢٧٢-٣٣٥) أول ظاهري منافح عن هذا المذهب من أهل الأندلس، فقد رحل إلى المشرق ودرس على شيوخه، وعندما عاد إلى بلده أنكر تقليد المالكيين ،وما هم عليه من اعتمادهم على المدونات، وابتعادهم عن الحديث تحديداً[٦].

أما إمام هذا المذهب الذي انتشر على يديه واشتهر ، ولاقى معارضة شديدة، وخصوصاً من أصحاب المذهب المالكي، الذين ألّبوا عليه الحكام والعامة، فهو ابن حزم الأندلسي[٧] الذي بدأ حياته الفقهية على مذهب مالك، ثم تحول إلى مذهب الشافعي، وما لبث أن هجره واتبع المذهب أو الفكر الظاهري ومبادئه.

ويبدو أن هذا التنقل بين المذاهب الفقهية له أسبابه ودوافعه التي فرضتها البيئة الأندلسية وطبيعة المذاهب الفقهية التي انتشرت في الأندلس آنذاك، والعلاقات القائمة بين الفقهاء، والمسالك التي سلكها هؤلاء الفقهاء في فتاواهم، مستغلين الرأي والقياس والاستحسان أسوأ استغلال، فالمهازل التي جرت على مسرح السياسة ،وأروقة القصور وساحات الشوارع باسم

---

(1) فؤاد، عبد الفتاح أحمد. **الظاهرية ، أبحاث مؤتمر التراث الأندلسي، الشخصية والأثر**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٤، ص ٨٨.

(2) انظر: الشناوي، أحمد. **دائرة المعارف الإسلامية**، المجلد التاسع، ص ١٣٠.

(3)هو عبدالله بن محمد بن قاسم بن هلال، من أهل قرطبة، دخل العراق ، ولقي داوود بن سليمان صاحب المذهب فكتب عنه كتبه كلها ، وأدخلها الأندلس،وكان علم داوود الأغلب عليه، توفي سنة ٢٧٢هـ. انظر: ابن الفرضي، **تاريخ علماء الأندلس**، ترجمة رقم: ٦٥٥، ص١٨٠.

(4) انظر بالنثيا، آنخل جنثالث. **تاريخ الفكر الأندلسي**، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٥٠، ص ٤٣٩.

(5) هو منذر بن سعيد القاضي أبو الحكم المعروف بالبلوطي نسبة إلى موضع فحص البلوط القريب من قرطبة، ولي القضاء في حياة الحكم المستنصر بالله، وكان عالماً فقيهاً، وأديباً بليغاً وكان يميل إلى الأخذ بالظاهر، توفي سنة ٣٣٥هـ .انظر: الضبي .**بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس** ، ص٤٠٦.

(6) انظر، بالنثيا، **تاريخ الفكر الأندلسي** ، ص ٤٤٠.

(7) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي، مولى بني أمية، كان حامل فنون من حديث وفقه وجدل وأدب ومنطق وفلسفة، وله كتب كثيرة في هذه الفنون، عدل إلى مذهب أصحاب الظاهر فنقحه ونهجه وجادل عنه، ووضع الكتب في بسطه، ولاقى الاضطهاد والتشهير، والملاحقة في سبيل ذلك، توفي سنة ٤٥٦هـ. انظر: ابن سعيد المغربي. **المغرب في حلى المغرب** ، ص ٣٥٤-٣٥٧.

العقيدة والشريعة ،جعلت ابن حزم مقتنعاً بان الموبقات والانحرافات إنما وقعت في غيبة من الشريعة ،وفي تجاوز دلالتها الصريحة، وتأويلها باسم القياس والاستحسان والتعليل[1].

ومن هنا فقد عزم ابن حزم على إعادة الاعتبار للنص (القرآن والسنة) من خلال تضييق الخناق على الآراء والأقيسة التي يحكمها الهوى والأهواء، من قبل فقهاء السلطة "الذين تحولوا إلى مفسرين لتصرفات الحكام ومبررين لطغيانهم سعياً وراء مناصبهم في عطاياهم وخوفاً من بطشهم"[2].

فابن حزم يحارب القياس[3] والرأي[4]، والتقليد[5]، والتعليل[6]، والاستحسان[7] ولا يرى أنها من مصادر التشريع، فهو يحدد هذه المصادر بأربعة هي: القرآن الكريم والحديث الشريف، وإجماع علماء الأمة، ودليل مستخرج من تلك المصادر، "ولا سبيل إلى معرفة شيء من أحكام الديانة أبداً إلا من هذه الوجوه الأربعة وهي كلها راجعة إلى النص، والنص معلوم وجوبه، ومفهوم معناه بالعقل على التدرج الذي ذكرناه"[8].

فالنص عند ابن حزم هو محور الأحكام ومصدرها، ومن أراد الأحكام التي جاء بها الإسلام فما عليه إلا أن يأخذها من ظاهر النص، وليس تأويله بآراء مختلفة تأويلاً باطنياً ، يخرجه عما أرادته الشريعة السمحة ، "فالظاهر لديه هو النص نفسه، وليس رتبة أقل يقيناً منه، فهو اللفظ الوارد في القرآن أو السنة المستدل به على حكم الأشياء، واللفظ قد ورد على غاية ما وضع عليه من الوضوح والبيان، بحيث لا يحتمل إلا معنىً واحداً"[9].

ويؤكد ابن حزم مضمون آرائه الظاهرية بأبيات جميلة من الشعر، تعبر أجمل تعبير عن فكره هذا، فرغم كثرة ما قيل فيه، وهوجم به من قبل الفقهاء خاصة، إلا انه لا يعير ذلك اهتماماً؛ لأن هذه العيوب صادرة عن عقول ضعيفة متحجرة اتخذت الرأي والتقليد وسيلة وحيدة

---

(1) حسان، حسان محمد، ابن حزم الأندلسي، **عصره ومنهجه وفكره التربوي**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٧٨.

(2)حسان، حسان محمد، **ابن حزم الأندلسي**، ص ٧٩.

(3)القياس: وهو الحكم فيما لا نص فيه بمثل الحكم فيما فيه نص أو إجماع، انظر: أفغاني ، سعيد. **ملخص إبطال الرأي والقياس، والاستحسان**، دار الفكر، بيروت ، ط٢، ١٩٦٩ ، ص٥.

(4)الرأي: هو الحكم في الدين بغير نص بل بما يراه المفتي أحوط وأعدل من التحريم أو التحليل، انظر: المرجع السابق، ص٤.

(5)التقليد: هو أن يفتي المفتي بمسألة، لأن الإمام الفلاني أفتى بها.انظر : المرجع السابق، ص٦.

(6)التعليل: هو أن يستخرج المفتي علة للحكم الذي جاء به النص.انظر المرجع السابق، ص٦.

(7)الاستحسان: هو فتوى المفتي بما يراه حسناً فقط. انظر السابق، ص٥.

(8)ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد، **الإحكام في أصول الأحكام**، قدم له: إحسان عباس، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٨٣، المجلد الأول، ٦٩.

(9) يفوت . ابن حزم والفكر الفلسفي بالأندلس والمغرب، ص ١١٩-١٢٠.

للحكم على الأشياء، وتركت القرآن والسنة جانباً ، فهو متمسك بالنص، ولن يحيد عنه لأن فيه غناءً عن غيره فيقول[1] وهو من البسيط:

قَالُوا تَحَفَّظْ فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ كَثُرَتْ ... أَقْوَالُهُم وَأَقَاوِيلُ العِدَى مِحَنُ
فَقُلْتُ هَلْ عَيْبُهم لِي غَيْرَ أَنِّيَ لا ... أَقُولُ بِالرَّأيِ؟ إذْ فِي رَأيِهِمْ أَفَنُ
وَأَنَّنِي مُولَعٌ بِالنَّصِّ لَسْتُ إِلَى ... سِوَاه أَنْحُو وَلا فِي نَصْرِه أَهِنُ
لا أَنْثَنِي لِمَقَايِيسٍ يُقَالُ بِهَا ... فِي الدِّينِ، بَلْ حَسْبِيَ القُرآنُ والسُّنَنُ

وفي أبيات أخرى يعرّض بأهل الرأي، خصوصاً من أصحاب المذهب المالكي الذين اتجهوا إلى مدونات سحنون وغيره، يستمدون منها الأحكام الشرعية ، ويهجرون الأحكام الصريحة التي جاء بها القرآن الكريم، والحديث الشريف ، ويرى أن الأخذ بالنص من أحاديث الرسول المصطفى أحق وأوجب في اتباعها واستنباط الأحكام منها، وليس من مدونات سحنون وأصحابه، فيقول[2] وهو من البسيط:

أَنَائِمٌ أَنْتَ عَنْ نَصِّ الكِتَابِ وَمَا ... أَتَى عَنِ المُصطَفَى فيهَا مِنَ الدِّينِ
أَوْلَى بِأَجْرٍ وَتَعْظِيمٍ وَمَحْمَدَةٍ ... مِنْ كُلِّ قَوْلٍ أَتَى مِنْ رَأيِ سُحْنُونِ
هَيْهَاتَ رَأيُ امْرِئٍ مِنْ وَحْيِ خَالِقِنَا ... قِيَاسُ هَذَا بِذَا رَأيُ المَجَانِينِ
يَا مَنْ هَدَى بِهِمَا[3] اجْعَلْنِي كَمِثْلِهِمَا ... فِي نَصْرِ دِينِكَ وَاكْمُدْ غَيْرَ مَفْتُونِ

ومن هنا واجه ابن حزم بتبنيه المذهب الظاهري أو الفكر الظاهري عاصفة هوجاء من الانتقادات والتعريض، بل الملاحقة والتضييق من قبل فقهاء المالكية الذين "ضاق بهم ذرعاً لما اتسم به فكرهم من جمود، نتيجة التقليد المذموم الذي دأبوا عليه، ونشب بينه وبينهم عداء شديد، فقد أثاروا عليه العامة، وسعوا به إلى السلطان، وكتبوا له الكتب التي تستهدف الإساءة إليه، لأنه كان يعيب تعصبهم الشديد لمذهب مالك بن أنس، بحيث لا يرون الحق إلا في اتباعه وحده، وينكرون كل ما يصدر عن سواه"[4].

ورغم أن ابن حزم في طروحاته هذه يأتي بالأدلة والبراهين المنطقية والمقنعة في كثير من جوانبها، ورغم تحمسه الشديد لمذهبه هذا، ودفاعه عنه دفاعاً استعمل فيه كل مواهبه وملكاته وفكره الموسوعي، إلا أنه بإنكاره القياس والرأي والتقليد والاستحسان قد أسبغ على مذهبه هذا الجمود والتحجر.

---

(1) العمري، ابن فضل الله ، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، الجزء السادس الخاص بالفقهاء، ص٤٧٨.

(2) العمري، ابن فضل الله ، **مسالك الأبصار**، ج٦، ص ٤٧٩.

(3) يقصد البخاري ومسلم.

(4) فؤاد، عبد الفتاح أحمد، **الظاهرية**، ص ٨٩.

فالمصدران الأساسيان للتشريع (القرآن والسنة) صالحان لكل زمان ومكان، ولو أخذت الأحكام فقط منهما وبظاهر نصهما لواجه المسلمون عقبات كثيرة ومشاكل لا حصر لها، فالتطورات الحضارية والفكرية تحتم على فقهاء الأمة العاملين على مواكبة هذه التطورات واستنباط الأحكام في المستجدات الجديدة، والتيسير على أفراد الأمة بتسهيل أمور دينها ودنياها دون تساهل بالقواعد والأحكام الأساسية التي جاء بها الشرع الحنيف.

ورغم أن المذهب الظاهري قد هاجم جميع المذاهب الفقهية المنتشرة في الأندلس وخصوصاً المذهب المالكي، واستعداها عليه، إلا أن ما يسجل له أنه استطاع أن يزحزح هذه المذاهب عن أفكارها، ويشيع في الأندلس فكراً فقهياً يجعل من النص (القرآن والحديث) مصدرين أساسيين للتشريع بعد أن أصبحت المدونات هي الأساس والمرجع في التشريع الإسلامي.

ويرى إحسان عباس أن الظاهرية تمثل ثورة حقيقية على التقليد والجمود الذي التزم به أتباع مذهب مالك؛ لأن الأحكام الصادرة بناء على الالتزام بالقران والسنة يقينية لا شك فيها، "فالظاهرية على حقيقتها ثورة على التقليد، واحتكام إلى الحق اليقيني لا إلى الصواب المحتمل، من خلال الالتزام بالأصلين الكبيرين الكتاب والسنة والعودة إليهما"[(١)].

لقد بذل ابن حزم جهوداً كبيرة في نشر هذا المذهب، إلا أنه اصطدم بواقع اجتماعي وسياسي ليس من السهولة اختراقهما، فهو من ناحية يواجه فقهاء المالكية المدعومين سياسياً وشعبياً، ومن ناحية أخرى يواجه حكاماً لا ينظرون إليه بعين الرضا والقبول، "وبهذا فقد واجه المذهب الظاهري في الأندلس تحديات هائلة في محاولة تطبيقه، وإن كان قد فشل على أرض الواقع إلا أنه بقي رمزاً لتحدي فقهاء المالكية ، معبراً في الوقت نفسه عن نزعة تدعو للتحرر والثورة وترك إطار التقليد الجاف"[(٢)].

المذهب الشافعي:

على الرغم من تحذيرات فقهاء المالكية ومقاومتهم لدخول المذاهب والأفكار الفقهية إلى الأندلس، ونجاحهم نسبياً في بعض الفترات، إلا أن هذه المذاهب قد تسربت وأخذت مكانها واستقطبت طلاب العلم على أسسها وأصولها.

---

(1) فؤاد، عبد الفتاح أحمد. **الظاهرية**، ص ٨٩.

(2) أبو لبدة، سامر طلعت توفيق، **أبو إسحق الالبيري الفقيه الزاهد، دراسة في شعره وفكره**، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ٢٠٠٣، ص ٤٢.

ولعل المذهب الشافعي من المذاهب التي استطاعت ترسيخ جذورها منذ حكم الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم[١]، الذي شجع على توسيع آفاق الحياة الفقهية بالتسامح والمرونة، وحماية دعاة هذه الأفكار وتلك المذاهب من دعاة التقليد من الفقهاء[٢].

ويعد قاسم بن محمد بن سيار[٣] أول من عمل على نشر هذا المذهب في الأندلس وذلك عن طريق تدريسه بين طلاب العلم، بتشجيع ومباركة وحماية من الأمير محمد بن عبد الرحمن، الذي حاول توسيع آفاق الحياة الفقهية في نطاق الاتجاه السني، وعدم الاقتصار على مذهب مالك الذي ساد في الأندلس، وطغى على المذاهب الأخرى فيها، وقد دعا قاسم بن سيار إلى "ترك التقليد والأخذ بالحجة والنظر واستنباط الأحكام الفقهية من القرآن والسنة والاعتماد على مبدأ القياس والإجماع"[٤].

ومن العلماء الذين عملوا بهذا المذهب بقي بن مخلد ، الذي أخذ العلم على مختلف المذاهب، ولم يقتصر علمه على مذهب معين، مع ميله إلى المذهب الشافعي، وكان يصدر آراءه في المسائل بحسب ما يتراءى له، معتمداً على القرآن الكريم والسنة المطهرة، وحاول نشر علمه عن طريق التدريس والتأليف، ولذلك وجد مقاومة عنيفة من فقهاء الأندلس المالكيين، وأنكروا عليه هذا الاستقلال الذي كان يسير عليه، وبدأوا يؤلبون الأمير محمد بن عبد الرحمن عليه[٥]، ولكن الأمير محمداً حماه ورعاه وشجعه على نشر علمه بعد أن نظر إلى الكتب التي كان يدرسها وأثنى على ما فيها ومنعهم من التعرض له[٦].

إلا أن هناك من يرى أن جلّ هؤلاء العلماء الذين يقال بأنهم شافعيون أمثال بقي بن مخلد، وأبي عبد الله بن محمد بن وضاح، وقاسم بن محمد بن سيار، لم يكونوا ملتزمين بمذهب الشافعي واتخاذه مذهباً يسيرون بهداه، بل هم الذين درسوا في المشرق وأخذوا من جميع المذاهب، فهم أهل حديث ،وليسوا دعاة لأي مذهب كان خاصة الشافعي، وقد لقوا من التشجيع

---

(1) هو محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، امتدت ولايته أربعاً وثلاثين سنة، كان محباً لعلم مؤثراً لأهل الحديث حسن السيرة، ناصر أصحاب المذاهب الفقهية وسمح بنشر أفكارها تحت حمايته ورعايته انظر: الضبي، **بغية الملتمس** ، ص ٢٠.

(2) انظر : بروفنسال ليفي، **الحضارة العربية في إسبانيا**، ص ١٥٩.

(3) هو قاسم بن محمد بن قاسم بن سيار من أهل قرطبة رحل إلى الشرق فسمع من مجموعة كبيرة من الشيوخ، كان يذهب مذهب الحجة والنظر، وترك التقليد، ويميل إلى مذهب الشافعي، توفي سنة (٢٢٧هـ)، انظر، ابن الفرضي.**تاريخ علماء الأندلس**، ص ٢٧٩-٢٨٠.

(4) بروفنسال، ليفي. **الحضارة العربية في إسبانيا**، ص ١٥٩.

(5) انظر: بالنثيا، انخل جنثالث. **تاريخ الفكر الأندلسي**، ص ٤٠٧-٤٠٨.

(6) انظر: بروفنسال ليفي. **الحضارة العربية في اسبانيا**، ص ١٦١.

والحماية من خلفاء بني أمية ،ما مكنهم من نشر أفكارهم بين أوساط المجتمع الأندلسي رغم تحذيرات فقهاء المالكية[١].

إن دخول هذه الحركات الفقهية إلى الأندلس، وبمباركة من الخلفاء أنفسهم، ما هو إلا ثورة على التقليد الفقهي السائد، الذي حصر الاجتهاد في أقوال شيوخ المذهب، ومحاولة لإصلاح المذهب المالكي نفسه بتخليصه من هيمنة طابع المسائل والفروع الطاغية عليه[٢].

ومن هنا نجد أن الخارطة الفقهية في الأندلس قد اعتراها بعض التغيير والتطوير، وأصبحت مهيأة لنبذ التقليد والجمود، والتخفيف من قداسة المدونات، والعودة إلى مصادر التشريع الأساسية، وهو ما يحقق انتصاراً مؤقتاً لدعاة الاجتهاد والاستنباط، "ولكن هذا الانتصار كان انتصاراً للاجتهاد النقدي وثورة على التقليد ورجوعاً بالمالكية إلى ينابيعها الأولى[٣].

هذه مجمل الأفكار والاتجاهات والمذاهب الفقهية التي كان لها حضور لافت على الساحة الأندلسية في الفترة مدار البحث.

---

(1) انظر يفوت،. **ابن حزم والفكر الفلسفي** ، ص ١٠٧.

(2) انظر. **ابن حزم** ، ص ١٠٧

(3) يفوت. **ابن حزم** ، ص ١٠٩.

الباب الأول

مكانة الفقيه في المجتمع الأندلسي :

أولاً: مكانة الفقيه في عصر بني أمية (الإمارة والخلافة)

للفقيه في المجتمع الإسلامي مكانة عظيمة، ومتميزة وسامية، وهي في الأندلس أشد تميزاً وعظمة وسمواً، ذلك لأن الفقهاء كانوا أحد الأسلحة الفعالة الّتي رافقت افتتاح الأندلس إلى جانب الجند الفاتحين، وكان لهم الأثر البالغ والحاسم في نشر أهداف الإسلام بين أهل البلاد المفتوحة وإيصال تعاليمه السمحة إلى المسلمين الجدد.

ومن هنا، فقد عرف أمراء بني أمية وخلفاؤهم – ومن جاء بعدهم – أهمية الدور الذي يقوم به الفقهاء في ترسيخ أركان الدولة الإسلامية الفتية، الّتي سعى عبد الرحمن الداخل[١] لتأسيسها في الأندلس، ولهذا الغرض فقد لجأ عبد الرحمن، ومن بعده ابنه هشام[٢] إلى الفقهاء، واتخذوهم أداةً لإقامة السند الشرعي الذي يستندون إليه في إقامة دولتهم على تراب الأندلس، دون إثارة حفيظة أحد من المسلمين، الذين قد ينظرون إلى هذه الدولة على أنها دولة خارجة على الدولة الإسلامية الشرعية في المشرق[٣].

ولكي يكسبوا ودّ هؤلاء الفقهاء وولائهم، فقد قربوهم من مجالسهم، وتسامحوا معهم، وبوؤوهم منزلة رفيعة ومكانة عالية، وخصوهم بالاحترام والتقدير والتبجيل وسماع الكلمة، وإيثارهم على من سواهم من شرائح المجتمع المختلفة، ليس هذا حسب، بل عمد هشام بن عبد الرحمن بن معاوية إلى فرض مذهب الإمام مالك، مذهب كبار الفقهاء في الأندلس، ليصبح هو المذهب السائد بين الناس، والمذهب الرسمي للدولة، ونبذ المذاهب الأخرى[٤]، بعد أن سمع إطراء مالك بن أنس والإشادة به: "ليت أن الله تعالى زيّن موسمنا بمثل هذا"[٥].

ومن هنا، فقد اكتسبت شريحة الفقهاء في الأندلس دعماً وتأييداً سياسياً واجتماعياً، وأصبحت لها مكانة خاصة، لم يحظ بها الفقهاء في أي مجتمع إسلامي آخر، وفي أي زمن من

---

(1) هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، الملقب بالداخل، دخل الأندلس هارباً من سيوف العباسيين، واستولى على قرطبة، وأنشأ دولة بني أمية هناك، حكم الأندلس لمدة اثنتين وثلاثين سنة توفي عام ١٧٢هـ. انظر: المراكشي، عبد الواحد. **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تح: محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٧٨، ص ٢٩-٣١.

(2) هو هشام بن عبد الرحمن بن معاوية، تولى الخلافة بعد أبيه بعهد منه إليه، مقدماً إياه على أخيه سلميان، وهو الذي أطراه مالك وأثنى عليه، توفي سنة ١٨٠هـ. انظر: المقري. **نفح الطيب**، ج١، ص ٣٣٤-٣٣٨.

(3) انظر: الشعراوي، أحمد إبراهيم. **هياج الربض ثورة شعبية على الحكم الأموي**، ضمن **بحوث الأندلس الدرس والتاريخ**، دار النهضة الجامعية، القاهرة، ١٩٩٤، ص ٤٥.

(4) انظر : الشعراوي، هياج الربض، ص ٤٢-٤٦.

(5) المقري. **نفح الطيب** ، ج١، ص ٣٣٧.

الأزمان، ولا يكاد يدانيها أحد من شرائح المجتمع المسلم المختلفة، فهم رجال الدين والدنيا، وهم أصحاب الكلمة الأولى النافذة حتى على السلطان نفسه في كثير من الأحيان.

ويؤكد المكانة الاجتماعية الرفيعة الّتي حظي بها الفقهاء في الأندلس، ما جاء به المقـريّ في نفح الطيب، في وصف أهل الأندلس وعلومهم وآدابهم، وما يصف به الفقه وأهله من مكانـة عظيمة عندهم: "فللفقه رونقٌ ووجاهة، ولا مذهب لهم إلاّ مذهب مالك... وسمة الفقيـه عنـدهم جليلة، حتى إن الملثمين (المرابطين) كانوا يسمّون الأمير العظيم منهم الـذي يريـدون تنويهـه بالفقيه، وهي الآن بالمغرب بمنزلة القاضي بالمشرق، وقد يقولون للكاتـب والنحـويّ واللغـوي فقيه، لأنها عندهم من أرفع السمات"[١].

كانت سياسة البيت الأموي بشكل عام قائمة على توقير العلماء والفقهاء وإعلاء شأنهم؛ لإضفاء الشرعية على ملكهم[٢] يستثنى من ذلك الحكم[٣] بن هشام، الذي كانت العلاقة بينه وبين الفقهاء يسودها التوتر والاضطراب، وقائمة على التحدي والمناكفة، وكان من نتيجة هذه العلاقـة الشاذة الّتي انفرد بها الحكم دون أمراء بني أمية وخلفائهم، أن وصلت الأمـور إلـى اسـتخدام العنف وقوة السلاح، وكادت أن تعصف بالبيت الأموي، لولا حكمة الحكم وحسن تدبيره[٤].

وعندما رأى التأثير الكبير للفقهاء على عقول الناس وقلوبهم، وتـوجيههم الوجهـة الّتـي يريدون، والدور الخطير الذي قاموا به في تأليب الناس عليه، وجد أنه لا بد من العمـل معهـم واستشارتهم ، والأخذ برأيهم، أو الاستئناس به وعدم تهميشهم كما كان في بدايـة عهـده "فـتم الصلح بين الحكم والفقهاء، والذي كان في حقيقة الأمر حلفاً بين الظـاهرين مـن أهـل الفقـه والأمراء، واتفاقاً على التأييد المتبادل: الفقهاء يؤيدون السلطان ويعلـون جاهـه بـين النـاس، والسلطان يؤيد جاه الفقهاء، بإضفاء الاحترام والأموال والخطـط الدينيـة علـى مـن يطلبهـا منهم"[٥].لذلك قام عبد الرحمن بن الحكم خليفة والده، بتشكيل جماعة من كبار الفقهاء والعلمـاء،

---

(1) المقري. **نفح الطيب**، ج١، ص ٢٢١.

(2) انظر، ابن بيّه، محمد محمود عبد الله. **الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين**، دار الأندلس الخضراء، جدة، السعودية، ط١، ٢٠٠٠، ص ٣١.

(3) هو الحكم بن هشام بن معاوية، المعروف بالربضي نسبة إلى الوقعة الشهيرة الّتي تزعمها الفقهاء، وكان يشبّه بأبي جعفر المنصور، في شدة الملك، وتوطيد الدولة، وقمع الأعداء، توفي سنة ٢٠٦هـ، انظر: المقري. **نفح الطيب**، ج١، ص ٣٣٨-٣٤٤.

(4) انظر: السامرائي، خليل. **تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس**، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيـروت، ط١، ٢٠٠٠، ص ١٢٠.

(5) مؤنس، حسين. **شيوخ العصر في الأندلس**، دار الرشاد، القاهرة ،ط١، ١٩٩٧، ص ٣٨.

أُطلق على هذه الجماعة اسم (الفقهاء المشاوَرون) يستشيرهم السلطان في بعض شؤون الدولـة، وتعيين القضاة أو خلعهم، ويأخذ غالباً برأيهم في ذلك[1]. وتمثل ذلك في شخص كبيـر الفقهـاء المشاورين يحيى بن يحيى الليثي، الذي وصفه صاحب النفح بقوله "ولم يعـط أحـد مـن أهـل الأندلس منذ دخلها الإسلام ما أعطي الفقيه يحيى بن يحيى الليثي من الحظوة، وعظـيم القـدر، وجلال الذكر"[2].

حظي بعض الفقهاء بمكانة اجتماعية سامية عند الشعب والحكام على السواء، وهذه المكانة أهلتهم لأن يوجهوا النقد الشديد والقاسي للحكام دون خوف أو تردد، فهذا منذر بن سعيد البلوطي يقف واعظاً الخليفة الناصر لدين الله[3]في صلاة الجمعة، فقرّعه، وأنّبه على إسرافه فـي بنـاء مدينة الزاهرة وقصره فيها، فدخل في نفس الناصر شيء من الهمّ والغضب على ابـن سـعيد، وأقسم أنه لن يصلي الجمعة خلفه أبداً، فأشار عليه ابنه الحكم أن يعزله ويستبدله، فزجره الناصر وانتهره وقال: "أمثل منذر بن سعيد في فضله وورعه وعلمه وحلمه، لا أمّ لـك... يعـزل فـي إرضاء نفس ناكبة عن الرشد، سالكة غير القصد؟ هذا ما لا يكون"[4].

وقد بلغ الفقيه أبو العباس بن ذكوان[5] مكانة عظيمة عند المنصور بن أبي عامر[6] "فكـان من جلة أصحابه وخواصه، ومحله منه فوق محل الوزراء، يفاوضه في تـدبير الملـك وسـائر أمره"[7]،ومن سمو مكانته، وجلال قدره فقد خصص له المنصور داخل قصره بيتاً خاصاً، يأتيه آخر النهار؛ فيجلس فيه إلى أن يخرج إليه ابن أبي عامر، فيفاوضه في جميع ما يحتاج إليـه"[8]،

---

(1) انظر: مؤنس، حسين. شيوخ العصر، ص ٢٩-٣٩.

(2) المقري. **نفح الطيب**، ج٢، ص ١١.

(3) هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله، أول من تسمى بأمير المؤمنين، وأول خلفاء بني أمية، بعد أن ضعفت الخلافة العباسية بالعراق، وتلقب بالناصر لدين الله، واستمر حكمه خمسين عاماً، واستفحل ملك بني أميـة فـي عهده، انظر المقري: **نفح الطيب**، ج١، ص ٣٥٣-٣٧١.

(4) ابن خاقان، الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي. **مطمح الأنفس ومسرح التـأنس فـي ملـح أهـل الأندلس**، تح: محمد علي الشوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٣، ص ٢٤٨.

(5) هو أحمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان، أصله من جيّان من برابرة فحص البلـوط، ولـه مكانـة عنـد المنصور بن أبي عامر، توفي سنة ٤١٣هـ، انظر: عياض. **ترتيب المدارك**، ج٤، ص ٦٦٢-٦٦٧.

(6) هو محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر المعافري القرطبي، القائم بأعمال دولة الخليفة المرواني المؤيـد بالله هشام بن الحكم أمير الأندلس، وكان المؤيد معه صورة بلا معنى، توفي سنة ٣٩٢هـ، انظر: ابن الخطيب، لسان الدين. **أعمال الأعلام فيمن بويع قبلا الاحتلام**، تح: سعيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت،ط٣، ٢٠٠١، ج٢،ص ٣٨٨-٣٩٣.

(7) النباهي. **تاريخ قضاة الأندلس "المرقبة العليا"**، ص ٨٥.

(8) النباهي. **تاريخ قضاة الأندلس**، ص ٨٥.

وبعد موت المنصور بقي ابن ذكوان يحتل مكانة رفيعة وسامية في عهد ابنيه: المظفر والمأمون، "فقد تيمنوا برأيه، وعرفوا النجاح في مشورته"[1]، فعلت منزلته وسمت حاله عند المظفر "فلم يكن يجري شيئاً من أمور المملكة إلا عن مشورة ابن ذكوان"[2].

وقد استغل عبد الرحمن (الناصر) بن محمد بن عبد الله بن أبي عامر[3] الفقهاء والعلماء، وعلى رأسهم الفقيه ابن ذكوان في إصدار فتوى شرعية، تسوّغ له إقدامه على الطلب من الخليفة هشام المؤيد أن يجعله ولياً لعهده، ويلقي إليه بجميع أمره، فأفتوه بذلك وباركوا له تلك الخطوة وسوّغوا له ما طلب، وقد وقّع هذا المرسوم عدد كبير من الفقهاء والعلماء والوزراء، وكان على رأسهم الفقيه ابن ذكوان، الذي قام بدور أساسي وفاعل في إصدار تلك الفتوى، والكاتب أبو حفص أحمد بن برد الأكبر[4] الذي صاغ بأسلوبه مضمون ذلك المرسوم، وفيهما قال الشاعر ابن أبي يزيد المصري[5] ذاماً ومعرضاً بهذه الخطوة، وبمن سوغ الفتوى لعبد الرحمن فيقول[6]: وهو من مجزوء البسيط:

إنَّ ابنَ ذَكْوَانَ وَابْنَ بُرْدِ ... قَدْ نَاقَضَا الدِّينَ بَعْدَ عَمْدِ

وَعَانَدَا الحَقَّ إذْ أَقَامَا ... حَفِيدَ شَنْجُه[7] وَلِيَّ عَهْدِ

وللمكانة العظيمة الّتي احتلها الفقهاء في الأندلس، فقد اتجه بعض طالبي العلم لدراسة الفقه؛ ليلحقوا بركب الفقهاء، ويحققوا لأنفسهم مكانة في المجتمع، إذ يروي المقرّي أن الأمير

---

(1) النباهي. **تاريخ قضاة الأندلس**، ص ٨٥ .

(2) النباهي. **تاريخ قضاة الأندلس** ، ص ٨٦.

(3) هوعبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن أبي عامر الحاجب، الذي اتخذ لنفسه لقب الناصر، وسولت له نفسه أن يلتمس ولاية عهد هشام، والقيام بأمر المسلمين من بعده. انظر: ابن الخطيب،لسان الدين **أعمال الأعلام**، ج٢، ص ٨٤-١٠٢.

(4) هو أبو حفص محمد بن برد الكاتب، المعروف بابن برد الأكبر، شارك في الحياة السياسية، وعلا أمره حتى وصل إلى الوزارة. انظر: ابن الأبار، محمد بن عبد الله القضاعي (٥٩٥-٦٥٨). **الحلة السيراء**، تح: حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥، ج١، ص ٢٧١.

(5)هو عبدالرحمن بن محمد بن أبي يزيدالمصري، يكنى أبا القاسم، قدم الأندلس من مصر، وكان رجلاً أديباً ، حافظاً للحديث، وله أشعار حسان في كل فن، تفقه بالأندلس، وسكن قرطبة، وخرج من الأندلس بعد الفتنة ، توفي في مصرسنة ٤١٠هـ. انظر: ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبدالملك. **كتاب الصلة**، الدار المصرية للتأليف، ١٩٦٦، القسم الثاني،ترجمة رقم ٧٥٨، ص ٣٥٣ـ٣٥٤.

(6) انظر: ابن الأبار . **الحلة السيراء**، ج١، ص ٢٧٠-٢٧٢.

(7) شَنْجُه (شانجه) الثاني ابن غرسيه بن شانجه الأول ملك نباره، وهو جد عبد الرحمن لأمه الّتي تزوجها أبوه المنصور ابن أبي عامر، وسماها عَبْدَه.انظر: ابن الأبار، **الحلة السيراء**، ج١، ص٢٧٢.

عبد الله بن الخليفة عبد الرحمن الناصر[١]، التقى فقيهاً، ودار بينهما حوار حول شخص جميل الشكل، حسن الهيئة، نظرا إليه، وأعجبا بجماله وهيئته، فقال الأمير للفقيه: "إنّ مثلك من الفقهاء لمعدوم، فقال له الفقيه: ما كنت إلا أديباً، ولكني لما رأيت سوق الفقه بقرطبة نافقة اشتغلت به، فقال له: ومن عقل المرء أن لا يفني عمره فيما لا ينفعه"[٢].

ومن هنا، فإن زمرة الطامحين إلى المعالي وجدوا الفقه وسيلة للحظوة والمكانة عند الحكام والناس، وجسراً يعبرون عليه إلى حياة فضلى، ومستوى اجتماعي واقتصادي يطمحون إليه، ما كان ليتحقق لهم لو لم يسيروا بهذا الطريق، فالغاية عند هؤلاء تبرر الوسيلة الّتي يركبونها من أجل مصالحهم.

ثانياً: مكانة الفقهاء في عهد ملوك الطوائف

كانت الدولة الأموية في الأندلس – رغم ضعفها في أواخر عهدها – رمز وحدة المسلمين، والرابط الذي يجمعهم ويؤلف بين قلوبهم، ويوحدهم في وجوه أعدائهم، وعنواناً لهيبتهم وكرامتهم، وبإلغاء هذه الدولة تصدع هذا الرمز، وانقطع ذاك الرابط وتشتت كلمتهم، وهانوا في نظر أعدائهم، وأصبحت الدولة ذات الجسد الواحد مقطعة الأوصال، متعددة الولاءات، يحكمها عشرون مغامراً، أطلقوا على أنفسهم ملوكاً، وخاضوا ضد بعضهم خلال عصرهم حروباً دامية ذهب ضحيتها الكثير، من أجل المحافظة على عروشهم، وطمعهم بما في أيدي الآخرين.

سعى هؤلاء الملوك في بداية عهدهم إلى تثبيت شرعيتهم في الحكم، عن طريق اللجوء إلى الفقهاء، الوسيلة الوحيدة لنيل الشرعية الدينية، فقام بعضهم بتقريب الفقهاء منهم والتقرب إليهم، ومشاورتهم في أمور ممالكهم الفتية، وكنوع من إظهار حسن النية أعلوا منزلتهم، بل أشركوهم في الحكم وتسيير شؤون الدولة، لذلك أصبح لبعض الفقهاء نفوذ كبير، ومكانة اجتماعية سامية، وسلطة سياسية عظيمة الشأن.

فالمأمون بن ذي النون[٣]صاحب طليطلة، قسّم دولته قسمين "وأدار سياستها على رجلين، فجعل تدبير الأجناد والنظر في طبقات القواد إلى سائر الشؤون السلطانية، والأعمال الديوانية، إلى ابن

---

(1) هو أبو محمد عبدالله بن عبدالرحمن الناصر، كان فقيهاً شاعراً إخبارياً متنسكاً، قتله أبوه عبدالرحمن بعد أن رفع إليه أن ابنه عبدالله يريد خلعه ويدعو إلى القيام عليه، وكان مقتله سنة ٣٣٨هـ. انظر: ابن الأبار. **الحلة السيراء**، ج١، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨.

(2) المقري. **نفح الطيب**، ج٢، ص ٥٨٣.

(3) هو يحيى بن إسماعيل بن ذي النون، بربري، استقر بكورة شَنْتَبَرِيَّة، تولى أمور طليطلة بعد وفاة أبيه المظفر إسماعيل بن ذي النون سنة ٤٣٥هـ، وقد توفي يحيى هذا سنة ٤٦٧هـ، انظر: ابن خاقان. **مطمح الأنفس ومسرح التأنس**، ص ١٧٥.

الفرج[1]، وبقية الإصدار والإيراد، والنظر لجماهير الناس، وكواف البلاد والرأي والمشورة، والصغيرة والكبيرة، إلى الفقيه أبي بكر بن الحديدي[2] ، الذي كان له مكانة عظيمة عند المأمون ودولته، وكان محل ثقته واحترامه، فأعلى منزلته وأطلق يده في تسيير كثير من شؤون دولته، وكان مستشاره الأول، الذي يأخذ برأيه غالباً، ولشدة ثقته ولسمو مكانته عند أهل طليطلة، فقد اعتمد عليه المأمون في التأييد له عند شعبه (وهو ما حدث بالفعل).

وحتى يضمن المأمون استمرار هذا الحشد، وذاك التأييد، فقد أوصى حفيده يحيى[3] الذي لقب بالقادر بالتمسك بهذا الفقيه، وإعلاء منزلته والاعتماد عليه وعدم التفريط به، وعدم مخالفته، ليكون له سنداً، وعوناً في بعث الاستقرار لدولته من بعده والولاء والتأييد له، وذلك بالتفاف الناس حوله بتأثير من الحديدي، ولم ينس المأمون أن يوصي الفقيه ابن الحديدي، بعد أن أخذ منه المواثيق بأن يكون مؤيداً وناصراً وسنداً لحفيده القادر، بإدارة شؤون مملكته[4].

أما في مملكة إشبيلية،فقد كان للفقهاء في بداية تأسيسها مكانة جليلة، ودور كبير في الحكم وتسيير شؤونها، فقد اتفق أهلها واجتمع أمرهم على ثلاثة "من أهلها : أحدهم القاضي محمد بن عباد[5]، والثاني الفقيه أبو عبد الله الزبيدي[6]، والثالث الوزير أبو محمد عبدالله بن مريم ، فكانوا يحكمون في النهار في القصر، وينفذون الكتب تحت ثلاث خواتم، وينصرفون آخر النهار" [7]، "وليس لأحد منهم الحق في الانفراد بإصدار أمر أو حكم دون الآخرين، إذ كانت الكتب الصادرة

---

(1) هو أبو عامر بن الفرج، وزير المأمون بن ذي النون ، ثم وزير ابنه القادر ، من بيت رياسة، أطلق المأمون يده في الإشراف على كثير من أمور دولته. انظر: ابن خاقان. **مطمح الأنفس**، ص، ١٨٦، ابن الأبار. **الحلة السيراء**، ج٢، ص ١٧١.

(2) هو يحيى بن سعيد بن أحمد بن يحيى الحديدي، من أهل طليطلة، وكان مقدماً في الشورى، وله مكانة سامية عند المأمون يحيى بن ذي النون، وكان لا يقطع في شيء من أمره إلا عن مشورته، قتله حفيده المأمون القادر سنة ٤٦٨، انظر: ابن بشكوال. **كتاب الصلة**القسم الثاني، ص ٦٦٩-٦٧٠.

(3) هو القادر يحيى بن إسماعيل بن المأمون بن إسماعيل بن ذي النون، جاء إلى بلنسية بعد أن سلم طليطلة لألفونسو، الذي تعهد له بتمهيد الأمور ببلنسية، وحكم القادر إلى سنة ٤٨٥ حيث قتله ابن جحاف البلنسي، انظر ابن خاقان. **مطمح الأنفس**، ص ١٧٥.

(4) انظر، ابن بسام. **الذخيرة** ، القسم الرابع، المجلد الأول، ص ١٥١.

(5)هو أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي، قاضي إشبيلية ورئيسها، كان من أهل العناية بالعلم، تولى القضاء بإشبيلية، ثم انفرد برئاستها وتدبير أمرها، وسكن مقرها إلى أن توفي سنة ٤٣٣هـ. انظر: ابن بشكوال، **الصلة**، القسم الثاني، ترجمة رقم ١١٤٥، ص٥٢٣..

(6) هو محمد بن محمد بن الحسن الزبيدي، من أهل الأدب والرياسة، وهو أحد الثلاثة الذين تقدموا بإشبيلية في تدبير الأمور، انظر الحميدي، أبو محمد بن أبي نصر فتوح الأزدي الأندلسي (ت٤٨٨). **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، تح: روحية السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧، ص ٣٥.

(7) المراكشي، ابن عذارى. **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج٣، تح :ليفي بروفنسال، ج .س كولان،دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨٠، ص ١٩٥.

عنهم تُنفَّذ تحت أحكامهم الثلاثة معاً"[١].ولكن أطماع السياسة قادت القاضي محمد بن عباد ،هـذا "إلى الانفراد بملكها سنة ٤١٤هـ ؛ فمزق شريكيه الذين كانا معه كل ممزق، وفرق شملهما كل مفرق"[٢] ، حتى يوطد الحكم له ولبني عباد خاصة دون مزاحمة من أحد أو مشاركة[٣].

وفي إشبيلية أيضاً بزغ نجم فقيه آخر، كانت له منزلة عظيمة عند الخاصة والعامة، وهو أبو حفص الهوزني[٤]، الذي كانت تربطه مع المعتضد بن عباد[٥] علاقة حميمة، قبل أن يلي الإمارة، وصفها ابن بسام في الذخيرة بقوله: "كان بينه وبين ابن عباد قبل إفضاء الأمر إليه، ومدار الرياسة عليه، ائتلاف الفرقدين، وتضافر اليدين واتصال الأذن بالعين"[٦].

ولكن المعتضد انقلب على صديقه الفقيه الذي أكثر من الإلحاح عليه بنبذ الفرقة والخلاف مع ملوك الطوائف لاسترجاع مدينة بربشتر التي غلب النصارى عليها عام ٤٥٦هـ، فأضمر في نفسه قتل الهوزني والخلاص منه، قبل أن يلهب مشاعر الناس ضده، فاستدرجه إلى قصره فقام إليه بنفسه، وباشر قتله بيده[٧].

ومن الفقهاء الذين بلغوا منزلة عظيمة، ومكانة سامية عند ملوك الطوائف، الفقيه أبو الوليد الباجي[٨]، فقد كان هؤلاء الملوك يخطبون وده، ويتسابقون للاستئثار به والتقرب منه، وجعله من حاشيتهم وبطانتهم ، وممن يشير عليهم في أمور ممالكهم، لما له من مكانة كبيرة في نفوس الناس تنعكس فائدتها على من يكن أبو الوليد من رجاله، فانحياز الباجي إلى هؤلاء الملوك هو

---

(1) انظر عنان، محمد عبد الله. **دول الطوائف**،مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨، ص ٣٤.

(2)المراكشي، ابن عذارى، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تح: ليفي بروفنسال، ج.س كولان، ص ١٩٥.

(3) انظر : عنان ، دول الطوائف، ص ٤٠.

(4) هو أبو حفص عمر بن حسن الهوزني، العالم المحدث، أخذ أهل الأندلس عنه صحيح البخاري، رحل إلى المشرق هرباً من ابن عباد، ثم عاد إليها، فقتل على يد المعتضد عام ٤٦٠، انظر المقري. **نفح الطيب**، ج٢، ص ٩٣-٩٤.

(5) هو أبو عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل المعروف بالمعتضد بالله ، عرف بالقسوة، وتجاوز الحدود، والأخذ بالظنة، أمضى فترة حكمه بالحرب مع جيرانه، وكان غير مأمون على الدماء، ولا حافظ لحرمة الأولياء ، توفي سنة ٤٦١هـ. انظر: ابن الأبار، **الحلة السيراء**، ج٢، ص ٣٩ــ٥٢.

(6) ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٨٢.

(7) انظر :ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٨٣.

(8) هو أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب التجيبي، أحد أقطاب المذهب المالكي، له تصانيف كثيرة ومشهورة جليلة في الفقه والمعاني، ناظر ابن حزم الأندلسي، عندما عجز الفقهاء عن مجاراته في المذهب الظاهري، توفي سنة ٤٧٤هـ. انظر: عياض. **ترتيب المدارك** ج٤، ص ٨٠٢-٨٠٨.

مفخرة لهم وشرف عظيم حازوه، فقد كان المقتدر بالله بن هود[1] صاحب سرقسطة "يباهي بانحياشه إلى سلطانه، وإيثاره لحضرته باستيطانه، ويحتفل في ما يرتبه له ويجريه، وينزله في مكانه متى كان يواتيه، ويعتقد ذلك مفخراً ادّرعَه، وشرفاً أعلى مِرقَبَه وفرعَهُ"[2].

ولمكانة الباجي عند ملوك الطوائف فقد تهادوه فيما بينهم، وتشاركوا فيه، فلكل منهم نصيب فيه، يتضح هذا من خلال الرسالة الّتي بعث بها مجاهد[3] أمير دانية، إلى المظفر[4] ببطليوس، في صفته ومكانته وشهرته وعمله، فقد جعله مجاهد في صدر مجلسه يستفتيه، ويشاوره، ويريد أن يجعل لصديقه المظفر نصيباً فيه، فيقول: "والفقيه الحافظ أبو الوليد الباجي غذيُّ نعمتك، ونشأة دولتك، هو من آحاد عصره في علمه، وأفراد دهره في فهمه، وما حصل أحد من علماء الأندلس متفقهاً على مثل حظه وقسمه، وقد تقدم له بالمشرق صيت وذكر، وحصل بجزيرتنا ولك فيه جمال وفخر، فإنه إليك تتعطف أسبابه، وعليك تلتقي وتلتف آرابه، لكن شددت عليه يدي، وجعلته علم بلدي يشاور في الأحكام، ويهدي إليه في الحلال والحرام، فقد ساهمتك به، وشاركتك فيه، كما تساهمنا وتشاركنا في الأحوال السلطانية، والأمور الدنياوية"[5].

ولأن الباجي ذاق حلاوة القرب من الملوك، والعيش في كنفهم، وشمخ بعظيم ترحيبهم به، فقد أسدى إلى ولديه نصيحةً يحثهم على طلب العلم، وخاصةعلم الفقه؛ لأنه الوسيلة المأمونة للوصول إلى ما يطمحون إليه فيقول موجهاً كلام الحكمة لهما : "هل تريان أحداً أرفع حالاً من العلماء، وأفضل منزلة من الفقهاء، يحتاج إليهم الرئيس والمرؤوس، ويقتدي بهما الوضيع

---

(1) هو أحمد بن سليمان بن محمد بن هود، الملقب بالمقتدر بالله، صاحب سرقسطة، استولى على ملك أخويه بالقوة، فسخط الناس عليه، وطالبوا بخلعه، وفي عهده وقعت محنة مدينة بربشتر، انظر عنان، **دول الطوائف**، ص ٢٧١-٢٨٣.

(2) ابن خاقان، أبو الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي الإشبيلي (ت٥٢٩هـ). **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**، تح: حسين خريوش، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، ط١، ١٩٨٩، مجلد ٢، ج٣، ص ٦٠٠.

(3)هو مجاهد بن عبدالله العامري، من أهل الأدب والشجاعة والمحبة للعلوم، استقر في دانية وكان من الكرماء على العلماء ، مستميلاً للأدباء، توفي بدانية سنة ٤٣٦هـ.انظر الحميدي، **جذوة المقتبس**،ترجمة رقم ٨٢٩، ص ٣٢٠.

(4)هو أبو بكر محمد بن المنصورعبدالله الأفطس بن سلمة ، المعروف بالمظفر، من أعظم ملوك الطوائف، وكان قريع المعتضد بن عباد ومحاربه ، وهو الذي صنف كتاب المظفري في الأدب والتاريخ، توفي سنة ٤٦٠هـ . انظر: الأندلسي ، ابن سعيد. **المغرب في حلى المغرب**، ج١، ص ، ٣٦٤، ابن عذارى. **البيان المغرب**، ج٣، ص٢٣٦، ابن الخطيب. **أعمال الأعلام** ، ص٢١٢.

(5)ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٩٧.

والنفيس"[1]، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على المكانة العالية الّتي كان يحتلها الفقهاء في ذلك العصر.

ومن تكن حرفته الفقه فقد حاز الجاه والمكانة، ومن يبرع في الفقه المالكي مذهب الأندلس القوي، فقد جمع المجد والسؤدد من جميع أطرافهما، هذا ما عبّر عنه فقيه شاعر، عرف أسرار الصنعة وفهمها، موجهاً كلامه إلى ولده على سبيل التوجيه والإرشاد فيقول سهل الأسدي[2]:

وهو من[3] مجزوء الرجز:

العِلْمُ شَيءٌ حَسَنٌ ... فَكُنْ لَهُ ذَا طَلَبِ
وَابْدَأْهُ بِالنَّحْوِ وَخُذْ ... مِنْ بَعْدِهِ فِي الأَدَبِ
فَإِنْ أَرَدْتَ بَعْدَ ذَا ... جَاهَاً وفَضْلَ مَكْسَبِ
فَافْهَمْ أُصُولَ مَالِكٍ ... وَاحْفَظْ فُرُوعَ المَذْهَبِ

كانت السمة العامة في عصر الطوائف الذي استمر قرابة الثمانين عاماً الفوضى العارمة والانحلال الأخلاقي والفساد، والخروج على أحكام الدين، ولم يكن الفقهاء والعلماء بمنأى عن هذه الفوضى، فقد خاضوا فيها مثلما خاض غيرهم، حباً في خوض غمار السياسة، أو طمعاً في مركز اجتماعي مرموق، أو مكاسب مادية يتقلبون بنعيمها[4].

وقد وضع ابن حيان[5] مؤرخ الأندلس في هذا العصر يده على مكمن الداء الذي أوصل الأندلس وأهلها إلى ما وصلت إليه، فهناك شريحتان من أبرز شرائح المجتمع اشتركتا في تكريس هذا الوضع وترسيخه، التقت مصالحهما وتقاطعت، "ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا في صنفين منهم، هم كالملح فيهم: الأمراء والفقهاء، قلما تتنافر أشكالهم، بصلاحهم يصلحون،

---

(1) بوتشيش، إبراهيم عبد القادر. **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ص ١٤٥.

(2) هو سهل بن محمد بن سهل بن مالك الأسدي، غرناطي، وكان من أعيان مصره، وأفاضل عصره، تفنناً في العلوم محدثاً عدلاً، ثقةً، حافظاً للقرآن، مجوداً له، متقدماً في العربيّة، وافر النصيب من الفقه وأصوله توفي سنة ٦٤٠. انظر: المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري، الأوسي. **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، السفر الرابع، ص ٨١.

(3) انظر: المراكشي. **الذيل والتكملة**، السفر الرابع ، ص ١٠٦-١٠٧.

(4) انظر السامرائي. **تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس**، ص ٢٤٨.

(5) هو حيان بن خلف بن حسين بن حيان ، يكنى أبا مروان ، قوي المعرفة، مستبحراً في الآداب، بارعاً فيها، صاحب لواء التاريخ بالأندلس، أفصح الناس فيه ، وأحسنهم نظماً له ، توفي سنة ٤٦٩هـ . انظر :ابن بشكوال. **الصلة**، القسم الأول، ص ١٥٣-١٥٤.

وبفسادهم يردون"[١]، فأبرز الدور السياسي والاجتماعي، الذي قام به الفقهاء، في مشاطرة الأمراء فيما وصل إليه الحال في الأندلس، فهم الرئة الّتي يتنفس بها الحكام، وهم السند الذي يستندون إليه في تبرير سلوكهم السياسي والاجتماعي أمام شعوبهم، فقد أشركهم ابن حيان مع الحكام، وجعل مرتبتهم ودورهم لا يقلان أهمية عن دور الحكام، فهما معاً أساس صلاح الأمة أو فسادها، وما كان الحكام يجرؤون على سلوكهم المنحرف، لو لم يقم الفقهاء بتزيين هذه الأفعال لهم، وإيجاد المخرج أو المبرر الشرعي لذلك، "والفقهاء أئمتهم صموت عنهم، صدوف عما أكد الله عليهم في التبيين لهم، وقد أصبحوا بين آكل من حلوائهم، خائض في أهوائهم، وبين مستشعر مخافتهم، آخذٍ بالتقية في صدقهم، وأولئك هم الأقلون، فما القول في أرض فسد ملحها الذي هو المصلح لجميع أغذيتها"[٢].

وفي أواخر أيام عبد الله بن بلكين[٣] صاحب غرناطة، أصبح الفقيه ابن القليعي صاحب الأمر والنهي حتى على الأمير نفسه، وقد اعترف ابن بلكين في كتابه "التبيان" بالدور الكبير الذي قام به هذا الفقيه في تأليب يوسف بن تاشفين عليه، ومن ثم القضاء على دولته ونهب أمواله وممتلكاته"[٤].

أما الفقيه ابن العربي[٥]، فقد كان له دور كبير في القضاء على التردد الذي كان يساور يوسف بن تاشفين، في العبور إلى الأندلس؛ لإنهاء حكم ملوك الطوائف وذلك عن طريق الخطابات التي حملها ووجهها إلى الخليفة العباسي المستظهر بالله (٤٨٧-٥١٢) يلتمس فيها من خليفة المسلمين تخويلاً سياسياً ليوسف بن تاشفين في حكم بلاد المغرب والأندلس، وقد أفاض الفقيه ابن العربي، في وصف ابن تاشفين، وأسبغ عليه من الصفات التي تعلي مقامه، وتعظم إنجازاته في خدمة الإسلام والمسلمين، وهو في النهاية خادم أمير المؤمنين، وبسببه يدعى له

---

(1)ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الثالث، المجلد الأول، ص ١٨٠.

(2)ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الثالث، المجلد الأول، ص ١٨٠-١٨١.

(3)هو عبدالله بن بلكين بن باديس بن حبّوس، الملك الثالث والأخير لمملكة غرناطة، اعتلى عرشها بعد وفاة جده باديس، وكانت دولته سلسلة طويلة من الاضطرابات والمشادات المسلحة مع جيرانه من الأمراء المسلمين، عزله يوسف بن تاشفين سنة ٤٨٣هـ وأرسل إلى المنفى بمدينة أغمات، في جنوب المغرب الأقصى ،حيث انتهت حياته. انظر: مقدمة كتاب ابن بلكين. **التبيان**، ص ٩-١٠.

(4) ابن بلكين، عبد الله بن باديس بن حبوس. **كتاب التبيان**، حرره: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠، ص ١٤٨.

(5) هو أبو محمد عبد الله بن عمر الأندلسي الأشبيلي، ويعرف بابن العربي، رحل إلى المشرق وصحب معه ابنه المتصوف الكبير أبا بكر ابن العربي حاملاً خطابات للخليفة العباسي وللغزالي والطرطوشي، من أجل دعم ابن تاشفين، توفي سنة ٤٩٣هـ. انظر :العبادي، أحمد مختار. **دراسات في تاريخ المغرب والأندلس** ، مؤسسة شباب الجامعة للنشر والتوزيع ، الاسكندرية، ١٩٧٠ ، ص ٤٧١.

على آلاف المنابر في بلاد الأندلس، وقد استطاع هذا الفقيه عن طريق التـأثير علـى الخليفـة العباسي، أن يحصل على ذلك التخويل السياسي من خليفة المسلمين في بغـداد، وبموجبـه بـدأ يوسف بن تاشفين خطواته الأولى للقضاء على دول الطوائـف، وضـم الأنـدلس إلـى دولـة المرابطين في المغرب.

وحتى يحصل على تخويل شرعي يدعم التخويل السياسي السابق في القضاء على ملـوك الطوائف، لم يكتفِ ابن العربي بأخذ الفتوى من فقهاء الأندلس الذين أجمعوا على عـزلهم، بـل بعث إلى الإمام أبي حامد الغزالي فقيه المشرق، يستشيره في ذلك طالباً منه فتوى شرعية باسـم فقهاء المشرق تخول ابن تاشفين العمل على عزلهم، وإقامة دولة إسلامية جديدة تدافع عن حمـى الإسلام، فأرسل خطاباً يبين فيه التجاوزات الخطيرة التي حصلت على أيـدي هـؤلاء الملـوك، والصراع الذي نشب بينهم، مما أدى إلى استنجاد كل منهم بالنصارى ضـد إخوانـه الملـوك، فوصلت فتوى الغزالي تبارك لابن تاشفين هذا الإجراء الذي يقوّي شوكة الإسلام[(١)].

ومن هنا فقد برز دور الفقهاء في العمل على استقدام المرابطين إلى الأندلس لنجدة أهلهـا وعزل ملوك الطوائف، ليس هذا حسب، بل أخذوا الفتوى الشرعية من فقهاء المشرق للحيلولـة دون نكوص أحد من المسلمين عن مباركة ما يقوم به المرابطون.

ثالثاً: مكانة الفقيه في عصر المرابطين:

بعد أن اهتزت مكانة الفقهاء ومنزلتهم وضعف تأثيرهم في عهد ملوك الطوائـف؛ نتيجـة لتضارب المصالح بينهم وبين الملوك من ناحية، وانغماس بعض الفقهاء وسـيرهم وراء هـؤلاء الملوك من ناحية ثانية، بدأ الفقهاء يستعيدون نفوذهم وسطوتهم التي افتقدوها بدخول المـرابطين الأندلس، ذلك لأن دولة الفقهاء-المرابطين- قامت على أساس ديني، يتمثل بـدعوة عبـد الله بـن ياسين[(٢)] الإصلاحية ،وكان ملوكهم متمسكين بالدين، يجلّون رجاله ويقدرونهم، وجعلوا لهم مكانـة سامية وسلطاناً عظيماً، مكانة وسلطاناً لم يصلوا إليهما في العصور السابقة كلها[(٣)].

ومن هنا فإن القائمين على الدين من الفقهاء والعلماء كانت لهم الحظوة والمكانـة والتقـدير والاحترام عند أمراء المرابطين، فأعلوا منزلتهم، وقلدوهم أعلى المناصب، إذ أصبح الفقهاء الـذين

---

(1) انظر: العبادي، أحمد مختار. دراسات **في تاريخ المغرب والأندلس**، خطابي ابن العربي للخليفة العباسي المستظهر بالله، وللإمام أبي حامد الغزالي والرد عليهما، ص ٤٧١-٤٨٤.

(2) هو عبد الله بن ياسين، مؤسس دولة المرابطين، من الفقهاء النابهين، وأهل التقى والدين والأدب، عمل على توحيـد القبائل المتصارعة، عن طريق الدعوة الإصلاحية القائمة على الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكـر والالتـزام بأحكام الدين، انظر: محمود، حسن أحمد. **قيام دولة المرابطين**، دار الفكر العربي ،القاهرة، ١٩٥٦، ص ١٠٤-١٨٥.

(3) انظر، محمود، حسن. **قيام دولة المرابطين**، ص ٤١٤.

تولوا القضاء للمرابطين في بعض النواحي حكاماً محليين للإقليم، فكان الفقيه المشاوَر حاكماً دينياً إلى جانب القائد المرابطي الذي كان حاكماً عسكرياً[1].

ورغم أن الأندلس منذ دخول الإسلام إليها كانت لها عناية خاصة بالفقهاء دون شرائح المجتمع الأخرى، وكانت دائماً تفيض بالعلماء على حد تعبير عبد الله بن بلكين "ولم تزل الأندلس قديماً وحديثاً، عامرة بالفقهاء والعلماء، وأهل الدين، وإليهم كانت الأمور مصروفة إلا ما يلزم الملك من خاصته وعبيده، وأجناده"[2] إلا أن الفقهاء قد وصلوا في عهد المرابطين إلى مكانة حسدوا عليها، بعد أن سيطروا على الحياة العامة في الأندلس والمغرب، وكان بيدهم تصريف شؤون الدولة كلها[3]، وكان للفقهاء فيها الكلمة الأولى، والمسموعة في كثير من الأحيان، ذلك أن الأمراء"شاوروهم في كل صغيرة وكبيرة من شؤون البلاد، فقربوهم، وأغدقوا عليهم، ولم يكن يوسف بن تاشفين، أو ولده علي، يجلسان، إلا والفقهاء والقضاة يحفّون بهما، ويسيرون في ركابهما"[4].

منح المرابطون الفقهاء الذين ولوهم القضاء صلاحيات واسعة ومطلقة في تسيير شؤون البلاد، والحكم بين رعاياها بما يرونه مناسباً وعدلاً، يظهر هذا من الرسالة التي كتبها أبو بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة[5] على لسان يوسف بن تاشفين أمير المسلمين، ووجهها إلى الفقيه قاضي الجماعة أبي عبد الله بن حمدين[6] يمنحه صلاحيات واسعة، وأحكاماً تطبق على الجميع بلا استثناء حتى على نفسه، وإن أحكامه نافذة بلا اعتراض، وله أن يعزل أي عامل يثبت ظلمه وتعديه "وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلموا لك في كل حقّ تمضيه، ولا يعترضوا عليك في قضاء تقضيه، ونحن أولاً، وكلهم آخراً مذ صرت قاضياً، سامعون منك، غير معترضين في حقّ عليك، والعمال والرعايا كافة سواء في الحق، فإن شكت إليك بعامل، وصحّ عندك ظلمه لها فاعزله"[7].

---

(1) انظر: دندش. **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين**، ص ٢٦.

(2) ابن بلكين. **كتاب التبيان**، ص ٣٢.

(3) انظر، محمود، حسن. **قيام دولة المرابطين**، ص ١٧٩.

(4) انظر: محمود، حسن. **قيام دولة المرابطين**، ص ٤١٤.

(5) هو أبو بكر محمد بن سليمان الكلاعي الإشبيلي، كان من أهل التفنن في العلوم، كاتباً، بارع الخط، وسافر رسولاً عن المعتمد بن عباد إلى ملوك الطوائف، قبل أن يكتب ليوسف بن تاشفين، ت سنة ٥٠٨هـ، انظر: ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الثاني، المجلد الأول، ص٢٣٩.

(6) هو محمد بن علي بن عبدالعزيز بن حمدين التغلبي، من أهل التفنن في العلوم، حافظاً، ذكياً، تولى القضاء بقرطبة سنة ٤٩٠، وبقي فيه إلى أن توفي سنة ٥٠٨، انظر: **الذخيرة**، ص٢٦٠.

(7)ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٢٦١.

وفي عهد علي بن يوسف بن تاشفين[1] عظم شأن الفقهاء وبلغوا مكانة لم يكونوا قد وصلوا إليها من قبل، لدرجة أنه "كان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة هؤلاء الفقهاء"[2] والاستئناس برأيهم بل والأخذ به، وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أن الفقهاء قد بلغوا درجة كبيرة من التأثير، في اتخاذ القرارات السياسية المتعلقة بالدولة والمجتمع.

ولم يكتف علي بن يوسف بمشاورة الفقهاء والأخذ برأيهم، بل نصّب منهم رقباء على الولاة والقضاة، وعلى تصرفاتهم وقراراتهم، فلم يكن بمقدور القاضي أو الوالي اتخاذ قرار إلا بموافقة هؤلاء الفقهاء ومباركتهم "فكان (علي) إذا ولّى أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً، ولا يبتّ حكومة في صغير من الأمور ولا كبير، إلا بمحضر أربعة من الفقهاء"[3].

ولأنهم اعتلوا الصدارة في المكانة من بين شرائح المجتمع في عصر المرابطين، فقد رتب لهم الأمراء الأعطيات من بيت المال، وأجريت عليهم الأرزاق، حتى أصبحوا من كبار الملاكين والأثرياء، فكان يفزع إليهم الناس كلما تعرضوا لخطر، أو أصابهم مكروه[4] والتفّ الناس حولهم متزلفين، وأقبل عليهم أهل الحاجات والوساطات يلتمسون عونهم، وترتب على ذلك كثرة الحساد والناقمين الذين استكثروا عليهم هذا الجاه وتلك المكانة وكثرة الأموال التي حازوها[5].

ومن هنا فقد وصلت القناعة والثقة عند علي بن يوسف في الفقهاء درجة لا حدود لها، وبلغ اعتماده عليهم وعلى آرائهم مبلغاً عظيماً، فقوة الدولة واستقرارها مرهون بمؤازرة الفقهاء لها، وإسداء المشورة لأولي الأمر، فها هو يكتب لأحد عماله يأمره أمراً قاطعاً لا مردّ له، ولا اختيار له فيه، باستشارة أحد الفقهاء النابهين في كل ما يخص شؤون الدولة، وأمور المجتمع، معللاً ذلك بتحلي هذا الفقيه بصفات عظيمة،تخوله أن يكون صاحب الكلمة الفصل فيما يخص أمور دولته، فيقول في هذا:"وقد علمت محل ذي الوزارتين الأجل، الفقيه الأفضل، ولينا أيده الله بتقواه من صدق ولايتنا ومكانه من حسن رعايتنا، وإنه ممن يستشفى برأيه، ويهتدى بهديه، ويستثمر النجح من سعيه، ويتعرف السداد في رأيه، فينبغي لك أن تشاوره في كل ما تأتي وتذر، وتورد وتصدر،

---

(1) هو علي بن يوسف بن تاشفين. ولي الخلافة بعد أبيه يوسف، وسلك طريقه في أموره كلها، كان ملكاً عظيماً فاضلاً، عظم في أيامه الملك، وكان له على أعدائه وقائع كبيرة، توفي سنة ٥٣٧هـ، وعمره يزيد عن الستين، انظر: ابن الخطيب، **أعمال الأعلام**، ص٣٩٣-٣٩٤.

(2) المراكشي. **المعجب** . ص٢٥٢.

(3) المراكشي. **المعجب** ، ص٢٥٣.

(4)انظر: محمود، أحمد. **قيام دولة المرابطين**، ص٣٦٥.

(5) انظر:محمود ، أحمد. **قيام دولة المرابطين**، ص٣٧٣.

وتقدم وتؤخر، فلن تعدم منه مشيراً ناصحاً، فامتثل في ذلك عهدنا، ولا تتعدّ فيه حدّنا، وتوخّ معه من مصالح البلد، ما يحسّن موقعه عندنا، ويقتضي شكرنا وحمدنا، إن شاء الله، والسلام"(1).

تكشف هذه الرسالة ما كان للفقهاء من مكانة جليلة وسامية في عصر المرابطين، وأهمية ما يصدر عنهم من آراء وتوجهات تصبّ في نهاية الأمر في صالح الدولة والنظام، فلا ينبغي إغفال آرائهم ومشاورتهم في كبير الأمور وصغيرها ؛ لأنها لا تصدر إلا من إنسان مؤيد من الله، راجح العقل سديد الرأي يعمل لصالح الإسلام أولاً، وخدمة السلطان، وحشد الناس لتأييد الدولة، والتفافهم حول قيادتهم ثانياً وأخيراً.

ومن هنا تبرز الصلة القوية بين السلطان والفقهاء، وحاجة السلطان الماسة إلى فقهاء يوجهونه وينصحونه، ويشيرون عليه عند اتخاذ القرارات الحاسمة التي تخدم الدولة، فالدور الذي يقوم به الفقيه في عصر المرابطين ليس دوراً تقليدياً يتمثل في القضاء بين الناس في أحكام الحلال والحرام، في العبادات والمعاملات واستنباط أحكام الشرع غير المنصوص عليها في الكتاب والسنة، بل تعداه إلى الاشتراك بقوة في اتخاذ القرارات السياسية والاجتماعية التي تهم الدولة "فالسلطان لا يطلب من الفقيه ما لديه من معرفة بأمور الدين، بل يريد منه أن يكون عليه مشيراً في قضايا تتعلق بالممارسات السياسية الفعلية، ويطلب منه متى اقتضت السياسة أن يجد لما يقوم به المسوّغ والتبرير من الشرع"(2).

وإذا كان الفقيه على حد تعبير الغزالي(3) "العالم بقانون السياسة، وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات، وهو معلم السلطان ومرشده إلى طرق سياسة الخلق وضبطهم؛ لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا"(4) أدركنا السر الذي حدا بكثير من أمراء السلطة إلى التقرب من الفقهاء، وأحياناً التزلف إليهم، وإنزالهم المنزلة العظيمة، والمقام الأول في المجتمع، والاستماع إلى مشورتهم، والعمل بها، وإغداق الأموال والإقطاعات عليهم حتى يكونوا السند الشرعي الذي يدعم توجهاتهم السياسية ، ويساعدهم في تسيير شؤون دولتهم الوجهة التي يريدونها بغطاء شرعي ، لذلك ليس من

---

(1) مسعد ، سامية مصطفى محمد. **الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إقليم غرناطة في عصري المرابطين والموحدين**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، ملحق 2، عن محمود علي مكي. **وثائق تاريخية عن عصر المرابطين**، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد السابع، العدد (1-2) ، 1959، ص177.

(2) العلوي، سعيد بن سعيد. **الفقيه معلم السلطان**، النصيحة والتدبير، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة، بيروت، 1989، مجلد 4، ص68.

(3) هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد المعروف بالغزّالي، حجة الإسلام ومحجة دار السلام ، سلك طريق الزهد والانقطاع، واجتهد في العبادة، وزيارة المشاهد والمواضع المعظمة ، صنف الكتب المفيدة في عدة فنون ، توفي سنة 505هـ. انظر: العمري، ابن فضل الله. **مسالك الأبصار** ، ص278-280.

(4) الغزالي .إحياء علوم الدين، ، ج1، ص17.

الغرابة احتفاء أمراء المرابطين بالفقهاء احتفاءً مبالغاً فيه أحياناً، ومن هنا، "فقد زادت مكـــانتهم فـــي الأندلس خصوصاً بعد قدوم المرابطين إليها، وأصبحت فئة الفقهاء مرهوبة الجانب مسموعة الكلمــة" واشتد نفوذهم حتى سيطروا فيما بعد على الدولة[1].

استمرت الحظوة والمكانة الجليلة التي حازها الفقهاء في عهد تاشفين بن علي، ويبـــدو أن التقدير والاحترام والهيبة كانت هدفاً ومطلباً يُسعى إليها من قبل بعض الفقهاء، بعـــد أن لمـــسوا الاهتمام الزائد بهم من قبل ملوكهم، يتجلى هذا بوضوح من امتعاض الفقيه أبي بكر بن أسود[2]، قاضي قضاة الشرق من الأمير الزبير بن عمر[3] والي غرناطة، وأحد أبناء عمومة تاشفين بـــن علي[4] الذي لم يحسن استقباله واستضافته عندما مرّ من غرناطة ، متوجهاً إلى مقر تاشفين بـــن علي، فشكاه إلى هذا الأمير، فما كان من تاشفين إلا أن سطّر رسالة إلى الزبير يعنفه فيها أشـــد التعنيف، ويلومه أشد اللوم على تقصيره في العناية بأمر هذا الفقيه، وعدّ هذا التقـــصير إهمـــالاً شديداً ومثلباً كبيراً، وفضيحة ما بعدها فضيحة، ويشتمُّ من هذه الرسالة رائحة التهديـــد والوعيـــد الذي سينزله به، فيقول بكلمات غاضبة: "فكيف جاز أن يجتاز بكـــم الفقيـــه الأجـــلّ، القاضـــي الأعدل، أبو بكر بن الأسود قاضي قضاة الشرق وما بموضعه خفى، ولا باحتفاء الدولـــة العليـــة احتفى، فتهاونتم بمثواه، ونمتم جميعاً عن قراه، كأنه قد مرّ منكم بفلاة، أو حـــطّ علـــى رفـــات، وجاز على أقوام أموات، فلتعلموا مكان هذه الفعلة الفادحة، والفرطة الفاضحة"[5].

إن فقيهاً مثل ابن أسود وأمثاله من الفقهاء، ما مكان يهتز لـــه أميـــر المـــسلمين، ويرعـــد ويزبد، ويهدد ويتوعد، لو لم يكن له هيبة ومكانة ربما توازي هيبة الأمير ومكانته نفسه.هـــؤلاء هم فقهاء المرابطين، "فلا غرابة إذا عظم نفوذهم، وكثر مالهم وجاههم، وارتفعت مكـــانتهم فقـــد

---

(1) مسعد، سامية مصطفى محمد. **الحياة الاقتصادية والاجتماعية في إقليم غرناطة**، ص٢٢٤ وعنان، محمـــد عبـــدالله. **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ط١، ١٩٦٤، ص٧٨.

(2)هو محمد بن إبراهيم بن أسود الغساني، من أهل المرية، يكنى أبا بكر، شوور ببلده لمعرفته ومنصبه، واستقضي بمرسية مدة طويلة، لم تحمد سيرته فصرف عنها، توفي بمراكش سنة ٥٣٦هـــ . انظر ابن بشكوال، **الصلة**، القسم الثاني، ص، ٤٧١.

(3) أحد أبناء عمومة تاشفين بن علي، تولى للمرابطين قرطبة وغرناطة، وهو الذي قتل الشاعر الأبيض بسبب هجائه المقذع له. انظر: المقري. **نفح الطيب**، ج١، ص٤٧١.

(4) هو تاشفين بن علي بن يوسف، كان بطلاً شجاعاً ، أحبه الناس خواصهم وعوامهم، وحسنت سياسته فيهم، أصبح أميراً للمسلمين بعد وفاة أبيه علي، مات بعد أم تعثر به فرسه في حروبه مع الموحدين سنة ٥٣٩، وصلبه الموحدون بعد موته. انظر : ابن الخطيب. **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج١،ص ٤٤٦ـــ ٤٥٤.

(5) دندش. **الأندلس في نهاية المرابطين، ومستهل الموحدين**، ص٢٧.

كانوا يسيطرون على الحياة العامة حتى أضحوا هم حكام البلاد الحقيقيين، وأضحت سلطة الأمراء الملثمين، لا تتجاوز الشؤون العسكرية"[1].

الفصل الثاني: أولاً: مكونات الفقيه الثقافية والعلمية

لم يكن الفقهاء في الأندلس متخصصين في علم الدين والشريعة، مثلهم في ذلك مثل فقهاء الإسلام وعلمائه في كل مكان، بل كانوا موسوعات علمية وثقافية آخذين من كل علم بطرف[2].

والمتتبع لتراجم هؤلاء العلماء والفقهاء في أمهات المصادر الأندلسية يجد أنهم بالإضافة إلى علمهم الواسع، وفهمهم الدقيق لأمور الدين والشريعة علماء، وأدباء، وشعراء، ونحاة، ومؤرخين، وفلاسفة ولكنهم متفاوتون في إحراز هذه العلوم، وهذا التفاوت هو الذي رفع بعضهم على بعض، ومن هنا فلا نستغرب أن ينشأ بين هؤلاء الفقهاء الحسد وعدم الارتياح ممن هم فوقهم مستوى ومكانة .

وقد ذكر ابن حزم الأندلسي في كتابه "الإحكام في أصول الأحكام" جملة من المعارف التي يجب على الفقيه أن يعرفها ويتقنها، وعدم إلمامه بها يخرجه عن نطاق الفقيه النموذج والمثال الذي يحق له الفتيا، فهو إلى جانب علمه الديني وتمكنه من أحكامه عليه أن يستعين بمختلف أنواع العلوم؛ لأنها تفيده في فهم كلام الله تعالى وأحاديث الرسول الكريم[3] وحتى يستكمل الفقيه المثال علمه الديني، وأحكام الدين الشرعية، والإحاطة بهما، عليه الإلمام باللغة العربية وبشكل خاص بالنحو العربي الذي يستطيع به الغوص إلى أعماق النصوص، واستنباط الأحكام منها فيرى الفقيه ابن حزم: أنه فرض على الفقيه" أن يكون عالماً بلسان العرب ليفهم عن الله عز وجل، وعن النبي صلى الله عليه وسلم ويكون عالماً بالنحو الذي هو ترتيب العرب لكلامهم الذي نزل القرآن به، وبه يعبّر عن معاني الكلام التي يعبّر عنها باختلاف الحركات، وبناء الألفاظ[4].

ويرى ابن حزم أن الفقيه الذي يجهل اللغة العربية وألفاظها ومسمياتها، ويجهل النحو الذي هو علم اختلاف الحركات الواقعة لاختلاف المعاني، ومن لم يعرف اللسان الذي به خاطبنا الله تعالى فلا يحلُّ له أن يقف فقيهاً ومفتياً للناس[5].

ويجعل ابن حزم حدوداً دنيا من المعارف يجب أن يلم بها الفقيه ويعلمها، حتى يسمى فقيهاً عاملاً، فحد الفقه عنده هو المعرفة بأحكام الشريعة الإسلامية مستمدة من القرآن الكريم، ومن

---

(1) محمود، حسن. **قيام دولة المرابطين**، ص٣٧١.

(2) انظر: الشكعة. **الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه**، ص٩٧.

(3) ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد. **الإحكام في أصول الأحكام**، المجلد الثاني، ج٥، ص١٢٦.

(4)ابن حزم. **الإحكام في أصول الأحكام**، ج٥، ١٢٦.

(5) ابن حزم. **الإحكام في أصول الأحكام** ، ج٥، ص ١٢٦.

كلام المصطفى صلى الله عليه وسلم، والعلم بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن الكريم، وتمييز الحديث الصحيح من غيره بتتبع سنده، ومعرفة ما أجمع العلماء عليه، وما اختلفوا فيه وكيف يرد الاختلاف إلى القرآن الكريم، وكلام الرسول عليه السلام[1].

وقال الحسن البصري "إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه، الورع الكاف نفسه عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لجماعتهم، ولم يقل الحافظ للفتاوي"[2] فليس من حفظ آيات نصوص الأحكام، وأحاديث الأحكام، ونظر في مسائل الفقه أصبح فقيهاً[3] وذلك لقول الرسول صلى الله عليه وسلم " نضّر الله امرأ سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه"[4] ولذلك ليس بإمكان كل إنسان أن يكون فقيهاً حقاً، فالفقه قبل أن يكون علماً ودراسةً وحفظاً، هو قدرات وملكات يتفاوت الناس فيها، فالملكة الفقهية تتأتى بأمرين أولهما: هبةٌ إلهية لا حيلة للعبد بها، وثانيهما: بالدربة والمران، ويحسن أن يكون ذلك على فقيه عليم بصير[5].

ومما يكوّن الملكة الفقهية: النظر في كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وفي كتب التفسير، وشرح كتب الحديث، والتعرف إلى أقوال العلماء، والجلوس في مجالس العلم، والحرص على العمل بما يعلم، فذلك من بركة العلم"[6].

وفي الأندلس، هناك معيار لتمييز الفقيه الفقيه، عن طالب الفقه والعلم، فالفقيه العالم أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي دليم[7] "لا يرى أن يسمى طالب العلم فقيهاً حتى يكتهل، ويكمل سنه، ويقوى نظره ويبرع في حفظ الرأي، ورواية الحديث، وتبصّره، ويميز طبقات رجاله، ويحكم عقد الوثائق، ويعرف عللها، ويطالع الاختلاف، ويعرف مذاهب العلماء والتفسير، ومعاني القرآن، فحينئذٍ يستحق أن يسمى فقيهاً، وإلا فاسم الطلب أليق به"[8].

---

(1) ابن حزم. **الإحكام في أصول الأحكام** ، ج٥، ص١٢٧.

(2) الغزالي. **إحياء علوم الدين**، ج١، ص٣٢.

(3) الأشقر. **تاريخ الفقه الإسلامي**، ص٢٢٦.

(4) السجستاني، أبو داوود سليمان بن الأشعث(ت٢٧٥) ، **سنن أبي داوود** ، ج٢، دار الجنان للطباعة والنشر، بيروت، ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٩٨٨، حديث رقم ٣٦٦٠، ص ٣٤٦.

(5) الأشقر، **تاريخ الفقه الإسلامي**، ص٢٢٧.

(6) الأشقر، **تاريخ الفقه الإسلامي**، ص٢٢٧.

(7) هو أبوعبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن أبي دليم، ، فقد كان فقيهاً زاهداً، ورعاً عفيفاً، جلداً ضابطاً متقناً، وكان من خيار الناس وأشهرهم عدالة بقرطبةتوفي سنة ٣٧٢هـ، انظر: عياض. **ترتيب المدارك**، ج٢، ص٤٤١-٤٤٢.

(8) عياض، القاضي. ترتيب المدارك، ج٢، ص٢٤١-٢٤٢.

فحتى يصل طالب العلم، إلى مرتبة فقيه عليه أن يجد ويجتهد ويتبحر في علوم الدين والحديث، فليس من السهولة بمكان أين ينال إنسان لقب فقيه، بمجرد أنه حفظ شيئاً من الحديث وعرف بعض المسائل الفقهية.

فقد شاع في الأندلس أن من قرأ المدونة، أو المستخرجة، وحفظ مسائلهما، فهو الفقيه الحق الذي يحق له الإفتاء، والنظر في أمور الدين والشريعة، وهذا ما يؤكده الحوار الذي دار بين عبد الله بن إبراهيم الأصيلي[1]، ومحمد بن صالح الأبهري. فقد سأل الأبهريُّ الأصيلي، "كيف صفة الفقيه عندكم بالأندلس؟ فقال الأصيلي: يقرأ المدونة، وربما المستخرجة، فإذا حفظ مسائلهما أفتى، فقال الأبهري: هذا ما هو! فأجابه: نعم، فقال الأبهري[2]: أجمعت الأمة على أن من هذه صفته لا يحل له أن يفتي"[3].

كان الأمراء والخلفاء يختارون الفقهاء الذين يتصفون بصفات مثالية ليولوهم القضاء، وبعض الأعمال الإدارية، أو الاستشارة أو المجالسة، فلذلك كان أمراء بني أمية وخلفاؤهم في الأندلس حريصين على دقة اختيار الفقيه الذي يستحق الجلوس على دكة الفتيا، فكانوا "لا يقدمون أحداً للفتوى، ولا بقبول الشهادة حتى يطول اختياره، وتعقد له مجالس المذاكرة، ويكون ذا مال في غالب الحال خوفاً من أن يميل به الفقر إلى الطمع فيما في أيدي الناس، فيبيع فيه حقوق الدين"[4].

وقد روي عن الشافعي قوله:"أنه لا يحل لأحد أن يفتي في دين الله، إلا رجلاً عارفاً بكتاب الله بناسخه ومنسوخه، وبمحكمه ومتشابهه، وتأويله وتنزيله، ومكيّه ومدنيه، وبما أريد به وفيما أنزل، ثم يكون بعد ذلك بصيراً بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناسخ والمنسوخ ويعرف من الحديث ما عرف من القرآن، ويكون بصيراً باللغة، بصيراً بالشعر"[5].

---

(1) هو عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن جعفر، من كورة شذونه، وينسب إلى بلده أصيلا الّتي ولد فيها ونشأ، من أجلّ العلماء، علماً وفقهاً، وأثبتهم نقلاً، وأرفعهم حالاً، وأعدلهم قولاً، توفي سنة ٣٩٢، انظر عياض. **ترتيب المدارك**، ص ٦٤٧-٦٤٨.

(2)هو أبو بكر محمد بن عبدالله بن صالح، يتصل نسبه بالصحابي مصعب بن الزبير ، سكن بغداد وكان إمام أصحاب مذهب مالك في وقته، وكان معظماً عند سائر العلماء، رفض تولي القضاء في بغداد، وبعد وفاته ضعف مذهب مالك بالعراق لاتباع الناس أهل الرئاسة والظهور. انظر ترجمته في عياض. **ترتيب المدارك** ، ص ، ٤٦٦ــ ٤٧٣.

(3) ابن حزم . **الإحكام في أصول الأحكام**، ج٥، ص١٢٩.

(4) المقري . **نفح الطيب** ، ج٣، ص٢١٤.

(5)البغدادي، الخطيب. **الفقيه والمتفقه** ، صححه وعلق عليه: الشيخ إسماعيل الأنصاري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٠، ج٢، ص ١٥٧.

ومن الشروط التي يجب أن تتوفر في الفقيه الذي يستحق نيل شرف الفتيا والشهادة بموجبها أن يكون غنياً ذا مال يردعه، ويغنيه عن النظر إلى ما في أيدي الناس، ويكون في غنى عن أموالهم "فإذا كان من الغنى ما يكفّه عن أموال الناس، ومن الدين ما يصده عن محارم الله تعالى ومن العلم ما لا يجهل به التصرف في الشريعة، أباحوا له الفتيا والشهادة، وجعلوا علامة لذلك بين الناس القالس والرداء"(١).

فعندما أراد الحكم الربضي أن يعين فقيهاً فقيراً مختصاً للشهادة، وجد معارضة من كبار فقهاء الأندلس، وعندما أبدى الحكم رغبته الشديدة في تعيينه وجد مخرجاً من ذلك بما أشار عليه ابنه عبد الرحمن، بأن يغنيه ويخرجه من فقره، فاستدعى الحكم الفقيه عبد الملك بن حبيب، وسأله عن مقدار ما يؤهله لتلك المرتبة من الغنى، فذكر له عدداً، فأمر له به في الحين ؛ ليتخلص من هذا المثلب الذي رآه الفقهاء(٢).

وقد أنجبت الأندلس فقهاء كباراً، أتحفوا بمصنفاتهم وفكرهم الفكر الديني والفلسفي والتاريخي بمقوماتهم الثقافية والعلمية، فالفقيه الظاهري ابن حزم الأندلسي "كان أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسع في علم اللسان، والبلاغة والشعر، والسير والأخبار"(٣)، "وكان إليه المنتهى في الذكاء، وحدة الذهن، وسعة العلم بالكتاب والسنة والمذاهب والملل والنحل، والعربية، والآداب، والمنطق والشعر، مع الصدق والديانة، والحشمة والسؤدد والرياسة والثروة وكثرة الكتب"(٤).

وبناء على ما تم ذكره من مكونات الفقيه الدينية والسياسية والفكرية، لم يكن الفقهاء في معظمهم مفتقرين إلى دعم الأمراء والخلفاء ومساندتهم، من أجل علو شأنهم، وترسيخ نفوذهم بل إن الكثير من هؤلاء الفقهاء أقاموا شهرتهم ووطدوا مكانتهم عن طريق نشر العلم والعمل به منقطعين إلى ذلك(٥).

ومن هنا، فقد عرف الأمراء والخلفاء أقدار الفقهاء فأنزلوهم المنزلة الكبيرة، وجعلوهم النموذج والمثال الذي يجب أن يكون عليه أصحاب المناصب العالية، كالوزراء والقضاة "إذ كان

(1) المقري. **نفح الطيب**، ج٣، ص ٢١٦.

(2) المقري. **نفح الطيب**، ج٣، ص ٢١٥ .

(3) المقري. **نفح الطيب**، ج٢، ص ٧٨.

(4) المقري. **نفح الطيب**، ج٢، ص ٧٨.

(5) ابن بيّه. **الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين**، ص ٣٣.

ملوك قرطبة يتواضعون لعلمائها، ويعرفون أقدارهم ويصدرون عن آرائهم، وأنهم كانوا لا يقدمون وزيراً، ولا مشاوَراً، ما لم يكن عالماً"[1].

ثانياً: صفات الفقيه المثال.

يلاحظ المتتبع لأمهات المصادر الأندلسية كثرة الكتب التي ترجمت للفقهاء، وكثرة الفقهاء الذين خلدت ذكرهم هذه المصادر، حتى ليخيل إلى الدارس أن كل أهل الأندلس علماء وفقهاء، وليس هذا بغريب، فإن مهنة الفقه قد لاقت رواجاً وإقبالاً من جميع شرائح المجتمع، وقلما نجد عالماً أو أديباً ، أو أميراً لا يحمل شيئاً من دراسة الفقه، وكأن الفقه زينة يتزين بها الأعلام في الأندلس.

ورغم الانتقادات التي وصلت إلى حد السخرية والتطاول، والهجاء المر لبعض هؤلاء الفقهاء، إلا أن المتتبع للصفات التي أسبغت على بعض الفقهاء في تراجمهم، يجد أنهم قد وصفوا بصفات المثالية والالتزام الديني قولاً وفعلاً، وأنهم قد حملوا من الصفات الخلقية الطيبة ما يجعلهم نماذجَ يقتدى بها، وأمثلة شاهدة على ما لهذه الشريحة من أثر في حياة الأندلسيين الدينية والسياسية والاجتماعية والفكرية.

فمن الصفات التي كثر ذكرها في تراجم الفقهاء الصلابة في الحق، وعدم الميل مع الهوى، أو محاباة أولي الأمر، على حساب المبادئ النبيلة التي كان يؤمن بها ويسير بهداها، فقد وصف الفقيه ابن أبي عيسى[2] الذي كان محبباً إلى العامة، مقرباً لدى الخاصة ، ومن الخليفة مؤتمناً على أسراره، حتى لقد بوأه فراش كرامة، مع وزرائه، مدنياً لمكانه"[3]، ومن الصفات التي امتاز بها هذا الفقيه "الصدع بالحق في السر والجهر، ولم يداهن ذا قدر، ولا أغفى لأحد من أصحاب السلطان عن هنة، حتى تحاموا جانبه، فلم يكونوا يطمعون به"[4].

ومن صفات الفقيه المثال التي أكثر من ذكرها مترجمو رجال الأندلس وعلمائها، شدة الورع والتدين والفهم العميق للأحكام الشرعية، والعقل الراجح الذي يسبر جوهر هذه الأحكام، ويستنبطها من نصوصها الشرعية، والزهد والتقشف اللذان يسهلان على الفقيه الصدع بالحق، والجرأة في

([1]) المقري، **نفح الطيب**، ج٣، ص ٢١٤.

([2]) هو محمد بن عبد الله المعروف بابن أبي عيسى، قرطبي من بيت نباهة ورئاسة في العلم، وكان حافظاً للرأي معتنياً بالأثر، جامعاً للسنن، متصرفاً في علم الإعراب ومعاني الشعر، توفي سنة ٣٣٩، انظر: عياض. **ترتيب المدارك**، ص ٤٠٥-٤١٢.

([3])عياض . **ترتيب المدارك** ،ص ٤٠٦.

([4])عياض . **ترتيب المدارك** ،ص ٤٠٧.

مواجهة الانحرافات. فابن مسرة التجيبي كان خيراً فاضلاً، ديّناً ورعاً، مجتهداً عاقلاً، وكان من أهل العقل والدين المتين والتقشف والبعد عن السلطان، لا تأخذه في الله لومه لائم، وكان وقوراً مهيباً، زاهداً عابداً، صليباً في الحق[1].

والفقيه المثال الذي وصل إلى أعلى درجات الفقه والاجتهاد، يجب عليه التريث وعدم العجلة في إبداء الفتيا، وإعطاء حكم الشرع في المسألة، فعليه التوقف والاحتراز "فإن سئل عن مسألة عنده علم بها في القرآن الكريم، أو الحديث الشريف، أو إجماع أو قياس جلّي أفتى بذلك، وإن سئل عن مسألة عنده شك فيها، قال: لا أدري وإن سئل عما يظنه باجتهاد وتخمين، احتاط، ودفع عن نفسه، وأحال على غيره"[2].

ومن الصفات الخلقية النبيلة التي كان يتصف بها الفقيه المثال: تلك العلاقة الوثيقة، والمودة الصادقة التي كان يكنها الفقيه لأصدقائه وأصحابه، فقد كان وفياً لهم، باراً بهم، حسن المعاملة لهم، ونافعاً لهم، فالفقيه أبو الوليد بن رشد[3] " كان الناس يلجؤون إليه ويعولون في مهماتهم عليه، وكان حسن الخلق، سهل اللقاء، كثير النفع لأصحابه وخاصته جميل العشرة لهم، حافظاً لعهدهم، كثير البر بهم"[4] ،وهو إلى جانب ذلك، يتصف بصفات خلقية مثالية جعلت منه "رجل رياسة في العلم والبراعة والفهم مع الدين والفضل والوقار والحلم والسمت الحسن، والهدى الصالح"[5]، أما الفقيه أبو بكر بن العربي[6] "فكان مقدماً في المعارف كلها، حريصاً على أدائها ونشرها، ثاقب الذهن في تمييز الصواب فيها، ويجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق، مع حسن المعاشرة، ولين الكنف وكثرة الاحتمال وكرم النفس، وحسن العهد وثبات الود"[7].

ومن الصفات الخلقية الجليلة التي تحلى بها كبار فقهاء الأندلس،التعفف عن زيارة الأمراء، والحكام، وأولي الأمر، لأن هذا مما يجرح ثقة الناس فيهم، أو يجرهم إلى ما لا يريدونه ، فهذا الفقيه

---

(1) عياض. **ترتيب المدارك**، ص ٤٢٤-٤٢٥.

(2) انظر : الغزالي. **إحياء علوم الدين**، ج١، ص ٦٩.

(3) هو محمد بن أحمد بن رشد المالكي، تقلد القضاء بقرطبة، وسار فيه بأحسن سيرة، وأقوم طريقة ثم استعفي عنه، فأعفي، توفي سنة ٥٢٠هـ، انظر: **الصلة**، ج٢، ص ٥٧٦.

(4) النباهي. **تاريخ قضاة قرطبة** نص ٩٨-٩٩.

(5)النباهي. **تاريخ قضاة قرطبة** ، ص ٩٨-٩٩.

(6) هو الفقيه، الحافظ، أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري المعروف بابن العربي (الابن) برع في الحديث والفقه والأدب، توفي سنة ٥٤٢هـ، انظر: ابن خاقان. **مطمح الأنفس**، ص ٢٩٧.

(7) المقري . **نفح الطيب**، ج٢، ص ٢٨.

أبو القاسم الشاطبي[1] يكتب إلى أحد الأمراء، وقد دعاه إلى الحضور عنده يستأنس برأيه بعد أن رفض هذه الدعوة ، مبرراً ذلك بأن الفقيه العالم المثال لا يجدر به أن يجالس الأمراء ويصحبهم لأن ذلك فيه شك وريبة، وقال في رسالته شعراً[2] وهو من مجزوء الكامل.

قُــلْ لِلأَمِيــرِ مَقَالَــةً   مِــنْ نَاصِــحٍ فَطِــنٍ نَبِيــهِ

إِنَّ الفَقِيــهَ إِذَا أَتَــى   أَبْــوَابَكُمْ لا خَيْــرَ فِيــهِ

أما الفقيه عبد الملك بن سراج [3] الذي بلغ مكانة سامية عند بني جهور، فقد عاتبه عبد الملك بن الوليد بن جهور في كونه جاء لزيارته، وأبو مروان لا يزوره، فقال:"أعزك الله، أنت إذا زرتني قال الناس: أمير زار عالماً؛ تعظيماً للعلم، واقتباساً منه، وأنا إذا زرتك قيل: عالم زار أميراً للطمع في دنياه، والرغبة في رفده، ولا يصون علمه"[4].

والحرص على طاعة الله، ولزوم ما أمر به قولاً وفعلاً من الصفات التي اتصف بها كبار الفقهاء في الأندلس، فقد كان أبو الوليد الباجي حريصاً على استغلال كل وقته في طاعة الله؛ لأن الحياة في نظرة هي ساعة من الزمن تنقضي، وينقضي معها أجله، فحريٌّ به أن يقضي هذه الساعة طائعاً لله، عاملاً لما بعد الموت؛ ليفوز برضى الله وغفرانه وفي هذا يقول[5]: وهو من المتقارب .

إِذَا كُنْــتُ أَعْلَــمُ عِلْمَــاً يَقِينَــاً   بِــأَنَّ جَمِيــعَ حَيَــاتِي كَــسَاعَة

فَلِــمْ لا أَكُــونُ ضَــنِيناً بِهَــا   وَأَجْعَلُهَــا فِــي صَــلاحٍ وَطَاعَــة

ومن الصفات المطلوبة في الفقيه المثال واتصف بها أبو الوليد، ما أورده القاضي عياض في ترتيب المدارك فقد كان "فقيهاً ،نظاراً، محققاً ،راوية، محدثاً، يفهم صيغة الحديث ورجاله، متكلماً، أصولياً، فصيحاً، شاعراً ،مطبوعاً ، حسن التأليف، متقن المعارف... وكان وقوراً، بهياً، مهيباً، جيّد القريحة، جليلاً، رفيع القدر"[6].

---

(1) هو أبو القاسم ابن فِرُّه بن خلف الرعيني الشاطبي، أحد الفقهاء والعلماء المشهورين، كان إماماً علّامة حافظاً للحديث، بصيراً بالعربية، زاهداً، عابداً، منقطعاً لله، توفي سنة ٥٩٠هـ، انظر ترجمة في المقري. **نفح الطيب**، ج٢، ص ٢٢-٢٥.

(2) المقري. **نفح الطيب**، ج٢، ص ٢٣.

(3) هو عبدالملك بن سراج إمام الأندلس في وقته في علم لسان العرب، وضبط لغاتها، وأذكرهم لشوارد أشعارها، وأوثقهم في ذلك، وإليه كانت الرحلة من جميع جهات الأندلس، توفي سنة ٤٨٩هـ انظر: ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الأول، المجلد الثاني، ص٨٠٨ـ٨١٢.

(4)ابن سعيد المغربي. **المغرب في حلى المغرب**، ج١، ص ١١٦.

(5) عياض. **ترتيب المدارك** ، ص ٨٠٧.

(6)عياض. ترتيب المدارك ، ص ٨٠٣-٨٠٤.

ومن صفات الفقيه المثال: أنه كان يترفع عن الصغائر، وعن كل ما من شأنه أن ينال من مروءته وقدره وهيبته، فالفقيه المشاور أبو إبراهيم التجيبي، وهو من كبار علماء المالكية رفض تلبية دعوة عبد الرحمن الناصر، لحضور الاحتفال الذي دُعي إليه كبار الفقهاء والعلماء ورجال الدولة، بمناسبة ختان أحفاده، فتخلف عن الحضور –رغم رغبة الناصر الشديدة بذلك– لأنه رأى أن مقامه كعالم وفقيه يحتم عليه الابتعاد عن مثل هذه الأجواء الاحتفالية التي لا تليق به(١).

ولما كانت مناصب الدولة السياسية والاجتماعية الرفيعة، من أسمى ما يسعى إليها الطامعون والطامحون، ومنهم بعض الفقهاء فإن الفقيه المثال نأى بنفسه عن السعي إليها وقبولها، والخوض في الوصول إليها بأي طريقة كانت، بل رفضها رفضاً قاطعاً، ينم عن ورعه وتقواه وخوفه من الله سبحانه وتعالى أن يزلّ فيها فيوقع الظلم والجور على الناس، وهذه من أكبر وأجل الصفات المثالية التي اتصف بها هؤلاء الفقهاء؛ لأنها تشير إلى أن مثل هؤلاء أبعد ما يكون فكرهم عن الدنيا، وأقرب ما يكون إلى الله تعالى.

يؤكد هذا رفض كثير من الفقهاء والعلماء تولي القضاء، أو ما يسند إليهم من أمور الدولة، رفضاً لا رجعة فيه، رغم ما فيه من الإغراءات والامتيازات الاجتماعية والمادية، والمكانة العالية، خوفاً من اتباع الهوى، والانحناء لتوجهات أولي الأمر، ومن هؤلاء –وهم كثر – زياد بن عبد الرحمن اللخمي (شبطون) الذي رفض القضاء للأمير هشام بن عبد الرحمن رغم عزمه على ذلك بالتهديد والوعيد، فلما كرر وزراء هشام الأمر عليه هددهم إن أكره على ذلك، فأنهم سيكونون أول من يقضي عليهم في أحكامه "أما إن أكرهتموني على القضاء، فزوجتي فلانة طالق ثلاثاً، لئن أتاني مدّعٍ في شيء مما في أيديكم، لأخرجنه عنكم، ثم أجعلكم مدعّين فيه"(٢).

فلما سمعوا منه ذلك خافوا أن يكون هذا الفقيه خصماً لهم، لأنهم يعلمون علم اليقين صدقه فيما يعزم عليه وما يقوله، فأقنعوا هشاماً في إعفائه، فقال هشام فيه عندما علم بذلك: "ليت الناس كلهم كزياد، حتى أكفى أهل الرغبة في الدنيا"(٣).

أما الفقيه محمد بن عبد السلام الخشني(٤)، فإنه لمّا رفض تولي القضاء للأمير محمد بن عبد

---

(1) انظر: المقري. **نفح الطيب**، ج١، ص ٣٧٦.

(2) المقري. **نفح الطيب**، ج٢، ص ٤٥.

(3)المقري. **نفح الطيب**، ج٢، ص ٤٥.

(4) هو محمد بن عبد السلام الخشني، من أهل قرطبة، فصيح اللسان، جزيل البيان، منقبضاً عن السلطان رفض تولي القضاء للأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم، توفي سنة ٢٨٦هـ، انظر ابن خاقان. **مطمح الأنفس**، ص ٣٨٣.

الرحمن بن الحكم[1] هدده الأمير بالقتل وسفك الدم، فما كان من الخشني إلا أن نزع قلنسوته من على رأسه ومدّ عنقه وجعل يقول: "أبيت كما أبت السموات والأرض، إباءة إشفاق، لا إباءة عصيان ونفاق"[2] فالقضاء عنده أمانة عظيمة لا يستطيع القيام بها خير قيام، فقد يتعرض الناس للجور والظلم، وهو بهذا يشير إلى الآية الكريمة ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا [3] ﴾ ،فلما علم الأمير شدة الرفض ونبرة الصدق فيه طلب منهم أن يتركوه لشأنه، ويسلموه أمره.

ومما تميز به الفقيه المثال : الحذر من الإفتاء في الأمور الدينية التي تعرض عليه، خوفاً من الوقوع في الزلل، فالفقيه ابن عتّاب[4] (٣٨٣-٤٦٢) "كان يخاف الفتوى، ويخاف عاقبتها في الأخرى فيقول فيمن يحسده عليها "من يحسدني فيها جعله الله فقيهاً" وإذا رُغِّب في ثوابها، أو رُغّب بالأجر عليها يقول: "وددت أني أنجو منها كفافاً لا عليّ ولا لي"[5].

هذه الصفات التي مر ذكرها هي معظم الصفات التي اتصف بها الفقيه المثال في الأندلس في الفترة مدار البحث.

الفصل الثالث:أضواء على علاقة الفقهاء بشرائح المجتمع الأندلسي.

يعد الفقهاء في المجتمع الأندلسي من الطبقة الخاصة التي لها مكانتها وتأثيرها الفعّال على الساحة الاجتماعية والسياسية، وانعكست هذه المكانة على العلاقة القائمة بين هذه الشريحة وبين فئات المجتمع الأندلسي وشرائحه المختلفة، فكانت تصل حيناً إلى حدّ الانسجام التام والتوحد والتلاحم، وأحياناً تصل إلى درجة التنافر والصدام، والذي يحدد هذه وتلك السياسة التي يتبعها

---

(1) هو أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن بن الحكم ، كان محباً للعلم، مؤثراً لأهل الحديث ، حسن السيرة، وكان أيمن الخلفاء بالأندلس ملكاً، ،اسراهم نفساً ، يجمع إلى ذلك البلاغة والأدب، استمرت ولايته أربعاً وثلاثين سنة، توفي سنة ٢٧٣هـ. انظر: ابن الأبار. **الحلة السيراء**، ج١، ص١١٧. الجذوة ص١٧.

(2) الخشني، أبو عبد الله بن الحارث (ت٣٦١)، **قضاة قرطبة**، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨٢، ص ٣٤.

(3) الأحزاب، آية: ٧٢.

(4) هو أبو عبد الله محمد بن عتّاب بن محسن، قرطبي، كان إماماً جليلاً، متصرفاً في كل باب من أبواب العلم، وهو من الذين رفضوا بشدة تولي القضاء لابن جهور، وغيره من ملوك الطوائف، توفي سنة ٤٦٢، انظر: عياض. **ترتيب المدارك**، ص ٨١٠-٨١١.

(5) بالنثيا . **تاريخ الفكر الأندلسي**، ص ٤٢٤.

الحكام والملوك، ومدى موافقة الفقهاء على هذه السياسة، أو نفورهم منها، وكذلك المصالح الشخصية بينهم حيناً، والمصلحة العامة حيناً آخر.

ولم تكن العلاقات القائمة بين الفقهاء وشرائح المجتمع الأخرى على وتيرة واحدة، وذات نمط واحد، في العصور مدار البحث، فلكل عصر من هذه العصور نمطه الخاص به، وسماته التي يتميز بها عن غيره والذي يجمع ذلك كله، هو افتقار الحكام إلى الفقهاء، وحاجتهم الملحة دائماً إلى وجودهم بالقرب منهم، فبينما كانت علاقة الودّ والتسامح، واللين والإكبار السمة البارزة في عصر بني أمية كان الحذر والرياء والنفاق والملاحقة والاضطهاد عنواناً بارزاً لهذه العلاقات في عصر ملوك الطوائف، أما في عصر المرابطين فإن العلاقات سمت، وارتفعت، ووصلت إلى مستوى التآلف والانسجام، والتلاحم التام في كل الأمور، فأصبحت علاقة مشاورة وتشارك في كل شيء.

أولاً: أضواء على علاقة الفقهاء بالأمراء وأرباب السلطة

١. علاقة الفقهاء بالأمراء والخلفاء(بني أمية)

تميزت العلاقة بين الفقهاء وأمراء الدولة الأموية وخلفائها في أغلب الأحيان بالدفء والتقارب والتوافق، وشجع هذه العلاقات الطيبة الظروف الاجتماعية والسياسية التي أعقبت إنشاء الدولة الأموية في الأندلس، فالمجتمع الأندلسي الوليد بحاجة إلى فقهاء يأخذون بيده ويعلمونه أصول الدين الإسلامي وأحكامه، والأمراء بحاجة إلى الفقهاء لإضفاء الشرعية الدينية على هذه الدولة وأمرائها[1] فلا غرابة أن نرى بعض الأمراء والخلفاء، يسعون إلى ودّ هؤلاء الفقهاء، وبناء علاقات متينة معهم، فلاطفوهم وأخذوهم باللين، وخاصة في عهد كل من عبد الرحمن الداخل وابنه هشام، فعبد الرحمن قربهم وأدناهم منه بسبب حاجته إليهم؛ ليكونوا السند والمعين له في ترسيخ أركان دولته الفتية، وعمد هشام إلى تعزيز مكانتهم، وتقوية علاقته معهم، فتبنى المذهب المالكي، وجعله المذهب الرسمي للدولة، وهو المذهب الذي كان عليه فقهاء الأندلس عامة[2].

ولكن هذه العلاقة المتينة التي زرع بذرتها الداخل، وثبت أركانها هشام من بعده، تعرضت لهزة عنيفة، في عهد الأمير الثالث، الحكم بن هشام، المعروف بالربضي، الذي لم يعجبه ما وصل إليه الفقهاء من مكانة وتأثير ونفوذ، فآثر الانفراد بالسلطة دون أن ينازعه فيها أحد، أو يشركه في الرأي إنسان، لذلك توترت العلاقات بينه وبين الفقهاء، ووصلت إلى حد الصدام العنيف الذي كاد أن يزعزع أركان الدولة الأموية من أساسها، وليس معنى هذا أن الحكم كان مجافٍ للفقهاء، بل كانت تربطه علاقات حميمة وطيبة مع بعضهم ، وتتضح قوة العلاقة وتميزها بينة وبين الفقهاء ما جرى

---

(1) انظر: مؤنس، حسين. **شيوخ العصر في الأندلس**، ص ٣٨.

(2) انظر: الشعراوي. **هياج الربض، ثورة شعبية على الحكم الأموي**، ص ٤٢-٤٦.

له مع الفقيه طالوت بن عبد الجبار[١]، الذي كان من أشد الفقهاء على الحكم في وقعة الربض، فعاتبه على ذلك، مبيناً له شدة إكرامه له: "يا طالوت لو أن أباك مالك هذا القصر، أكان يزيدك في البرّ والإكرام على ما كنت أفعله معك؟ هل أوردت علي قطّ حاجة لنفسك، أو لغيرك، إلا سارعت إلى إسعافك فيها..فما بلغ بي عندك أن لم ترضَ إلا سفك دمي، وهتك ستري، وإباحة عورتي. فقال طالوت: إني أبغضتك في الله عز وجل، فلم ينفعك عندي كل ما صنعته معي. فقال الحكم: فأنا أعلمك أن الذي أبغضتني له، قد صرفني عنك، فانصرف في حفظ الله آمناً"[٢].

ومن هذه العبارات يتضح أن العلاقة قائمة على المصلحة الشخصية، ورد الجميل، وحفظ الودّ، الذي كان ينتظره الحكم، بينما كانت العلاقة مبنية على الصدق والصراحة من قبل الفقيه، وأن عماد هذه العلاقة، مدى التزام الأمير بالسير على المنهج الصحيح الذي جاء به الإسلام، ويسير على هديه الفقهاء.

وكانت العلاقة القائمة بين الفقهاء وبعض الأمراء –رغم ظاهرها الذي يوحي بالصفاء والمودة– يشوبها الحذر وعدم الثقة والاطمئنان، بسبب ظروف الحكم التي فرضت على الحكام مسايرة الفقهاء، وعدم التصادم معهم، ما دام ذلك في مصلحة الحكم وقوته واستقراره، ومباركة الفقهاء لسياسات الحكام، يدلنا على ذلك، المصطلح الذي أطلقه عبد الرحمن بن الحكم الربضي عليهم "سلسلة السوء" رغم العلاقة القوية التي كانت تربطه بهم، وكان هذا المصطلح من الأسرار القائمة بينه وبين رجاله وقضاته، فبعد أن عزل الأمير الحكم قاضيه يخامر الشعباني[٣]. قال يخامر لرسول الأمير على رأس الأشهاد: "قل للأمير أصلحه الله: إذ وليتني أمرتني أن اتحفظ على السلسلة السوء(الفقهاء) واليوم تعزلني ببغيها عليّ، فلما بلّغ الفتى قوله إلى الأمير، قال: قبّحه الله، ذكر أسرارنا على رؤوس الناس"[٤]، فعلى الرغم من شدة إكرام عبد الرحمن بن الحكم للفقهاء وتقريبهم منه، وإعلاء شأنهم، واحترامهم المتبادل معه، إلا أنه كان ينظر إليهم بمنظار السياسة ومصالحها، والحذر من تحركاتهم وأفعالهم.

---

(1)هو طالوت بن عبدالجبار المعافري الأندلسي، من أصحاب الإمام مالك، لقيه وأخذ عنه، وكان من الخارجين على الحكم الربضي في وقعة الربض ، وهو من الذين نجوا من بطش الحكم، فقد استتر عند رجل يهودي لمدة عام ، حتى عفا الحكم عنه. انظر: المقري. **نفح الطيب، ج٢، ص، ٦٣٩.**

(2) المراكشي. **الذيل والتكملة** السفر الرابع، ص ١٥٠-١٥١.

(3) هو يخامر بن عثمان بن يخامر الشعباني، من أهل جيان، تولى القضاء للأمير عبد الرحمن بن الحكم، ولم يك أهلاً له، ولا راجح الوزن، ولا حاضر اليقين، ولا واسع البصيرة، وعامل الناس بخلق صعب، ومذهب وعر، وصلابة جاوزت المقدار، انظر: ابن حيان. **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**، تح: محمود علي مكي، ص ٦٣-٦٤.

(4) ابن حيان، **المقتبس**، مكي،ص ٦٦-٦٧.

لم تكن علاقة الود والتقدير التي يتظاهر بها بعض الأمراء والحكام في بعض الأحيان تجاه الفقهاء إلا غطاءً لأشياء في نفوسهم، ولم يكن هذا بخاف على الفقهاء، فبعض الفقهاء كانوا يعرفون في قرارة أنفسهم الأسباب الحقيقة التي تجعل الأمراء يحتفون بهم كل هذا الاحتفاء، فالفقيه أبو إبراهيم التجيبي[1] الذي تخلف عن احتفال أقامه الناصر بمناسبة إعذار[2] لبعض ولد بنيه، فلما عوتب على ذلك وضح بصراحة سبب تخلفه بعبارات لا تخلو من الإطراء والإكبار، وفي الوقت نفسه يبين الهدف الذي يسعى إليه الحكام من وراء إجلال الفقهاء وتقديمهم في مثل هذه المناسبات فمنها إضفاء هيبة وزينة لمجلس الحاكم، والاستعانة بهم على إضفاء الشرعية على بعض تصرفاتهم فيقول مخاطباً الناصر: "ولم يكن توقيفي لنفسي، إنما كان لأمير المؤمنين سيدنا أبقاه الله ولسلطانه، لعلمي بمذهبه وسكوني إلى تقواه واقتفائه لأثر سلفه الطيب، فإنهم كانوا يستبقون من هذه الطبقة بقيةً لا يمتهنونها بما يشينها ويغضّ منها، ويتطرق إلى تنقصتها، يستعدون بها لدينهم، ويتزينون بها عند رعاياهم، ومن يعدو عليهم من قضاتهم ولهذا تخلفت"[3].

ويبدو هناك تناقض واضح في العلاقة، بين ما يظهره الحكم بن الناصر، وبين ما يبطنه للفقهاء، وخاصة تجاه التجيبي، فبينما يبدو ظاهر العلاقة وقد كساه الإجلال والإكبار والاحترام والتقدير، يكون الباطن مخالفاً تماماً إذ يكون فَرَحاً وسروراً وارتياحاً، إذا ما أصاب الفقيه مكروه، أو أدركته الوفاة، فقد وجّه الفقيه كتاباً إلى الحكم يشكره فيه على حياطة الدين والعمل بمقتضى أحكامه، ومما قاله الحكم في رده على كتاب الشكر: "لقد قلت لمن حضر في يوم السبت إثر خروجك: لن يزال هذا البلد بخير ما كان فيه مثل هذا الشيخ، أكثر الله فيه مثله، اعترافاً لله بالنعمة فيك وهذه بصيرتي فيك"[4].

ولكن في المقابل حينما خرج هذا الفقيه غازياً مع الحكم، وأكرمه الله بالشهادة، ووصل الخبر إلى سمع الحكم، لم يستطع إخفاء سروره وفرحه وارتياحه بهذا النبأ، وكأنه همّ عظيم جاثم على صدره وأزيح عنه، وعبر عن مكنونات قلبه بقوله: "الحمد لله الذي كفانا شرّه، وخلصنا منه"[5]

([1]) هو أبو إبراهيم إسحق بن إبراهيم بن مسرة التجيبي، كان معظماً عند الحكم بن الناصر، وكان إذا دخل عليه يمدّ رجليه أمامه، ويعتذر لشيخته، فيقول له الحكم: لا مؤونة عليك منا، أقعد كيفما شئت، توفي سنة ٣٥٤ مجاهداً، انظر : عياض. **ترتيب المدارك**، ج٤، ص ٤٢٤-٤٢٩.

([2]) الإعذار: طعام الختان.

([3]) عياض. **ترتيب المدارك**، ج٤، ص ٤٢٩.

([4]) عياض. **ترتيب المدارك** ص ٤٢٦.

([5])عياض. **ترتيب المدارك**، ص ٤٢٩

وحكي أن خبر موته ورد إلى الحكم وقد فتح الله عليه فقال: "لا أدري بأي الفرحتين أسرّ بأخذ الحصن أم بموت إسحق، لخوفه منه، وطوع العامة له"[١].

وسواء كان هذا الكلام صحيحاً، أم حمل حملاً على الحكم، فإنه يشير إلى العلاقات الحذرة التي كان يبديها الحكام تجاه الفقهاء، وحقيقة المشاعر التي يكنونها لهم.

ويؤكد المصالح الشخصية من وراء العلاقات المتميزة مع الفقهاء ما جاء على لسان الفقيه أبي غالب بن الفرج[٢]عندما عرض عليه القضاء مبيناً حقيقة هؤلاء الحكام الذين لا يعطون أحداً شيئاً إلا بالثمن الذي يريدون، فقال مخاطباً الرسول الذي جاءه بالتكليف: "لأنتم أشح على دنياكم وأضن بها من أن تعطوا منها لأحد شيئاً، أو تشركوا في شيء منها صديقاً."[٣]

وعندما اغتصب المنصور بن أبي عامر السلطة من هشام المؤيد وجعله لا يتعدى أن يكون رمزاً للسلطة، حاول المنصور التودد للفقهاء وكسب رضاهم كتعويض عن اغتصابه السلطة، ورغم الخلافات التي طفت على السطح بين الحين والآخر إلا أنها لم تصل إلى حد القطيعة والصدام كما حدث للحكم الربضي مع فقهاء عصره، كما حاول ابن أبي عامر أن يضيف إلى أعماله نوعاً من الشرعية المدعومة بفتوى الفقهاء الذين سايروه في بعض أعماله[٤].

ورغم المكانة التي حظي به الفقهاء عند المنصور، إلا أنه عمل على بناء علاقة متكافئة بينه وبين الفقهاء يمكن وصفها بأنها علاقة ود وانسجام، فلم يحاول تحجيم نفوذهم رغم سلطته المطلقة من جهة، ولم يفتح لهم أي نافذة للتدخل في شؤون الحكم من جهة أخرى[٥].

٢. علاقة الفقهاء بملوك الطوائف:

بعد أن انفرط عقد الدولة الأموية في الأندلس، وتقاسم تركتها ملوك الطوائف، اختلفت طبيعة الحياة العامة في الأندلس وتبعاً لذلك اختلفت طبيعة العلاقة بين الملوك والفقهاء، فملوك الطوائف ليسوا بعيدين عن الساحة الأندلسية، ويعلمون تمام العلم طبيعة حياتها السياسية والاجتماعية ، والدور الكبير الذي يقوم به الفقهاء والمكانة العالية التي يحظون بها عند العامة والخاصة، لذلك

---

[1]عياض. **ترتيب المدارك**، ص ٤٢٩

[2]هو أبو غالب عبدالرؤوف بن الفرج، سلك طريق التقشف والتنسك والتدين، عرض عليه الوزارة والقضاء، فتلقى الأمر بالضحك والدعابة ، ثم قال للوزير الذي نقل إليه الأمر" بالله لئن عاودتني بهذا الأمر، أو بلغني عن الأمير فيه عزيمة، لأخرجن من الأندلس.انظر: الخشني، **قضاة قرطبة**، ص ٣٧.

[3] الخشني. **قضاة قرطبة**، ص٣٧،

[4] انظر السامرائي. **تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس**، ص ٢٠٥.

([5]) انظر: السامرائي. **تاريخ العرب وحضارتهم** ، ص ٢٠٥.

سعى ملوك الطوائف في بداية تأسيس ممالكهم إلى التقرب من بعض الفقهاء "ممن رأوا فيهم قابلية لخدمة السلطة، وتحقيقاً لأهدافها التي تعبر عن مصالحهم الشخصية"[1] وتوثيق علاقاتهم بهم في محاولة الهدف منها الحصول على تأييد هؤلاء الفقهاء ومؤازرتهم في تثبيت أركانهم، فأجزلوا لهم العطاء، بل أشركوهم في شؤون الحكم لدعم نفوذهم.

فقد التقت مصالح ملوك الطوائف مع مصالح بعض الفقهاء، الذين اتخذوهم جسراً للوصول إلى تحقيق أهدافهم وطموحاتهم، ووسيلة لتبرير تصرفاتهم وسلوكهم، فنشأ بينهم علاقة تعاضد وتآزر، وتوافق، وانسجام في تبادل المصالح الدنيوية المشتركة، تاركين الناس يغرقون بما يفرض عليهم من الضرائب، وما يقع عليهم من جورٍ وتعدٍّ، وأصبحوا أكبر عضد لأمراء الطوائف في تبرير طغيانهم وظلمهم وتزكية تصرفاتهم، وابتزاز أموال الرعية، فقد كانوا " يأكلون على كل مائدة، ويتقلبون في خدمات كل قصر؛ ليحرزوا النفوذ والمال، ويضعوا خدماتهم الدينية والفقهية لتأكيد الظلم والجور، وخديعة الناس باسم الشرع"[2].

ومن أكثر الفقهاء الذين لاقوا الاحترام والتقدير من الملوك بلا استثناء الفقيه أبو الوليد الباجي، وما ذاك إلا للمكانة الكبيرة التي تمتع بها عند فئات الشعب عامة، فأراد هؤلاء الملوك استغلال هذه المكانة لصالحهم باستمالته إلى جانبهم، لكسب تأييد العامة لهم، فنشأ بين أبي الوليد وملوك الطوائف علاقات مميزة، كان لها تأثير كبير على نظرة الناس لأبي الوليد، وقد اعترف هو بذلك عندما قال: لولا السلطان لنقلني الذر من الظل إلى الشمس[3].

وبسبب هذه العلاقة القوية، ونتيجة للمشاحنات والمنازعات التي فشت في البلاد، والضغائن والأحقاد التي تمكنت من قلوب أهلها، وتنافر حكامها وانقسامهم قام هذا الفقيه بدور المصلح بين هؤلاء الملوك، وسعى جاهداً في توحيد كلمتهم، وتوجيه جهودهم نحو عدوهم المشترك نصارى الأندلس، ولكنه اصطدم بواقع مرير، وعقول متحجرة، وقلوب متنافرة، فلم يستطع تغيير هذا الواقع المزري، وذهبت جهوده سدى، وهذا ما عبر عنه ابن بسام في الذخيرة "فمشى بين ملوك أهل الجزيرة بصلة ما انبتَّ من تلك الأسباب، فقام مقام مؤمن آل فرعون، لو صادف أسماعاً واعية بل نفخ في عظام ناخرة، وعكف على أطلال داثرة"[4].

---

(1) عوض الله، رحاب صبري حسن. **دور الفقهاء في الحياة العامة في عصر الطوائف**، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٣، ص ٣١.

(2) عنان. **دول الطوائف**، ص ٤٢٠-٤٢١.

(3) المقري. **نفح الطيب**. ج٢، ص ٧٣.

(4) ابن بسام. **الذخيرة**. القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٩٥-٩٦.

ورغم أن هؤلاء الملوك كانوا يرحبون به ويقربونه، ويتهادونه فيما بينهم، ويعلـون منزلتـه ويجزلون له الهدايا والهبات، إلا أنهم كانوا ينكرون عليه فعله هذا، ويستثقلون ما يقوم به مـن دور للمصالحة، لأن تحقيق هذه المصالحة يقف عائقاً دون مصالحهم الشخصية، وأطماعهم الدنيوية، ولم يكن هذا بخاف على أبي الوليد، ولكنه كان يأمل أن ينجح في مسعاه هذا "فكان كلما وفد على ملـك منهم في ظاهر أمره، لقيه بالترحيب، وأجزل حفظه بالتأنس والتقريب، وهو في البـاطن يستجهل نزعته ويستثقل طلعته"(١).

كانت علاقة ملوك الطوائف بالفقهاء علاقات آنية ذات أهداف محددة، فكان أغلـب الملـوك يرجعون إلى فقهائهم في الأمور التي تحتاج إلى مؤازرة الدولة، وتحقيـق رغبـاتهم الذاتيـة فـي استقرار ممالكهم، وتبرير تصرفاتهم شرعياً بما يفتيهم فيه الفقهاء، فعبد الله بن بلكين حاكم غرناطة استشار الفقهاء في أمر الخارجين عن سلطانه، والساعين للفساد، حيث رأى الفقهاء وجوب قـتلهم، فعمل برأيهم(٢)، والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن، ماذا كان عبد الله بن بلكين فاعلاً لو أفتاه الفقهـاء بغير ذلك؟ أترى يأخذ برأيهم أم يضرب به عرض الحائط؟.

وكذلك استشار المعتمد بن عباد(٣) الفقهاء، واستفتاهم عن حكم ما فعلـه بـاليهودي رسـول الأذفونش، عندما ضربه بمحبرة كانت بين يديه، فأنزل دماغه في حلقه، وأمر به فصلب منكوسـاً بقرطبة، فتبرع الفقيه محمد بن الطلاع(٤) بالرخصة في ذلك، لتعدي الرسول حدود الرسالة، إلى ما استوجب به القتل، وقد علل الفقيه مبادرته بهذه الفتوى خوفاً من أن يتراجع المعتمد عما عزم عليه من الوقوف بوجه الأذفونش ومقاتلته(٥).

فماذا كان يتوقع ابن عباد من الفقهاء في أمر عظيم كالذي جاء به الأذفونش، بأن تلد زوجته في جامع المسلمين؟! وماذا يكون رد الفعل عنده لو أفتاه الفقيه، بعدم جواز قتل الرسول؟!.

---

(1)ابن بسام. **الذخيرة**. القسم الثاني، المجلد الأول ، ص ٩٦.

(2) ابن بلكين،. **التبيان**، ص ٩٨.

(3)هو أبو القاسم محمد بن عباد بن محمد المعروف بالمعتمد بالله ، كلن من الملوك الفضلاء، والشجعان العقلاء، والأجواد الأسخياء، وكان مخالفالأبيه في القهر والسفك والأخذ بالظنة،، وكان له في الأدب باع، ولم يك في ملوك الأندلس قبله أشعر منه ، خلعه يوسف بن تاشفين سنة ٤٨٤هـ. وتوفي في منفاه سنة ٤٨٨هـ انظر: ابن الأبار. **الحلة السيراء**، ج٢، ص ٥٢ـ٦٧.

(4) هو أبو عبدالله محمد بن فرج مولى محمد بن يحيى البكري، يعرف بابن الطلاع، من أهل قرطبة،بقية الشيوخ في وقته، وزعيم المفتين بحضرته، كان فقيهاً عالماً ، حافظاً للفقه على مذهب مالك وأصحابه، حازماً بالفتوى ، مقدماً في الشورى، توفي سنة ٤٩٧هـ . انظر: ابن بشكوال، **الصلة**، القسم الثاني، ترجمة رقم ١٢٣٩، ص٥٦٤.

(5) المقري. **نفح الطيب**، ج٤، ص٣٥٨.

لم يكن جميع الفقهاء قد انخرطوا في خدمة سياسات ملوك الطوائف، فهناك مجموعة منهم وقفوا موقف العداء السافر من الملوك من جهة، ومن الفقهاء الذين انضووا تحت أجنحتهم من جهة أخرى، فحملوهم المسؤولية التاريخية والدينية، لما وصلت إليه الأندلس، ويقف في طليعة هؤلاء، الفقيه ابن حزم الذي نعتهم بأبشع الصفات وقد كان لعدم رضى مثل هؤلاء الفقهاء، الدور الأكبر في انهيار نظام ملوك الطوائف وتداعي دويلاتهم، وفي حمل العامة على التنكر لملوكهم وتأييد المرابطين الشديدي التعصب للدين[1].

فابن حزم كان يمثل علاقة التنافر والتشاحن والصراع والعداء مع الملوك، فهاجمهم هجوماً عنيفاً واتهمهم بالمروق على الدين، وخيانة الإسلام بالتعاون مع أعداء الأمة في تحطيم عرى الإسلام، وانتهاك حرماته "وعمدة ذلك أن كل مدبر مدينة، أو حصن في شيء من بلادنا هذه، أولها عن آخرها، محارب لله تعالى ورسوله، وساعٍ في الأرض بفساد، والذي ترونه عياناً في شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية... ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين، مسلطون لليهود على قوارع طرق المسلمين، في أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام، معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرم الله، غرضهم فيها استدام نفاذ أمرهم ونهيهم"[2].

ويزداد عنف الهجوم على هؤلاء الملوك، الذين يسيرون في أي طريق يوصلهم إلى غاياتهم الدنيوية والمحافظة على عروشهم الهزيلة "والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى؛ فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم ورجالهم يحملونهم أسارى إلى بلادهم... وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعاً؛ فأخلوها من الإسلام، وعمروها بالنواقيس، لعن الله جميعهم، وسلط عليهم سيفاً من سيوفه"[3].

هذا الهجوم العنيف والنقد اللاذع، رافقه هجوم لا يقل عنه عنفاً على الفقهاء، الذين يشدون على أيديهم، ويباركون تصرفاتهم، وهو بهذا يحرض العامة على هاتين الشريحتين، ويفضح ممارساتهما المشينة في حق الدين وأهله، فالملوك والفقهاء كانوا يسيرون على خط واحد واتجاه واحد، الغاية منه هو المصلحة المشتركة بين الطرفين، "فهناك تآزر وتآلف وتبادل مصالح بين الفقهاء وملوك الطوائف في تأييد الظلم والفساد، والخروج على أحكام الدين"[4].

([1]) انظر، خالص، صلاح. **إشبيلية في القرن الخامس الهجري**، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥، ص٦٩.

([2])ابن حزم. **رسائل ابن حزم الأندلسي**، المجلد الثاني، الجزء الثالث، رسالة التلخيص لوجوه التخليص، تح: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ٢٠٠٧، ص ١٧٣.

([3])ابن حزم. **رسائل ابن حزم الأندلسي**، المجلد الثاني، الجزء الثالث، رسالة التلخيص لوجوه التخليص ، ص ١٧٦.

([4]) عنان. **دول الطوائف**، ، ص ٤٢١.

وصلت العلاقات بين ملوك الطوائف والفقهاء إلى نقطة اللاعودة، فقد يئس الفقهاء من صلاح ملوكهم، فقدموا إلى ابن تاشفين، ليعرضوا عليه مساوئ هؤلاء الملوك، حتى لا يبقى أي نوع من التردد عنده، في اجتياح الأندلس، وكان أكثر الفقهاء انتقاداً لهؤلاء الملوك الفقيه ابن القليعي، الذي وصلت علاقته مع سلطانه عبد الله بن بلكين، درجة الانتقام الصريح، فعندما اختاره ابن بلكين ليكون رسوله إلى يوسف بن تاشفين وجدها فرصة لينتقم منه، في صنيع جدّ ابن بلكين به، عندما منعه من دخول قرطبة، وهو ما عبر عنه ابن بلكين بقوله "ووسم لي بسمة الخير والقدرة على الكلام، وأنه لا أحد يقدر على استمالة المرابطين على ما هو عليه، فوجهته رسولاً، وهو في ذلك يعمل لنفسه، ويسعى في هلاكي في الباطن وينفث بذلك على ما صح عندي، ويقول: والله لأبلغن حفيد ابن باديس الطينة السوداء ولأشوقه إلى درهم ينفقه، وذلك على ما صنع جدّه بي، وبغيري"[١].

نخلص من هذا إلى أن علاقة ملوك الطوائف بالفقهاء لا تعدوا أن تكون علاقة مصلحة تمليها الظروف والأحداث الجارية، الهدف منها تمكين هؤلاء الملوك من السيطرة على إدارة البلاد بالطريقة التي يريدون، مشفوعة بسند شرعي من بعض الفقهاء الذين سايروا ركاب السلطة، وقاموا بخدمتها.

٣.علاقة الفقهاء بالمرابطين:

احتل الفقهاء مكانة رفيعة في المجتمع المرابطي، فكانت العلاقة بين الحكام والفقهاء علاقة تكريم وتقدير واحترام، من قبل أمراء المسلمين، فكان يوسف بن تاشفين"يواصل الفقهاء، ويعظم العلماء، ويصرف الأمور إليهم، ويأخذ فيها بآرائهم، ويقضي على نفسه وغيرهم بفتياهم"[٢].

ولشدة الإكبار والتعظيم الذي يكنّه أمراء المرابطين للفقهاء، أنهم كانوا يطلبون من ولاتهم الاحتفاء والعناية بهم لما لهم من مكانة عند أمير المسلمين تستوجب أن يلاقوا بالترحيب والإكرام، فمن رسالة بعثها أمير المسلمين علي بن يوسف إلى قاضي الجماعة ابن حمدين، يأمره فيها بالاعتناء بعياض القاضي[٣]: "وفلان أعزه الله بتقواه، وأعانه على ما نواه، ممن له في العلم حظ وافر، ووجه سافر، وقصد تلك الحضرة ليقيم أود متونها، ويعاني رمد عيونها، وله إلينا مِتّةٌ مرعية، أوجبت الإشادة بذكره، والاعتناء بأمره، وله عندنا مكانة حفية تقتضي مخاطبتك

---

(١) ابن بلكين. **التبيان**، ص ١٤٨.

(٢) ابن الخطيب. **الإحاطة في أخبار غرناطة**، ج٤، ص ٣٤٩.

(٣)هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، من أهل سبتة، أحد عظماء المالكية، قدم إلى الأندلس طالباً للعلم، وهو من أهل اليقين في العلم، والذكاء، واليقظة والفهم، توفي سنة٥٤٤هـ. انظر : النباهي، **تاريخ قضاة الأندلس**، ص ١٠١.

بخبره وإنهاضك إلى قضاء وطره، وأنت إن شاء الله تسدد عمله، وتقرب أمله، وتصل أسباب العون له"(١).

ورغم إيثار يوسف بن تاشفين الفقهاء وتقديمهم، إلا أنه كان في بعض الأحيان يأخذ الحيطة والحذر منهم لشدة تكالبهم على ملوكهم، وسعيهم عنده وإلحاحهم بالقضاء عليهم، وموقف الحذر والريبة هذا اتخذه من الفقيه عيسى بن سهل(٢) الذي تقرب منه، وأشعره أنه ليس في البلد (الأندلس) من يعارض خطوة ابن تاشفين في خلعه لملوك الطوائف، وأنه يحظى بتأييد العامة والفقهاء راجياً أن يكون عنده في أعلى مرتبة(٣)، وقد قال يوسف بن تاشفين في مثل هؤلاء الفقهاء: "ما نصحوا مولاهم ربّ الإحسان عليهم، فكيف يكون حالهم مع غيره"(٤)، لذلك أُخّر ابن سهل عن القضاء ولم يولَّ.

في أواخر أيام دولة المرابطين ساءت العلاقات بين الفقهاء وأمراء السلطة بشكل متسارع، وغير متوقع فالحليفان اللذان تشاركا في الحكم، وبسط النفوذ والسيطرة، اختلت العلاقة بينهما، ووصلت إلى طريق الصدام المسلح، فعندما رأى الفقهاء أن شوكة الموحدين في المغرب قد قويت، وحركة المريدين في الأندلس بدأت تستقطب الناس، وأن دولة المرابطين بالنتيجة في طريقها إلى الزوال، سارع فقهاء الأندلس الذين كانوا يشغلون منصب القضاء للمرابطين في اغتنام الفرصة والانقلاب عليهم، والاستقلال بالأقاليم الّتي كانوا يتولون قضاءها، للحفاظ على مكانتهم ومكتسباتهم وامتيازاتهم، وبما يحقق مصالحهم الشخصية البحتة(٥)،فابن حمدين(٦)، الذي كان ذا حظوة عظيمة عند علي بن يوسف، انقلب على الدولة المرابطية عام ٥٣٩هـ، واستقل بقرطبة وسكن قصر الخلافة، وتسمى بأمير المؤمنين وناصر الدين(٧)، وفي مالقة دعا أبو الحكم

---

(1) ابن خاقان. **قلائد العقيان، ومحاسن الأعيان،** المجلد الأول، ص ٣٢٨.

(2) هو أبو الأصبغ عيسى بن سهل، كان من جلة الفقهاء، وكبار العلماء، حافظاً للرأي، بصيراً بالأحكام، توفي عام ٤٨٦، انظر: النباهي. **تاريخ قضاة الأندلس،** ص ٩٧.

(3) النباهي. **تاريخ قضاة الأندلس،** ص ٩٧.

(4).النباهي. **تاريخ قضاة الأندلس،** ص ٩٧.

(5) انظر، دندش. **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين،** ص ٨٤، وما بعدها.

(6) هو حمدين بن محمد بن حمدين التغلبي، تولى القضاء بعد مقتل ابن الحاج عام ٥٢٩هـ، ثم صرف عنها، وأعيد إليها ثانية، وهو الذي استطاع ردع العامة عندما ثاروا بقرطبة لضعف القاضي ابن رشد، توفي سنة ٥٤٦، انظر: النباهي. **تاريخ قضاة الأندلس،** ص ١٠٣.

(7)النباهي. **تاريخ قضاة الأندلس** ، ص ٢٣١.

بن حسون[1] لنفسه، واتخذها مقراً لإقامته، واستبد بالأمر، وتسمى بالأمير، واحتفظ بالقضاء فيها إلى جانب الإمارة [2]،وتولى الفقيه القاضي مروان بن عبد العزيز، حكم بلنسية، عام ٥٣٩هـ، بعد أن ساهم في توتر العلاقات بين الأندلسيين، وولاتهم من المرابطين، ولكنه لم يكن في مستوى المسؤولية الّتي استولى عليها، فكرهته رعيته بعد أن ضاقت بكثرة مطالبه، وفشله في تقديم المال لما تتطلبه المصالح العامة، فقام عليه أهل مرسيه وخلعوه[3]،واستقل ابن أضحى[4] بغرناطة بعد أن دعا لابن حمدين، وحارب المرابطين إلى جانب القضاة الثائرين، رغم أنه كان أبيّ النفس عالي الهمة فقيهاً يناظر عليه وصاحب بديهة، وهكذا انتشرت الثورة انتشاراً سريعاً في مختلف مدن الأندلس، ولم يعد بإمكان المرابطين إخضاع هؤلاء الثائرين، في الوقت الذي بدأ الموحدون يزحفون نحو الأندلس للاستيلاء عليها.

إن هذه الثورات الّتي تزعمها فقهاء المرابطين وقضاتهم، والذين كانوا يتمتعون بنفوذ واسع، ومكانة عظيمة في عيون أمراء المرابطين، لم يكن لها أي مبرر مقنع يستوجب القيام على دولة تحكم باسم الإسلام والدين، وإقامة العدل، ذلك العدل الذي كان ينشده الفقهاء عندما قاموا باستدعاء المرابطين للقضاء على ملوك الطوائف، فالسبب الرئيسي والمباشر هو أن هؤلاء الفقهاء الذين تمتعوا بامتيازات كثيرة وكبيرة جعلت منهم أصحاب جاه عريض، ومكانة سامية، وأصحاب ثروة، رأوا بأنفسهم أهليةً للقيام بأمور المسلمين وقيادتهم بمعزل عن السلطة المرابطية، وذلك للمحافظة على هذه الامتيازات الّتي حققوها، ومن هنا قاموا على الدولة الإسلامية، التي منحوها الشرعية سابقاً، للتخلص من ملوك الطوائف ليشكلوا هم دول طوائف جديدة، لا تختلف من حيث مبدأ المصلحة الشخصية عن سابقتها.

ثانياً: أضواء على علاقة الفقهاء مع بعضهم .

على الرغم من أن الفقهاء ينتمون إلى شريحة واحدة ذات مصالح واحدة، وطموحات مشتركة، يحتم عليهم الدفاع عنها والوقوف معاً بوجه من يحاول التصدي لهم، والانتقاص من

---

(1) هو الحسين بن الحسين بن عبد اله بن الحسين الكلبي بن حسون، اشتهر بكنيته، نشأ في الوجاهة والنباهة، وعلو المكانة، وطلب العلم، حاول قتل بناته عندما حاصره أهل مالطة، وأحرق كتبه، ثم انتحر وكان ذلك عام ٥٤٨هـ ، انظر: ابن الخطيب. **أعمال الأعلام**، ج٢، ص ٢٣١.

(2) انظر: دندش. **الأندلس في نهاية المرابطين** ، ص ٨٨-٨٩.

(3)انظر: دندش. **الأندلس في نهاية المرابطين** ، ص ٨٨-٨٩.

(4) هو علي بن عمر بن مشرف بن أضحى، تولى قضاء المرية، وقد مات مسموماً بكأس كان قد قدمه لأحمد بن هود يريد الخلاص منه، وبعد أن اكتشف أمره، شرب من الكأس نفسه ليبرئ نفسه فمات سنة ٥٤٠هـ، انظر ابن الابار: **الحلة السيراء** ، ج٢، ص ٢١٤.

شأنهم، وأنهم مطالبون بالترفع عن الصغائر وسفاسف الأمور، وما يجرح مكانتهم عند الآخرين، إلا أن المتتبع لأخبارهم يجد أن العلاقات القائمة بينهم ليست صافية دائماً، بل يشوب هذه العلاقات الحسد والحقد، والغيرة، ومحاولة التسلق على ظهور بعضهم للوصول إلى أهدافهم وما يطمحون إليه، والانتقاص من أقدارهم عند الناس، وعند الحكام.

واللافت أن هذه الصفات وهذه العلاقات لم يترفع عنها حتى بعض البارزين من الفقهاء والمشهود لهم بالصلاح، فالفقيه يحيى بن معمر الألهاني[١]، "كان فقهاء قرطبة يحقدون عليه ويذمونه، ويتتبعون عثراته، ويبغضونه إلى الناس، وكان أشدهم عليه، زعيم الجماعة يحيى بن يحيى الليثي، فهو الذي سعى في تجريحه إلى أن عزل عن القضاء"[٢].

وكان يحيى بن يحيى وأصحابه الفقهاء، يحسدون عبد الملك بن حبيب، لتقدمه عليهم بعلوم لم يكونوا يعلمونها، ولا يشرعون فيها، إذ كان مع تقدمه في الفقه والحديث، عالماً بالإعراب واللغة مفتّناً في العلوم القديمة، متصرفاً في الآداب الناصعة، له تواليف جمّة في أكثر هذه الفنون، منها كتابه في إعراب القرآن وفي شرح الحديث وفي الأنساب، وفي النجوم وغيرها"[٣].

وكان فقهاء قرطبة المتعصبين لمذهب الإمام مالك، قد وقفوا في وجه الفقيه بقيّ بن مخلد عندما جاء من المشرق إلى الأندلس حاملاً معه العلم الواسع، والروايات العالية، والاختلافات الفقهية، فحسدوه على علمه الغزير، ووضعوا فيه الأقاويل والقدح القبيح عند الأمير محمد بن عبد الرحمن، بل وصفوه بالزندقة والإلحاد، ونادوا بسفك دمه والتقرب إلى الله في ذلك[٤].

وتكالب الفقهاء أيضاً على الفقيه الزاهد أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الخشني، فرموه بالنكوب عن السنة، والركون للبدعة، وتمالأ عليه الفقهاء حتى أصابه الضرّ وسجن، ولكن الأمير محمداً تبين له بمعرفته هؤلاء الفقهاء، أنه عكس ما يدّعون، فأطلق سراحه وأكرمه[٥]،ويبدو أن السبب لهذا الحسد والغيرة، هو قصور الفقهاء عن اللحاق بمثل هؤلاء الفقهاء الأفذاذ في علمهم ومكانتهم بين الناس.

---

(1) هو يحيى بن معمر بن منير بن أنيف الألهاني، من العرب الشاميين، كان فقيه إشبيلية، فقد استقدمه الأمير عبد الرحمن بن الحكم، وقلده قضاء قرطبة، فأصبح من أفضل القضاة سيرة، وعدلاً ومكانةً، انظر: ابن حيان. **المقتبس**، مكي، ص ٥٤.

(2)ابن حيان. **المقتبس**، مكي، ص ٥٤.

(3)ابن حيان، المقتبس، مكي ، ص ٤٨.

(4)ابن حيان، **المقتبس** ، مكي، ص ٢٤٨.

(5)ابن حيان، **المقتبس**، مكي، ص ٢٥٢.

"وكان بين الفقيه الأصيلي، والفقيه ابن زرب[1] وأصحابه مشاحنة، أثارتها النفاسة، وعلو كعب الأصيلي في العلم وإزراؤه عليهم"[2]، وكان ابن زرب قد عرّض بهذا الفقيه، فساءه ذلك، فما كان منه إلاّ أن أنشد شعراً يعرض بابن زرب وزمرته، ويفتخر بنفسه، فقال[3]: وهو من الطويل:

لَبِستُم ثِيَابَ الخَزِّ لَمَّا كَفَيْتُمُ ... وَمَنْ قَبْلُ لا تَدْرُونَ مَنْ فَتَحَ القُرَى

وُقُوفَاً بِأَطْرَافِ الفِجَاجِ وَخَيْلُنَا ... تُسَاقِي كُؤُوسَ المَوْتِ يَدْعُو بِالقَنَا

فَلَمَّا أَكَلْتُمْ قَتْلَنَا بِسِلاحِنَا ... تَحَدَّثَ مَكْفِيٌّ يَعِيبُ الذِي كَفَى

بلغت شدة الاختلافات وتبادل الاتهامات بين الفقيه ابن حزم وفقهاء عصره ذروتها، فالفقهاء المالكيون يحاربون كل فكر جديد يخالف فكرهم، ويحاول أن يسحب البساط من تحت أقدامهم، فجاء ابن حزم ليعرّي هؤلاء الفقهاء الجامدين عند حدود الفروع ، ووقف لهم بالمرصاد، وحاول فضح ممارساتهم المنحرفة في مداهنة الملوك والحكام، ليرضوا عنهم، فوصفهم بأبشع الصفات، فهم فسّاق خرجوا عن نطاق الدين، وليس لهم من الدين إلا الانتساب إليه بالاسم، فهم الذين يجرون أمام الملوك الظلمة، يزينون أعمالهم، ويطلقون الفتاوي الّتي تبيح لهم فعل كل قبيح، كل ذلك من أجل مصالحهم الدنيوية، فيقول واصفاً لهم بكلمات قاسية: "فلا تغالطوا أنفسكم، ولا يغرنكم الفساق المنتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزينون لأهل الشر شرهم، الناصرون لهم على فسقهم"[4].

ونتيجة لذلك فقد استهدفه فقهاء عصره، وتمالأوا على بغضه، وردوا قوله، وأجمعوا على تضليله وشنعوا عليه، وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم عن الدنو إليه والأخذ عنه"[5].

ولأن كتبه كانت خطراً عليهم وعلى ملوكهم، فقد سعوا إلى المعتضد بن عباد، وأقنعوه بضرورة إحراقها، فامتثل لقولهم، وقام بإحراق ما وقعت عليه يده، وعندما رأى ثمرة علمه

---

(1) هو محمد بن يبقى بن زرب،أحد صدور الفقهاء في زمانه بالأندلس ، كان له حظ كبير من علم الإعراب والفقه، يجمع إلى ذلك العبادة، وسعة العلم، والاجتهاد، والورع، وكان حليماً صبوراً ، سهل الخلق، لا تأخذه في الله لومة لائم، توفي سنة ٣٨١هـ. انظر: النباهي، **تاريخ قضاة الأندلس**، ص ٧٧ـ٨٢.

(2)عياض. **ترتيب المدارك**، المجلد الثاني،ص ٦٤٦.

(3) عياض. **ترتيب المدارك**، ص ٦٤٧.

(4)ابن حزم، **رسائل ابن حزم الأندلسي**، ج٣، رسالة التوقيف على شارع النجاة، ص ١٧٣.

(5)ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الأول، المجلد الأول، ص ١٦٨.

تحرق أمام عينيه عبر عن سخريته من هؤلاء الفقهاء الذين لا علم عندهم، طالباً منهم أن يتعلموا ما في كتبه من علم، بدلاً من السعي إلى تدميرها وحرقها، فيقول[1]: وهو من الطويل:

فَإنْ تَحْرِقُوا القِرْطَاسَ لا تَحْرِقُوا الذي تَضَمَّنَهُ القِرْطَاسُ بَلْ هُوَ فِي صَدْرِي

يَسِيرُ مَعِي حَيْثُ اسْتَقَلَّتْ رَكَائِبِي وَيَنْزِلُ إنْ أَنْزِلْ وَيُدْفَنُ فِي قَبْرِي

دَعُونِيَ مِنْ إحْرَاقِ رَقٍّ وَكَاغِدٍ وَقُولُوا بِعِلْمٍ كَي يَرَى النَّاسُ مَنْ يَدْرِي

وَإلا فَعُودُوا فِي المَكَاتِبِ بَدْأَةً فَكَمْ دُونَ مَا تَبْغُونَ للهِ مِنْ سَتْرِ

وقد أخذ ابن حزم على هؤلاء الفقهاء تمسكهم بعلم الفروع، وتركهم أصول الدين الذي منه تستنبط الأحكام، ووصفهم بالجهل والتخلّف فيقول فيهم[2]: وهو من مجزوء البسيط.

مَنْ ظَلَّ يَبْغِي فُرُوعَ عِلْمِ بَدْءاً وَلَمْ يَدْرِ مِنْهُ أَصْلاً

فَكُلَّمَا ازْدَادَ فِيهِ سَعْيَاً زَادَ لَعَمْرِي بِذَاكَ جَهْلاً

ومما يدل على المماحكات الّتي كانت بين الفقهاء تلك المناظرات الّتي كانت تجري بين أبي الوليد الباجي وابن حزم، تلك المناظرات الّتي تعد من الوسائل الّتي وقف بها الفقهاء في وجه ابن حزم، واستعدوا بها الناس عليه، من أجل التقليل من شأنه، وقيمة المذهب الذي يدعو إليه، وفي محاولة منهم لإبعاد الناس عنه، وتهميشه، وعلى الرغم من قيام هذه المناظرات بينهم، وانتهائها بتفوق الباجي وجيش الفقهاء في كثير منها، وتسببت بإحراق كتب ابن حزم ،وهجوم ابن حزم العنيف على الفقهاء، ومنهم الباجي، إلاّ أن ابن حزم كان يقدره ويحترمه، ويعترف بفضله وعلمه، ولم ينسب التقصير إليه، بل أنصفه بعلمه عندما جعله على رأس أصحاب المذهب المالكي وفي هذا يقول: "لم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد عبد الوهاب[3] مثل أبي الوليد الباجي"[4].

(1)ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الأول، المجلد الأول، ص ١٧١.

(2)ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الأول، المجلد الأول، ص ١٧١.

(3) هو عبد الوهاب بن نصر بن أحمد بن الحسين الهنداوي، من أعلام العلماء، وصدور القضاة الرواة، سما قدره، وشاع في الآفاق ذكره عندما ولي القضاء، توفي بمصر سنة ٤٢٢، انظر: النباهي. **تاريخ قضاة الأندلس**، ص ٤٠-٤٣.

(4)ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الثاني، المجلد الأول، ص ٩٦.

وعندما قام الفقيه ابن تومرت[١] على المرابطين، وقف الفقهاء في وجهه، ولكنهم لم يجاروه في علمه ومنطقه، فتصدى له الفقيه الوزير مالك ابن وهيب[٢]، واستطاع بفراسته وعلمه الواسع أن يسبر أغوار ابن تومرت، ويكشف لعلي بن يوسف الهدف الحقيقي لحركته، والخطر الكبير الذي يمكن أن تتعرض له دولة المرابطين على يديه، فأشار ابن وهيب الفقيه بقتل فقيه الموحدين أو بسجنه على الأقل، وقال مخاطباً علي بن يوسف: "هذا رجل مفسد، لا تؤمن غائلته، ولا يسمع كلامه أحدٌ إلا مال إليه، وإن وقع هذا في بلاد المصامدة، ثار علينا منه شر كبير"[٣].

ولمكانة هذا الفقيه وعلو كعبه، وحظوته عند أمير المسلمين علي بن يوسف، ولتأثيره الشديد على قراراته؛ بدأت الغيرة والحسد تدبان في قلوب مبغضيه من الفقهاء وغيرهم، ووصفوه بأنه العيب الوحيد في دولة علي بن يوسف، وبأنه سهم من سهام الشيطان، رميت به هذه الدولة أملاً في إغراء أمير المسلمين بإقصائه وإبعاده، ويقول أحدهم في ذلك[٤]: وهو من الخفيف:

دَوْلَــةٌ لابْــنِ تَاشِــفِين عَلِــيِّ ... ظَهَــرَتْ بِالكَمَــالِ مِــنْ كُــلِّ عَيْــبِ

غَيْــرَ أَنَّ الــشَّيْطَانَ دَسَّ عَلَيْهَــا ... مِــنْ خَبَايَــاهُ، مَالِــكَ بْــنَ وُهَيْــبِ

كان الفقهاء بشكل عام وفي كل العصور، هم الذين يصنعون أعداءهم ، بالوقوف بوجه كل من يأتي بفكر جديد، فلما قامت حركة المريدين الصوفية، نشب خلاف شديد بين هؤلاء الفقهاء والفقيه الزاهد الصوفي ابن العريف[٥] والذي أثار هذا الخلاف أفكاره وآراؤه الصوفية، الّتي أنكرها الفقهاء، فأغروا به أمير المسلمين علي بن يوسف، وحذروه من جانب هذا الفقيه وآرائه،

---

(١) هو الفقيه محمد بن تومرت، بربري الأصل، انتحل صفة المهدي والإمام المنتظر، ونسب نفسه إلى آل البيت، وكانت أساس دعوته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قاد الثورة الّتي انتهت بالقضاء على المرابطين فيما بعد، توفي سنة ٥٢٤هـ، انظر : **عنان. عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس**، ص ١٥٦، ١٩٩.

(٢) هو مالك بن يحيى بن وهيب الأسدي، من أهل إشبيلية، يكنى أبا عبدالله ، أحد رجال الكمال بمعرفة العلوم على تفاريعها وأنواعها ن إلا أنه كان أضن الناس بها . انظر: ابن بشكوال. **كتاب الصلة**، القسم الثاني، ترجمة رقم ١٣٦٥ ، ص٦٢١.

(٣) المراكشي. **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، ص ٢٧٢.

(٤) المقري. **نفح الطيب**، ج٣، ص ٤٧٩.

(٥) هو أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي أبو العباس المعروف بابن العريف، تعلم القرآن وتعلق بالكتب، تصدر الإقراء بسرقسطة، وولي الحسبة ببلنسية، توفي عام ٥٣٦، انظر ترجمته. ابن الأبار، محمد بن عبد الله القضاعي، **المعجم في أصحاب القاضي، الإمام أبي علي الصدفي**، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧، ترجمة رقم ١٤، ص ١٥-١٩.

فكان ابن العريف يطلق على هؤلاء الفقهاء، "علماء أهل السوء، وكبراء أهل الدنيا المغرورين"[1].

نخلص من هذا إلى أن العلاقات القائمة بين الفقهاء أنفسهم لم تكن علاقات ود واحترام وتآلف كما يجب، بل كان الحسد والغيرة والتآمر تحكم كثيراً من هذه العلاقات، لذلك لا نستغرب أن يشن الشعراء هجوماً حاداً عليهم ، ليكشفوا الوجه الآخر الذي يتسترون خلفه.

ثالثاً:أضواء على علاقة الفقهاء بأفراد المجتمع:

الفقهاء في كل عصر وفي كل حين هم ضمير الأمة الحيّ، وهم مشاعل الأمل الّتي تنير للأمة طريق صلاحها وهدايتها، ومن هنا كان فقهاء الأندلس على مر عصورها – وبشكل عام – على علاقة طيبة مع جميع شرائح المجتمع، ولهم مكانة رفيعة بين أفراد هذه الشرائح، ولهم في قلوب الناس محبة عظيمة ومكانة كبرى،

نظر عامة الناس إلى الفقهاء نظرة احترام وتقدير، على أساس أنهم القائمون على أمور الشريعة وتطبيقاتها، ومن هذه النظرة فقد سمت فئة الفقهاء في نظر العامة والخاصة، علاوة على ما اتصف به الفقهاء من صفات مثالية، جعلت قلوب العامة تميل إليهم وتجعلهم في المقام الأسمى بين الآخرين، فالفقيه حماد بن عمّار الزاهد[2]، "كان الناس يقصدون إليه، ويستنفرونه الدعاء، ويتبركون بلقائه ورؤيته"[3]، أما الفقيه محمد بن أحمد بن رشد فقد كان الناس يلجؤون إليه،ويعولون في مهماتهم عليه، وكان حسن الخلق معهم سهل اللقاء، كثير النفع لخاصته وأصحابه جميل العشرة لهم، حافظاً لعهدهم"[4].

ولشدة العلاقة والمودة، الّتي كانت تربط الفقهاء بعامة الناس، تلك الحفاوة الّتي يبديها الناس للفقهاء، إذا ما عرضوا لهم، يتبدى هذا فيما رواه الشيخ العلامة، أبو زيد عبد الرحمن الغرناطي "لما ورد علينا القاضي عياض غرناطة، خرج الناس للقائه، وبرزوا تبريزاً ما رأيت للأمير مثله، وحزرت أعيان البلد الذين خرجوا إليه ركاباً نيفاً على مئتي راكب، ومن سواد

---

(1) دندش. **الأندلس في نهاية المرابطين وبداية الموحدين**، ص ٦٧-٦٨.

(2) هو حماد بن عمار بن هاشم الزاهد، من أهل قرطبة، دعاه علي بن حمود إلى قضاء قرطبة، فصرف رسول علي على عقبيه وانتهره، ولم يعرض له عليّ بعد ذلك، توفي سنة ٤٣١هـ، انظر: ابن بشكوال. **الصلة**، ج١، ص ١٥٦.

(3) **ابن بشكوال. الصلة، القسم الأول، ص ١٥٦.**

(4)ابن بشكوال. **الصلة**، القسم الأول،ج٢، ص ٥٧٦-٥٧٧.

العامة ما لا يحصى كثرةً، وخرجت مع أبي رحمه الله في جملة من خرج، فلقينا شخصاً بـادي السيادة، منبئاً عن اكتساب المعاني والإفادة"(١).

وكان الفقهاء هم الملجأ الذي يلتجئ إليه عامة الناس إذا حزبهم شيء أو أشكل عليهم أمر، "فكانت الناس تلوذ بالفقهاء، وتلتمس معونتهم وتأييدهم، وتتوسل إليهم أن يشفعوا لها عنـد أميـر المرابطين"(٢)، الذي كان لا يرد لهم مطلباً، ويستشفع بهم.

ورغم العداوة البغيضة الّتي كان يكنها الفقهاء لابن حزم، إلا أنه كان على علاقة متينة مع عامة الناس وخاصتهم، وتربطه علاقة مودة وصداقة مع الأدباء والكتاب وغيرهم، فحكـي أنـه قصد أبا عامر بن شهيد في يوم غزير المطر والوحل، شديد الريح فلقيه أبـو عـامر، وأعظـم قصده على تلك الحال، وقال له: يا سيدي، مثلك يقصدني مثل هذا اليوم؟! فأنشده أبو محمد بـن حزم(٣): وهو من الطويل:

فَلَـو كَانَـتْ الـدُّنيَا دُوَينَـكَ لُجَّـةً وَفِـي الجَـوِّ صَـعْقٌ دَائِـمٌ وَحَرِيـقُ

لَـسَهّلَ وُدّي فِيـكَ نَحْـوَكَ مَـسْلَكاً وَلَـمْ يَتَعَـذَّرْ لِـي إلَيْـكَ طَرِيـقُ

وقد أدت المكانة العالية الّتي منحها المرابطون للفقهاء، والاحترام الكبير الذي حظـوا بـه من قبل عامة الناس، أن أصبح هؤلاء ذوي جاه عريض، ومال جزيل في معظمهم "فانـصرفت وجوه الناس إليهم فكثرت أموالهم، واتسعت مكاسبهم"(٤)، والتف الناس حولهم متزلفين، متقربين، وقصدهم أصحاب الحاجات يلتمسون الوساطة والشفاعة(٥).

ولما كان الفقهاء هم اللسان الناطق باسم عامة الناس، والمدافع عن حقوقهم إذا ما تعرضوا للجور والظلم، فإن الناس يحفظون لهم هذا الجميل، فأي انتقاص من مكانة الفقيه، أو النيل منـه، يعد من وجهة نظرهم كارثة تستحق التضحية بكل شيء، فقد شـاعت شـائعة بـأن الموحـدين يعتزمون قتل الفقيه، القاضي عياض اليحصبي، وكان هذا محل إجلال وتقدير واحترام، إذ كـان لهم الفقيه والإمام، والعالم والزعيم الروحي، لذا ثاروا على الموحـدين، وقتلـوا مـنهم مقتلـه عظيمة(٦).

---

(١) المقري، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني. **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**، صندوق إحيـاء التـراث الإسلامي المشترك بين السعودية والإمارات، ١٩٧٨، ج٣، ص ١١.

(٢) محمود، حسن أحمد. **قيام دولة المرابطين**، ص ٣٠١.

(٣) المقري. **نفح الطيب**، ج٢، ص ٨٣.

(٤) المراكشي. **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، ص ٢٥٣.

(٥) محمود، حسن أحمد. **قيام دولة المرابطين**، ص ٣٧٢.

(٦) انظر دندش، **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين**، ص ١٠٨.

ومما يدلل على عمق العلاقة الّتي تربط الفقهاء بعامة الناس وخاصتهم، الطريقة الّتي استقبل بها النّحويّ أبو بكر الزبيدي[١] الفقيه محمد بن يبقى زرب، والتذلل الذي عبّر عنه هذا النّحويّ لذلك الفقيه، فقد وقف الفقيه بباب أبي بكر الزبيدي، فلما استأذن، بادر بالخروج إليه حافياً، مكشوف الرأس، كما كان يجلس في بيته فوقف بين يديه قائماً على قدميه، إجلالاً له وأبلغ في شكره على تعمّد، فوافاه ابن زرب حق تكرمته إياه، وسأله الجلوس، فأبى عليه، وأنشده متمثلاً[٢]: وهو من الطويل:

أَقُومُ وَمَا بِي أَنْ أَقُومَ مَذِلَّةٌ ... عَلَيَّ فَإِنِّي لِلْكِرَامِ مُذَلَّلُ
عَلَى أَنَّهَا مِنِّي لِغَيْرِكَ هُجْنَةٌ ... وَلَكِنَّهَا بِينِي وَبَيْنَكَ تُجمَلُ

كانت العامة تبجل الفقيه ابن مرتيل[٣]، فكان إذا جلس في مجلس العلم حفّ به الناس، كأن على رؤوسهم الطير من الإجلال والتعظيم[٤]، وهذا لم يكن يعجب الوزير هاشم بن عبد العزيز[٥]، الذي كان بينه وبين الفقيه إحن ومشاحنات، لأن الفقيه لم يكن يعير هاشماً أي اهتمام، لذلك وصف هاشم الفقيه بعد مشادة كلامية بينهما بقوله: "لقد عرفتك شرس ابن أشرس، فقال له عبد الله: هكذا أنا وأبي إذا كسانا الله قميصاً أعراك الله منه أنت وأباك"[٦].

ليست هذه هي النظرة الوحيدة للناس تجاه الفقهاء، فالأمر لا يخلو من نظرة غيرة وحسد، وبغض وحقد عند بعض الناس الذين لم يعجبهم ما وصل إليه الفقهاء من مكانة، بل كانت نظرة الناس إلى الفقيه الواحد متذبذبة ومتغيرة بتغير الظروف والأحوال والمناسبات، فالفقيه محمد بن يبقى بن زرب كان معظماً عند العامة والخاصة، وينظرون إليه نظرة إجلال واحترام وتقدير، ولكن هذه النظرة انقلبت إلى ذم وطعن وسباب، بعد أن صلى بهم صلاة الاستسقاء ولم تنزل الرحمة "فلهجت العامة بذمّه

---

(1) هو أبو بكر بن الحسن الزبيدي الإشبيلي، من أهل العلم، كان بارعاً في النحو واللغة، وله مؤلفات كثيرة عمل مؤدباً للخليفة هشام المؤيد، توفي سنة ٣٧٩هـ، انظر ابن خاقان.**مطمح الأنفس**، ١٩٨٣، ص ٢٧٦.

(2) النباهي. **تاريخ قضاة الأندلس**، ص ٧٨.

(3) هو عبد الله بن محمد بن خالد بن مرتيل، من أهل العلم والصلاح، قال عنه ابن عبد البر: كان رأس المالكية في الأندلس، والقائم بها، والذاب عنها، توفي سنة ٢٥٦هـ، انظر. **ترتيب المدارك**، مجلد ، ص ١٣٤-١٣٩.

(4) عياض. **ترتيب المدارك**، مجلد ٢، ص ١٣٤.

(5) هو هاشم بن عبدالعزيز... مولى عثمان بن عفان، كان الأمير محمد بن عبدالرحمن يؤثره بالوزارة، ويرشحه للقيادة والإمارة، اجتمعت فيه خصال لم تجتمع في سواه من أهل زمانه،إلى ما كان عليه من البأس والجود والبيان والبلاغة، قتله المنذر بم محمد بن عبدالرحمن لأشياء حقدها عليه في خلافة أبيه سنة ٢٧٣. انظر: ابن الأبار ، **الحلة السيراء**، ج١، ص١٣٧ـــ١٤٢.

(6) عياض. **ترتيب المدارك**، مجلد ٢، ص ١٣٥.

واستبطاء الرحمة بوسيلته، وأطلقوا ألسنتهم بالطعن في دينه"[1]، ليس هذا حسب، بل أنهم إثر انتهاء الصلاة تجمعوا وأرادوا امتهانه وضربه، وعابوه بقولهم "بئس الوسيلة أنت إلى الله تعالى، والشفيع في إرسال الرحمة، إذ أصبحت إمام الدين وقيّم الشريعة، ثم لا تتورع عن قبول ما يرسل به إليك من الهدية، الّتي لا تليق إلا بالجبابرة"[2]، وهم يشيرون بقولهم هذا إلى علاقته المميزة بالحاجب محمد بن أبي عامر، ولم تعجب هؤلاء العامة تلك العلاقة بينهما.

والفقهاء على ما هم عليه من مكانة وتبجيل واحترام، إلا أن الغيرة والحسد قد دبت في قلوب بعضهم تجاه غيرهم من شرائح المجتمع، الذين استطاعوا أن يصلوا بإمكاناتهم المختلفة إلى مجالسة الأمراء، وأن يتمتعوا بالحظوة والمكانة الّتي يتمتع بها الفقهاء، وهذا ما لا يرضاه مثل هؤلاء الذين يرون أن مثل هذه المكانة هي حكر لهم دون سواهم، فالفقيه الكبير عبد الملك بن حبيب، الذي حاز على مكانة لم ينلها من قبل سوى يحيى بن يحيى الليثي، ينظر بعين الغيرة إلى ما وصل إليه زرياب المغني[3]من مكانة وتقدير، وكلمة مسموعة عند الخليفة ينكرها عليه ابن حبيب، لأنه يرى أن زرياب بصنعته وحرفته، حاز مكانة لا تليق به وبما يحمل، مقارنة بما يحمله الفقهاء من علم ومعرفة بأمور الدين والدنيا، فيقول[4]: وهو من السريع.

صَلاحُ أمْرِي وَالذِي أبْتَغِي ... هَيْنٌ عَلَى الرّحْمَنِ فِي قُدْرَتِهْ

ألْفٌ مِنَ الحُمْرِ، وَأقْلِلْ بِهَا ... لِعَالِمٍ أرْبَى عَلَى بُغْيَتِه

يَأْخُذُهَا زِرْيَابُ فِي دَفْعَةٍ ... وَصَنْعَتِي أشْرَفُ مِنْ صَنْعَتِه

ومهما وصل إليه الفقيه من مكانة، وما حظي به من تقدير وإجلال، إلا أنه يبقى مغبون من قبل بعض الناس الذين يشعرون بأنه يقف حجر عثرة في طريقهم، يحول بينهم وبين ما يريدون تحقيقه والحصول عليه بسبب استئثاره بالحظوة والمكانة عند الأمراء وذوي الشأن، وهذا لا يروق لهم، وقد عبر الفقيه محمد بن سعيد المعافري، أصدق تعبير عن نظرة أمثال هؤلاء

---

(1) النباهي. **تاريخ قضاة الأندلس**، ص ٧٩.

(2)النباهي. **تاريخ قضاة الأندلس**، ص ٧٩.

(3)هو أبو الحسن علي بن نافع الملقب بزرياب، كان أسود اللون مع فصاحة لسانه، وحلاوة شمائله، وكان تلميذاً لإسحق الموصلي ببغداد، فتلقف أغانيه استراقاً، وهُدي من فهم الصناعة وصدق العقل مع طيب الصوت،فتفوق على الموصلي أستاذه الذي حسده على ذلك، فحذره من البقاء في بغداد، فمضى إلى المغرب، وبلغ منزلة عظيمة عندعبدالرحمن بن الحكم، توفي سنة٢٣٨هـ. انظر: المقري. **نفح الطيب**، ج٣، ص ١٢٢ـ ١٣٣.

(4) ابن خاقان. **مطمح الأنفس**،ص ٢٣٥. والأندلسي، ابن سعيد المغربي، **المغرب في حلى المغرب**، ج٢، ص٩٦.

الناس إلى الفقهاء، وكيف أنهم ينظرون إليهم نظرة حسد، وغل وازدراء، وعدم ارتياح لرؤيتهم، وهم في قرارة أنفسهم يتمنون لهم كل مكروه يزيلهم من طريقهم، فأنشد[1]: وهو من: الرمل

إنَّمَـــا أُزْرَى بِقَـــدْرِي أَنَّنِـــي ... لَـــسْتُ مَـــنْ بَابَـــةِ أَهْـــلِ البَلَـــدِ
لَـــيْسَ فِـــيْهِمْ غَيْـــرُ ذِي مَقْلِيَـــةٍ ... لِـــذَوِي الأَلْبَـــابِ أَوْ ذِي حَـــسَدِ
يَتَحَـــامونَ لِقَـــائِي مِثْلَمـــا ... يَتَحَـــامونَ لِقَـــاءَ الأَسَـــدِ
مَطْلَعِـــي أَثْقَـــلُ فِـــي أَعْيُـــنِهِمْ ... وَعَلَـــى أَنْفُـــسِهِمْ مِـــنْ أُحُـــدِ
لَـــوْ رَأَوْنِـــي وَسْـــطَ بَحْـــرٍ لَـــمْ يَكُـــنْ ... أَحَـــدٌ يَأْخُـــذُ مِـــنْهُمْ بِيَـــدِي

هكذا نظرعامة الناس إلى الفقهاء نظرة احترام، وتقدير ، وإعجاب ، ولكنها ليست على إطلاقها، فمن الفقهاء من هوجم ، وانتقد من أفراد المجتمع ، وربما يكون هذا من قبيل الغيرة والحسد نتيجة لما وصل إليه الفقهاء من مكانة ، أو الجمود الذي لازم كثيراً من الفقهاء.

([1]) المقري. **نفح الطيب**، ج٢، ص ١٤٨.

الباب الثاني:

صورة الفقيه في الشعر الأندلسي

تمهيد: طبيعة العلاقة بين الشعراء والفقهاء.

المتعارف عليه ، وما تؤكده كتب التاريخ والأدب ، أن الشعراء منذ العصر الجاهلي مروراً بالعصور الإسلامية المختلفة كانوا يحتلون موقعاً متقدماً ، ومكانة متميزة في المجتمعات القبلية التي كانوا ينتمون إليها، وما أدل على ذلك من تلك الاحتفالات التي كانت تقيمها القبيلة، ويتبادل أفرادها التهاني فيما بينهم، ومع القبائل الأخرى ، إذا ما ظهر شاعر ونبغ في قبيلته ؛ لأن الشاعر هو لسان حالها ، والناطق باسمها، فالشعراء هم حماة الأعراض والأنساب، وهم السجل الذي يحفظ مآثرهم وأيامهم وذكرهم، ويخلدها ، وهم فرسان الكلمة الذين يرفعون من أشادوا به، ويضعون من أعملوا ألسنتهم فيه.(١)

وهذه المكانة الرفيعة أصبحت عرفاً وتقليداً في مختلف العصور الإسلامية، حتى في عصر النبوة، إذ كان لحسان بن ثابت(٢) شاعر الرسول – صلى الله عليه و سلم – مكانته المميزة ودوره الفاعل في الدفاع عن الرسول الكريم ودعوته ، والوقوف في وجه شعراء قريش الذين حاولوا التأثير على مسار الدعوة الإسلامية ، فقد كلفه الرسول الكريم بهجاء قريش والذود عن حياض الإسلام قائلاً له : "اهجهم – يعني قريشاً – فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام ، اهجهم ومعك جبريل روح القدس ، والقَ أبا بكر يعلمك تلك الهنات " (٣)

وفي الأندلس حظي الشعراء بمكانة عالية عند بعض أمراء الأندلس وملوكها ، فقربوهم وأعلوا منزلتهم ، ولكن هذه المكانة وتلك المنزلة اعتراها بعض الاضطراب والفتور في بعض الفترات ، نتيجة تنامي حضور فئة من المجتمع الأندلسي ، حلت في الإيثار محل الشعراء وسحبت البساط من تحت أقدامهم ، هذه الفئة هي فئة الفقهاء الذين أصبحت لهم مكانة عظيمة ، ودور فاعل في المجتمع الأندلسي ، جعلت كثيراً من الشعراء يخطبون ودهم ، ويسعون إلى رضاهم، ويتقربون منهم ، ويمدحونهم طمعاً في عطاياهم .

---

(1) انظر: ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني الأزدي. **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، تح: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة التجارية، مصر، ط٣، ١٩٨٣، ج١، ص٦٥.

(2) هو حسان بن ثابت بن المنذر الأنصاري، يكنى أبا الوليد ، وهو جاهلي إسلامي متقدم في الإسلام ، وكان يفد على ملوك غسان في الشام، يمدحهم ويتلقى عطاياهم، توفي في خلافة معاوية بن أ بي سفيان، وأصيب بالعمى في آخر عمره. انظر:ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم .**الشعر والشعراء**، راجعه وأعد فهارسه : محمد عبدالمنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٢، ١٩٨٦،ص١٩٢ــ١٩٤.

(3) ابن رشيق. **العمدة** ، ج١ ، ص١٢٠ .

وفي عصر المرابطين تراجعت منزلة الشاعر الاقتصادية والاجتماعية ، ولم يعد الشاعر قادراً على منافسة رجل السيف ، وهو من الملثمين ، والفقيه والكاتب وهو في الغالب من الأندلسيين [١] ، وشعر أهل الأدب وخاصة الشعراء بأن المكانة التقليدية المرموقة التي كانت لهم في كل العصور قد خسروها أمام المدّ القوي القادم من الفقهاء ، وكبر عليهم أن يروا عروشهم تتهاوى ، وتضيع كل الامتيازات التي حققوها ، لذلك لجأ بعض الشعراء إلى ندب حظهم ، ورثاء الحال التي وصل إليها الشعر وأهله ، فالأعمى التطيلي [٢] يستنكر هذا التحول الكبير الذي أعطى الفقهاء ما كان يعتقد أنه حق من حقوق الشعراء المكتسبة ، فقال في أبيات مؤثرة ينعى فيها دولة الشعر (الشعر و الشعراء) وقد خفت بريقها وتلاشى أمام صعود منزلة الفقهاء وتأثيرهم ، بعد أن أبعدوا الشعراء عن طريقهم ، وصفا لهم الجو ، وهمشوا دورهم التقليدي ومكانتهم المتعارف عليها فيقول : [٣] وهو من الطويل .

أَيَا رَحْمَتَا لِلشِّعْرِ أَقْوَتْ رُبُوعُهُ ... عَلَى أَنَّهَا لِلمَكْرُمَاتِ مَنَاسِكُ
وَلِلشُّعَرَاءِ اليَوْمَ ثُلَّتْ عُرُوشُهُمْ ... فَلا الفَخْرُ مُخْتَالٌ وَلا العِزُّ تَامِكُ
إذا ابْتَدَرَ النَّاسُ الحُظُوظَ وَأشْرَقَتْ ... مَطَالِبُ قَوْمٍ وَهْيَ سُودٌ حَوَالِكُ
رَأَيْتَهُمُ لَو كَانَ عِنْدَكَ مَدْفَعٌ ... كَمَا كَسَدَتْ خَلْفَ الرِّحَالِ التَّرَائِكُ
فَيَا دَوْلَةَ الضَّيْمِ أجْمِلِي أو تَجَامَلِي ... فَقَدْ أصْبَحَتْ تِلْكَ العُرَى والعَرَائِكُ
وَيَا "قَامَ زَيْدٌ" أعْرِضِي أوْ تَعَارَضِي ... فَقَدْ حَالَ مِنْ دُونِ المُنَى "قَالَ مَالِكُ"

وعبر شاعر آخر قدم من بغداد إلى الأندلس ، يحدوه الأمل في أن يجد من يحتضنه ويحقق رغبته ، ولكنه يصطدم بواقع مرٍّ للمكانة التي وصل إليها الشعراء ، بصعود نجم الفقهاء فيرى الموت على قساوته أرحم من حال أهل الأدب ، فأصبح لقب شاعر عاراً عليه يسبب له الضيق والحرج ، والسبب ليس في الشعر وضعفه وهبوط مستواه ، بل في المجتمع الذي فقد حاسة الذوق الأدبي ، وربما كان هذا تعريضاً بالأجواء السياسية السائدة ، وبالفقهاء الذين اغتصبوا السلطة ووجهوها كما يبتغون ، فبعد أن كان الشاعر يحتل المكانة الأسمى في المجتمع وكل الأنظار متطلعة إليه ، متشوقة لسماع شعره ، ساعية إلى كسب رضاه ، أصبح لا يؤبه

---

(1) انظر :عباس ، إحسان . **تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين** ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٧ ، ص٩٠ .

(2) هو أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن هريرة الأعمى التطيلي ، كان ضريراً، لذلك لقب بالأعمى التطيلي نسبة إلى بلده تطيلة ، له أدب بارع، ونظرٌ في غامضه واسع، وفهم لا يجارى، وذهن لا يبارى، ونظم كالسحر الحلال، ونثر كالماء الزلال، توفي سنة ٥٢٥هـ انظر: ابن بسام . **الذخيرة**، القسم الثاني، المجلد الثاني، ص٧٢٨ــ٧٥٣.

(3) التطيلي ، أبو جعفر أحمد بن عبد الله الأعمى . **الديوان** ، تح : إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ص ٩٠-٩١ .

لوجوده ، وهان في أعين الناس ،وكان هذا من الأسباب التي أدت إلى اتساع الفجوة ، واشتداد التنافر بين الفقهاء والشعراء ، يقول الأديب الشاعر أبو الحسن الفخري(١) معبراً عن تراجع مكانة الشعر والشعراء ، وشدة الإحباط الذي أصابه نتيجة تدهور وضع الشاعر (٢): وهو من البسيط .

المَوتُ أولَى بِذي الآدَابِ مِنْ أدَبِ يَبْغِي بِهِ مَكْسَبَاً مِنْ غَيرِ ذِي أدَبِ

مَا قِيلَ لِي شَاعِرٌ إلا امتَعَضْتُ لَهَا حَسْبُ امتِعَاضِي إذا نُودِيتُ بَاللَقَبِ

ومَا دَهَا الشِّعْرَ عِنْدي سُخْفُ مَنْزِلَةٍ بَلْ سُخْفُ دَهْرٍ بِأهْلِ الدَّهْرِ مُنْقَلِب

صِنَاعَةٌ هَانَ عِنْدَ النَّاسِ صَاحِبُهَا وكَانَ فِي حَالِ مَرْجُوٌّ ومُرتَقَبِ

يُرْجَى رِضَاهُ وَيُخْشَى مِنْهُ بَادِرَةٌ أبقَى عَلَى حِقَبِ الدُنيا مِنَ الحِقَبِ

إذا جَهِلْتَ مَكَانَ الشعْرِ عَنْ شَرَفٍ فَأيُّ مَأثُرَةٍ أبْقَيْتَ لِلعَرَبِ

هذه المنافسة الشديدة بين الفقهاء والشعراء التي صنعتها الظروف المختلفة في الأندلس والسياسة المتبعة من قبل ولاة الأمر ، أدت إلى أن يستخدم الشعراء سلاحهم (الهجاء) في توجيه النقد الشديد ، والسخرية الحادة ، والهجوم العنيف لخصومهم الفقهاء ، وقد تفاوت هذا الهجاء أو النقد في شدة لهجته وأسلوبه بين شاعر وآخر ، ولكنه على أي حال يشير إلى اتساع الفجوة بين الطرفين ، وعدم رضا الشعراء ــ تحديداً ــ عن الفقهاء ، وعن الطريقة التي كانوا يسيرون عليها .

والمنافسة ليست هي السبب الوحيد الذي أدى إلى مثل هذه الخصومة ، فسلوك بعض الفقهاء وتكالبهم على الدنيا ، وخروج بعضهم عن المبادئ هو الذي وسع الهوة بين هاتين الشريحتين البارزتين في المجتمع الأندلسي ، علاوة على أن الفقهاء قد مارسوا دور الرقيب على سلوك الشعراء ، فتابعوا حركاتهم وأشعارهم ، ولاحقوهم واتهموهم بالخروج عن أحكام الدين والزندقة ،والكفر .

---

(1) هو علي بن أحمد الفخري ، المعروف بأبي الحسن ، شاعر أديب قدم الأندلس من بغداد . انظر : الحميدي . **جذوة المقتبس** ، ترجمة رقم ٧٠٧ ، ص ٢٧٧ .

(2) الحميدي. **جذوة المقتبس** ، ص ٢٧٧.

ـ مديح الفقهاء:

يمثل الفقيه موضوعاً أساسياً من موضوعات الشعر الأندلس، ومادة غنية استقى منها الشعراء موضوعات شعرهم، فأعملوا فكرهم وألسنتهم في تشكيل تلك الصورة وصياغتها بما يناسب الواقع الذي كان يعيشه أهل الأندلس بشكل عام، والفقهاء بشكل خاص، فجاءت قصائدهم لوحات فنية تعكس هذا الواقع، فكانت الصورة قاتمة حيناً، ومشرقةً في أحايين كثيرة.

تبرز الصورة الإيجابية للفقيه وتتجلى في قصائد المديح والرثاء التي أطنب الشعراء فيها، إما إيماناً منهم بمكانتهم ودورهم الإيجابي في القضايا التي تهم المجتمع الأندلسي، وتخدم الإسلام وقضايا المسلمين، وإما تزلفاً وتقرباً منهم لمكانتهم الاجتماعية الرفيعة التي حققوها، بتعاونهم مع أنظمة الحكم المختلفة، أو طمعاً في هباتهم وعطاياهم ، عندما تعززت المكانة عندهم، وأصبحوا من أصحاب الثروات الضخمة التي اكتسبوها بحكم المواقع التي شغلوها، وما كان يخصهم به أولو الأمر، أو دفاعاً عنهم، والوقوف بوجه من يحاول النيل منهم، والإساءة إليهم.

فقد تعرض الفقيه، بقيُّ بن مخلد[١] – على مكانته وعلمه– لهجاء ابن غزوان[٢]، الذي تقرب به من بعض العلماء الذين ساءهم وجود ابن مخلد بينهم، فما كان من أحد الشعراء الذين يقدرون هذا الفقيه ويحترمون علمه ومكانته، إلا أن انتفض معنفاً ابن غزوان أشد التعنيف على النيل منه إرضاءً لخصومه، وعدّ من يقف معادياً لبقيّ كمن جاهر بعداوته للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فهو من أكبر الفقهاء العاملين وأجلهم في الأندلس في تلك الأيام، فكيف يجرؤ هذا الشاعر على النيل منه ومهاجمته فيقول[٣] مخاطباً ابن غزوان: وهو من الطويل.

هَجَوْتَ بقيّاً كَي تَسُرَّ ابنَ خالدٍ   فَخَلَّدَكَ الرّحمنُ شَرَّ مُخَلَّدِ

فإن كُنْتَ تَشْنَا المَرْءَ فابْشِرْ بِهُجْنَةٍ   تَذُوقُ لَظَاهَا فِي السّعيرِ المُوَقَّدِ

---

(1)هو أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد، من حفاظ المحدثين وأئمة الدين، والزهاد الصالحين، كان متخيراً لا يقلد أحداً وكان من أهل الشورى، توفي عام ٢٧٦هـ.انظر: الضبي. **بغية الملتمس** ، ص ٢٠٩-٢١١.

(2)هو مروان بن غزوان المنجم، كان متصلاً بعبد الرحمن الأوسط، وكان قد هجا هاشم بن عبدالعزيز، وزير محمد بن عبدالرحمن، فأغرى محمداً به، فأمر له بمائة سوط، وسجنه. انظر: ابن سعيد المغربي. **المغرب في حلى المغرب** ،ص٢٢ .

(3)الخشني، محمد بن الحارث. (ت٣٦١) **أخبار الفقهاء والمحدثين**، تح: ماريا لويسا آبيلا ولويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد التعاون مع العالم العربي، مدريد، ١٩٩٢، ص٥٨-٥٩.

لَعَمْرُكَ مَا يَشْنَأُ بقيَّ بنَ مَخْلَدِ ... مِنَ النَّاسِ إلاَّ شَانِئٌ لِمُحَمَّدِ

وإنَّ بَقِيَّاً خَيْرُ مَن وَطِئَ الثَّرَى ... بِعَصْرِ بَقِيٍّ بَيْنَ كَهْلٍ وَأَسْوَدِ

وقد رفع هذا الشاعر بقياً إلى مستوى الصحابة رضي الله عنهم في التقى والصلاح والسمت الحسن، فأقواله وأفعاله وطريقة حياته ما هي إلا صورة عن أقوال الصحابة وأفعالهم وطريقة حياتهم، وهو أخيراً يفضُل هؤلاء الذين يهاجمونه، ويحاولون الحطّ من مكانته وعلمه، يقول في ذلك:

يُذَكِّرُ مِنْ صَحْبِ النبيِّ مُحَمَّدٍ ... عَلَيْهِ سَلامُ اللهِ فِي كُلِّ مَشْهَدِ

فَأَفْعَالُهُ أَفْعَالُهمْ وَطَرِيقُهُ ... طَرائِقُهُم فِي كُلِّ فَضْلٍ وَسُؤْدَدِ

تَقِيّاً، نَقِيّاً مَا يُزَنُّ بِرِيبَةٍ ... إلى النَّاسِ طُرّاً لازِمَاً قَعْدَ مَسْجِدِ

لَهُ الفَضْلُ فِي كُلِّ الأُمُورِ عَلَيْكُمُ ... كَمَا فُضِّلَتْ فِي الكَفِّ وَاسِطَةُ اليَدِ

لقد أبرز الشاعر في هذه الأبيات نقاء صورة بقيٍّ بما يحمله من علم وخلق وترفع عن الصغائر ، في الوقت الذي غمز بجانب هؤلاء الذين يقفون خلف ابن غزوان، ويؤلبونه على بقيّ، وهذه الصورة أكدها شاعر آخر يدعى أبو الحقّ، عندما وصف بقياً بأنه من خيرة العلماء في هذه البلاد، ولا سبيل إلى المقارنة بينه وبين غيره ، فهو أوحد عصره، يقول في ذلك[1]، وهو من الطويل:

رَأَيْتُ بَقِيَّ الخَيْرِ، خَيْرَ زَمَانِهِ ... وَغَيْرَ بَقِيٍّ فِي العُلُومِ كَلاشِي

أَبَى اللهُ إلاّ أنَّهُ أفْضَلُ الوَرَى ... وَأَعْلَمُ كَهْلٍ فِي البِلادِ وَنَاشِي

وقد وقف هذا الموقف المشرف في الدفاع عن الفقهاء العاملين الفقيه الأديب الشاعر أبو إسحق الإلبيري[2] الذي كان كثيراً ما وجه إلى الفقهاء بعض الانتقادات، ولكنه عندما رأى

([1]) الخشني. **أخبار الفقهاء والمحدثين**، ص٥٩.

([2]) هو إبراهيم بن مسعود بن سعد التجيبي، يُكنى أبا إسحق، واشتهر بالنسبة إلى مدينة إلبيرة، اشتهر بشعره الزهدي، وهو من أهل العلم والعمل، وكان فقيهاً فاضلاً، زاهداً، عارفاً. انظر: الضبي ، **بغية الملتمس** ، ص١٩١.

الشاعر ابن الحاج[1] قد تجاوز الحدّ في التعرض للفقيه القاضي ابن توبة[2]، وجماعة من الفقهاء معه، موجهاً إليهم سهام النقد والهجاء، وقف بوجهه مفنداً ادعاءاته الباطلة في حق الفقهاء الأجلاء، فرد عليه الإلبيري رداً قاسياً، وهجاه هجاءً مراً، وعرّاه أمام الناس، في الوقت الذي أشاد بابن توبة وجماعته، إذ وصفهم بصفات مثالية خصهم الله بها، فهم سادة الناس، اختصهم الله من بين خلقه بالإكرام والتبجيل والتعظيم، وأن ما قاله ابن الحاج فيهم زورٌ وسفه يجافيان الحقيقة، فيقول الإلبيري[3] مخاطباً ابن الحاج: وهو من البسيط.

واذْكُرْ عُقُوبَةَ مَا زَوَّرْتَهُ سَفَهاً   فِي السَّادَةِ القَادةِ الشُمِّ البَهَالِيلِ

عِصَابَةٌ عَظَّمَ الرَّحْمَنُ حُرْمَتَهَا   وخَصَّهَا مِنْهُ إكْرَاماً بِتَبْجِيلِ

هُمْ لُبَابُ الوَرَى حَقّاً وَغَيْرُهُمُ   عِنْدَ الحَقِيقَةِ أبقَالُ الغَرَابِيلِ

إنَّ ابْنَ تَوْبَةَ فِيهِمْ رَافِعٌ عَلَمَاً   مِنَ القَضَاءِ وَمُمْتَازٌ بإكْلِيلِ

وفي قصيدة أخرى يرسم أبو إسحق الإلبيري صورة زاهية للصفات التي تحلى بها الفقيه ابن توبة ، من خلال مجموعة من المقارنات بينه وبين أعلام اشتهروا بصفات جليلة، جرت مجرى الأمثال فهو يتفوق على إياس بالذكاء، وعلى الأحنف بن قيس بالحلم، وعلى السموأل بالمحافظة على العهد، وعلى حاتم الطائي[4] بالكرم، فهو شخصية مركبة اتصفت بصفات تكاد تكون مثالية وعزّ وجودها فيقول[5] : وهو من الخفيف.

لَو إيَاسٌ يَلْقَاهُ قَالَ اعْتِرَافَاً   غَلِطَ الوَاصِفُونَ لِي بالذَّكَاءِ

ولَو انّ الدُّهَاةَ مِنْ كُلِّ عَصْرٍ   خَبَرُوهُ ، دَانُوا لَهُ بِالدَّهَاءِ

أوْ رَأى أحْنَفُ أوْ أحْلَمُ مِنْهُ-   حِلْمَهُ مَا انْتَمَوا إلى الحُلَمَاءِ

لَو رَأى المُنصِفُونَ بَحْرَ نَدَاهُ   جَعَلُوا حَاتِمَاً مِنَ البُخَلاءِ

([1])هو عبد الرحمن بن الحاج الإلبيري، كان شاعراً مجيداً، هجا القاضي الفقيه أبا الحسن بن توبه قاضي غرناطة ومن نصره من الفقهاء، فضربه القاضي ضرباً موجعاً، وطيف به على الأسواق بغرناطة. انظر: ابن الخطيب. **الإحاطة**، ج٣، ص٥١٧.

([2]) هو علي بن محمد بن توبة، يكنى أبا الحسن، من العلماء الجِلة والفقهاء الفضلاء، ولي قضاء غرناطة لباديس بن حبّوس، توفي سنة ٤٤٥، انظر: ابن الخطيب. **الإحاطة** ، ج٤، ص٨٢.

([3]) الإلبيري، أبو إسحق. **الديوان**، تح: محمد رضوان الداية، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٧٦، ص١١٠.

([4]) من مشاهير العرب الذين ضربت بهم الأمثال، اشتهر حاتم الطائي بالكرم، فيقال: أكرم من حاتم ، وإياس بالذكاء، فيقال أذكى من إياس، والأحنف بن قيس بالحلم، فيقال أحلم من أحنف، والسموأل بالوفاء، فيقال: أوفى من السموأل.

([5]) الإلبيري. الديوان، ص٨٨.

هُـــوَ أوْفَـــى مِـــنَ الـــسَّمَوألِ عَهْـــداً   وَكَمَـــــا زَالَ مُغرَمـــــاً بِالوَفَــــاءِ

ويستمر الإلبيري في توضيح صورة ابن توبة عندما يقحم شهادة العارفين والعالمين بمختلف أنواع العلوم، لتؤكد شهادتهم مكانته بين علماء عصره، ومهما حاول الإلبيري أن يصف هذا الفقيه فلن يحيط بأوصافه،والإلبيري،على مكانته،لا يساوي شيئاً بجانب علم ابن توبة وفقهه، ولن يفيه حقه حتى لو كان وجهه مداساً لحذائه ، وفي هذه المعاني والدلالات يقول [1]:

يَـــشْهَدُ العَـــالِمُونَ فِـــي كُـــلِّ فَـــنٍّ   أنَّـــهُ كَالـــشِّهَابِ فَـــي العُلَمَـــاءِ
وَقُـــضَاةُ الزَّمَـــانِ أرْضٌ لَدَيْـــهِ   وَهْـــوَ مِـــنْ فَـــوْقِهِم كَـــأفْقِ الـــسَّمَاءِ
وَلَـــوَ انْـــصَفْتُهُ –وَذَاكَ قَلِيـــلٌ–   كَـــانَ خَـــدّي لِرِجْلِـــهِ كَالحِـــذَاءِ
فَأنَـــا عَبْـــدُهُ –وَذَاكَ فَخَـــارِي–   وَجَمَـــالِي بَـــيْنَ الـــوَرَى وَبَهَـــائِي

ومن القصائد التي أبرزت صورة الفقيه الإيجابية المشرقة قصيدة الحصري[2] في وصف الفقيه أبي المطرّف الشعبي[3]، التي صورت أبياتها الشعبي بالشمس التي ترسل أشعتها في كل اتجاه، ويقتبس من نورها القاصي والداني، وتبين المكانة التي حازها وشهد له بها الأعداء قبل الأصدقاء، وقد أجمع على حبه واحترامه جميع أهل الأندلس، ولم يجتمع هذا الحب إلا له ولأمثاله فيقول[4]: وهو من الكامل

سَـــهْلُ الأبَـــاطِحِ فِـــي عُـــلاكَ يَفَـــاعُ   والـــنَّجْمُ أنْـــتَ وَكَفُّـــكَ المِرْبَـــاعُ
بَـــلْ أنْـــتَ شَـــمْسٌ لا تَـــزَالُ وَلَـــمْ يَـــزَلْ   فِـــي سَـــائِرِ الآفَـــاقِ مِنْـــكَ شُـــعَاعُ
مَـــنْ يَخْتَلِـــفْ كُـــلُّ الـــوَرَى فِـــي حُبِّـــهِ   فَـــأبُو المُطَـــرِّفِ حُبُّـــهُ إجْمَـــاعُ
شَـــهِدَتْ عُقُـــولُ العَـــالِمِينَ بِفَـــضْلِهِ   فَـــسَوَاءٌ الأعْـــدَاءُ وَالأشْـــيَاعُ

---

(1)الإلبيري. **الديوان** ص٨٩.

(2) هو علي بن عبد الغني أبو الحسن القروي المعروف بالحصري، أديب رخيم الشعر، حديد الهجو، دخل الأندلس بعد ٤٥٠هـ، ومدح ملوكها. انظر: الضبي. **بُغية الملتمس**، ص٣٧٢.

(3) هو أبو المطرف عبدالرحمن بن قاسم الشعبي المالقي، كان فقيه مالقة في عصره، وعليه كانت تدور الفتيا وكان من الحفاظ المشاهير، يحفظ المدونة وغيرها، توفي سنة ٤٩٧هـ. انظر: ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الرابع، المجلد الأول، ص٢٧٩.

(4) ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الرابع المجلد الأول، ص٢٨٢.

ثم يصور الفقيه أبا المطرف بالمصباح الذي يهدي أهل مالقة وعلماء الأندلس إلى الطريق القويم، والذي لم يستطع من هم دونه في العلم والمعرفة إخماد نوره وشهرته، ليأخذوا مكانه ويعتلوا مكانته، ولكن كيدهم عاد إلى نحورهم، فلم يحافظوا على ما كانوا عليه، ولم يحصلوا إلا على العزل والتهميش، وربما يكون هذا عقاباً من الله لتجاسرهم على هذا الولي العابد، فلم يقووا على إيذائه، والأولى أن يضعوا أيديهم في يديه، ليكون نعم المشير والمعين لهم، وهو يشير بهذا إلى تميم بن بلكين(١) الذي سعى في عزله فيقول(٢):

مِصْبَاحُ مَالَقَةٍ أرَادَ خُمُودَهُ   قَومٌ لِيَرْتَفِعُوا وَهُمْ أوْضَاعُ

فَالعَامُ لَمْ يَكْمُلْ لِعَزْلَتِهِ بِهَا   حَتَّى عَلَتْ يَدُهُ وَطَالَ البَاعُ

انظُرْ إليهِ اليَومَ كَيْفَ أصَابَهُ   صَرْفُ الزَّمَانِ وَلَيسَ عَنْهُ دِفَاعُ

لَوْلا إسَاءَتُهُ إليْكَ وَظُلْمُهُ   لَغَدَا وَأنْتَ لَهُ يَدٌ وَذِرَاعُ

ثم يستحضر الحصري فقيهاً آخر وهو ابن حسون(٣) ليجعله مكملاً للفقيه الشعبي، ويصورهما في الصلاح والتقوى بتوأم شربا من نبع العلم نفسه، فأصبحا علمين من أعلام الدين في مالقة، وقد خصّ الله بهما الأندلس لنصرة دينه، فقاما بالمهمة خير قيام، وأحسنا العمل فحسنت الدنيا بما عملا به فيقول مشيداً بهما، ومعبراً بصورة جميلة عن التوافق والانسجام بينهما (٤) :

بَينَ ابْنِ حَسّونٍ وَشَعْبِيِّ الهُدَى   مِنْ ثَدْيِ خَالِصَةِ الإخَاءِ رَضَاعُ

يَامَا أجَلَّهُمَا وَأشْبَهَ ذَا بِذَا   حَسُنَتْ وُجُوهٌ مِنْهُمَا وَطِبَاعُ

مَا أحْسَنَ الدُّنْيَا بِحُسْنِهِما الذي   تَلْتَذُّهُ الأبْصَارُ وَالأسْمَاعُ

خُلِقَا لِنَصْرِ الدِّينِ وَالكَرَمِ الذي   تَخْضَرُّ مِنْهُ بَسِيطَةٌ وَتِلاعُ

كَمُهَنَّدَيْنِ مُجَرَّدَيْنِ بِرَيّةٍ   تَنْبُو الظُّبَا وَكِلاهُمَا قَطَّاعُ

---

(١) هو تميم بن بلكين ، الأخ الأكبر للأمير عبدالله بن بلكين، تولى حكم مالقة منذ أيام جده باديس، وبعد وفاة الجد استقل بحكم مالقة وأعمالها، وتلقب بالمنتصر بالله ، وله مع أخيه عبدالله نزاعات شديدة وحروب طاحنة، عزله يوسف بن تاشفين عام ٤٨٣هـ ونفاه إلى بلاد المغرب. انظر عنان. **دول الطوائف** ، ص ١٤٢ـ ١٤٤.

(٢) ابن بسام. الذخيرة، القسم الرابع، المجلد الأول، ص٢٨٢.

(٣) هو أبو علي بن الحسن بن حسون، عين مالقة وربُّ حلها وعقدها، من أئمة العلماء، ولي قضاء مالقة زمن العالي بن يحيى بن حمود الفاطمي. انظر: ابن سعيد المغربي. **المغرب في حلى المغرب**، ج١، ص٤٣٠.

(٤) ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الرابع، الجزء الأول، ص٢٨٢.

رسم ابن خفاجة[1] صورة مثالية للفقيه ابن عصام[2]، فلم يترك صفة مما يكبر بها الإنسان إلا وذكرها، لذلك تزاحمت في أبياته الصفات النبيلة التي جعلت منه فقيهاً فريداً ينـدر وجـوده، وهذا ما سعى إليه ابن خفاجة ؛ ليضفي على ممدوحه صفات الكمال ، مما يجعله يكبر في عيون الناس ،فالرأفة ،ولين الجانب، والحلم والعصمة ،والرحمة ،وسداد الرأي، والعزيمـة ،والتقـوى، جعلها ابن خفاجة صفات متأصلة في نفسه، بوأته مكانة عالية في المجتمع الأندلسي، وهـذا مـا جعل كثيراً من الفقهاء يتجه إلى مدحـه والثنـاء عليـه، يقـول ابـن خفاجـة فـي ذلـك[3]: وهو من الطويل.

فَـإنَّ لإبـرَاهِيمَ فَيْـأةَ* رَأفَـةٍ تَعُـودُ بِعَطْـفِ الحِلْـمِ والعَـودُ أحْمَـدُ
ومـا ابْـنُ عِـصَامٍ غَيْـرَ هَـضْبَةِ عِـصْمَةٍ تُجِيـرُ وسُـقْيا رَحْمَـةٍ تَتَجـدّدُ
يَـسَيرُ بِـهِ فِـي الحَـقِّ رَأيٌ مُـسَدَّدٌ عَلَـى مَـنْهَجِ التقـوى وَعَـزْمٌ مُؤيّـدُ

وهذه المحامد التي سُجلت لابن عصام جعلت منه إنساناً مُهاب الجانب، لا يجرؤ أحدٌ على النيل منه ، وربما جَرّت عليه حسد الحساد المتطلعين إلى الوصول إلى ما وصل إليـه، ولكـن حِلْمه يجعله يترفع عن الجري خلف هؤلاء، وهذا الحلم لا يكون إلا من إنـسان عظـيم حكـيم يتصرف بتأنٍ ورويّة، وليس موقف ضعف عنده، بل هو خلق متأصل فيه، يقول:[4]

فمـا تُرْعِـدُ الأسْـيَافُ إلاّ مَهَابـةً لمُـؤتَمِرٍ فِـي اللهِ يَنْهَـى وَيَنْهَـدُ
وَلا تُكْـسَفُ الأقمَـارُ إلاّ حَـسَادَةً لِمُـضْطَلِعٍ بِالمَجْـدِ يَـسْعَى فَيَـسْعَدُ
وَيَحْلُـمُ لا عَـنْ ذِلّـةٍ وَلَرُبّمـا سَـطَا أسَـدٌ مِنْـهُ وَأطْـرَقَ أسْـوَدُ

([1]) هو أبو إسحق إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة الهواري، من أهل جزيرة شقر من أعمال بلنسية، من فحول الشعر الأندلسي، وأشهر وصافي الطبيعة، ولد سنة ٤٥٠ وتوفي سنة ٥٣٣هـ. انظر: ابن خاقان. **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**، ج٣، ص٧٣٩.

([2]) هو أبو أمية إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن عصام من أهل مرسية، فقيه أديب شاعر، أقام في ولاية القضاء نحو من خمس وثلاثين سنة، توفي سنة ٥١٦هـ. انظر: ابن سعيد المغربي. **المغرب في حلى المغرب**ج٢، ص٢٥٨.

* فيأة: رجعة

([3]) ابن خفاجة، أبو إسحق إبراهيم بن أبي الفتح. **الديوان**، تح: سيد غازي،منشأة المعارف ، الإسكندرية ،ط٢، ١٩٧٩، ص ١٩٥.

([4]) ابن خفاجة. **الديوان**، ص ١٩٦.

لقد صنع النهج القويم الذي سار عليه ابن عصام منه سيداً عظيم الشأن، ووصلت شهرته إلى كل مكان، وأصبح ملجأ لكل مكروب أصابته المحن والشدائد، فيجد عنده كل ما يشفي صدره ، فيزيل ما به من هموم، ويحيلها إلى بردٍ وسلام على قلبه ، يقول:

وَسَارَ مَسِيرَ النَّجْمِ هَدْياً وَرِفْعَةً فَغَارَ بِهِ رَأْيٌ وَأَنْجَدَ سُؤْدَدُ
لَهُ شِيمَةٌ تَنْدَى فَتَشْفِي مِنَ الصَّدَى وَتَنْقَعُ أَحْشَاءَ الهَجِيرِ فَيَبْرُدُ

ثم يختم هذه الصورة فيصفه بأنه من أهل الرأي والمشورة، لما يمتاز به من رأي سديد، يكشف به المعضلات التي تواجه علماء الأمة وفضلاءها، وهو من الذكاء والنجابة والهمة العالية ما يجعل قدره ومكانته في المقام الأعلى بين الناس، وأخيراً فهو رجل مجرب خبير بأمور الحياة، عركته تجاربها، وبوأته منزلة رفيعة في مجتمعه، يقول في ذلك:[1]

فمِنْ نُورِ رَأْيٍ لَوْ تَرَاءَى لِنَاظِرٍ لَلاَحَ بِهِ تَحْتَ الدُّجُنَّةِ فَرْقَدُ
وَمِنْ حُرِّ نُبْلٍ قَدْ أَفَاضَتْهُ هِمَّةٌ فَسَاحَ بِهِ فِي سَفْحِ ثَهْلاَنَ مَوْرِدُ
وَقَوْلٍ لَهُ فِي مَقْعَدِ الحِلْمِ حِكْمَةٌ يَحِلُّ بِهَا فِي اللهِ طَوْراً وَيَعْقِدُ

صور الجزّار[2] السرقسطي الفقيه أبا الوليد سليمان بن حفصيل الأسدي[3] بصورة الملك العظيم الذي يهب حياته ونفسه لرعيته وخدمتهم، فهو كريمٌ معطاء، حامل أعباء الآخرين، فتكفل بالضعفاء، وترفق بالمساكين، وأحيا المكارم والمآثر، وبث الخير في الناس، فكان قدوة لغيره في الكرم والعطاء، ولولاه لما كان للإيثار والخير مكان بين الناس، فهو مأوى المعوزين والمحتاجين، ولا يرجع من قصده خائباً. يقول في هذه المعاني[4]: وهو من الكامل.

إنّ الفَقِيهَ أَبَا الوَلِيدِ المُنْتَقَى وَزَرٌ كَفِيلٌ بِالمُرَادِ زَعِيمُ
لَوْلا سُلُوكُ يَمِينِهِ سُبُلَ النَّدَى دَرَسَتْ وَلَمْ يُعْلَمْ لَهُنَّ رُسُومُ

---

(1) ابن خفاجة. **الديوان**، ص١٩٧

(2) هو أبو بكر يحيى بن محمد السرقسطي الملقب بالجزار، إذ كانت مهنته الجزارة، تعلقت نفسه بقول الشعر فبرع فيه، مدح ملوك بني هود ووزراءهم، انظر: ابن سعيد المغربي. **المغرب في حلى المغرب**، ج٢، ص٤٤٤.

(3) هو أبو الوليد سليمان بن عبد الله بن محمد بن حفصيل الأسدي، سرقسطي من آل حفص القاري، ولي قضاء بلده بعد تغلب الروم عليها، وكان فقيهاً أديباً، شاعراً. انظر: المراكشي. **الذيل والتكملة**، ج٤،ترجمة رقم ١٧٢، ص٧١.

(4) الجزار السرقسطي، أبو بكر يحيى بن محمد. **الديوان، روضة المحاسنِ وعمدة المُحاسن**، تح: منجد مصطفى بهجت، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ، ١٩٨٨، ص١٨٤ .

ثم يخاطب السرقسطي كل محتاج ومحروم ، فيرشدهم إلى هذا الفقيه ، مأوى المحرومين الذين يقصدونه من كل مكان، آملين في عطائه الذي لا يجدونه عند غيره، فهو محجّ الناس الذين يسعون للوصول إليه، والتشرف بمقابلته والسلام عليه، يقول في هذا[١]:

يَا أَيُّهَا المَحْرُومُ مَأْمُولَ المُنَى   أَجَهِلْتَ أَنَّ عَطَاءَه مَحْتُومُ
لا تَعْدُ لُقْيَاهُ، وَزُرْهُ مُسَلِّماً   فَلِقَاؤُهُ يَكْفِيكَ وَالتَّسْلِيمُ
وَأَنِخْ بِبَابِ رِحَابِهِ بُدْنَ الرَّجَا   ءِ وَلا تَخُمْ فَالجُودُ فِيهِ خِيمُ[٢]

ثم يشرع السرقسطي برسم صورة الفقيه وصفاته ومحاسنه، التي جعلت منه فقيهاً مثالاً تتطلع إليه العيونُ والقلوب، فهو إلى كرمه وجوده وتفضله بقضاء حاجات الناس لا يخلو من الوقار، والتواضع الجمّ، الذي يضفي عليه هيبة في أعين الناس، يكسوها الاحترام والتقدير والتبجيل، وهو من أصحاب الهمم العظيمة التي وضعته في مكانة لا تدانيها مكانة، وفي هذا يقول[٣]:

أَضْفَى الوَقَارُ عَلَيْهِ حُلَّةَ هَيْبَةٍ   تَطْرِيزُهَا التَّبْجِيلُ وَالتَّعْظِيمُ
مُتَوَاضِعٌ فِي رِفْعَةٍ ذِي هِمَّةٍ   تَسْمُو إِلَى كَسْبِ العُلا وَتَهِيمُ
هِمَمٌ سَمَتْ رُتَبَ العُلا حَتَّى غَدَتْ   وَكَأَنَّهَا فَوْقَ النُّجُومِ نُجُومُ

ويصور السرقسطي جانباً مضيئاً من لوحته التي رسمها لهذا الفقيه، عندما يصوره إنساناً ذا عقلٍ نيّرٍ صافٍ، وحكيماً عارفاً ببواطن الأمور، مدركاً لما يدور حوله، متصرفاً بحكمة وفق ما يقتضيه الموقف والحاجة، مما جعله يتربع على عرش المجد والمعالي دون منازعة من أحد ،في الوقت الذي عجز الآخرون عن اللحاق به. يقول في ذلك[٤]:

مُتَوَقِّدُ الآرَاءِ يَقْظَانُ النُّهَى   طَبٌّ بِأَدْوَاءِ الزَّمَانِ عَلِيمُ
حُلْوٌ وَمُرٌّ لِلمَرِيرِ مَذَاقُهُ   كَالدَّهْرِ فِيهِ شَقَاوَةٌ وَنَعِيمُ
شَادَ العُلا بِيَدِ العَطَاءِ فَمَجْدُهُ   عَالِي البِنَاءِ وَغَيْرُهُ مَهْدُومُ

ويلقي السرقسطي ضوءاً ساطعاً على ما حبا به الله هذا الفقيه من علم ومعرفة، فهو موسوعة علمية فذة حوت بين دفاتها مختلف أنواع العلوم، فهو فقيه من أهل الشورى الذين

---
(١)الجزار السرقسطي. الديوان، ص ١٨٤.
(2) خيم : أقام
(٣) الجزار السرقسطي. **الديوان**، ص١٨٤
(٤)الجزار السرقسطي. الديوان، ص١٨٤

يرجع إليهم عندما يختلف أهل العلم والفقه في بعض المسائل، فيزيل بعلمه وفهمه وفقهه المستنير ما أشكل على العلماء من مسائل، ويجد لها الحلّ الشرعي الذي يرتضيه الدين والشرع، وهو إلى جانب ذلك أديب فذٌ ، وشاعر تخضع له القوافي والمعاني، فهو نموذج عظيم للإنسان الذي حاز على الفصاحة في الكلام، والبلاغة في فن النظم فروّضهما، فأصبحتا سهلتي القيادة بلسانه. يقول في هذا:(١)

لِلَّهِ مِنْهُ أيُّ فَارِسِ مِقْوَلٍ يَعْنُو لَهُ المَنْثُورُ وَالمَنْظُومُ
وَفَقِيهُ شُورَى إنْ تَعَرَّضَ مُشكِلٌ جَلَّى دُجَى الإشْكَالِ وَهْوَ عَدِيمُ
صَافِي الذُّيولِ مِنَ السَّكِينَةِ وَالتُّقَى يَقْظَانُ مَأمونُ الجِهَاتِ سَلِيمُ
مُتَبَرِّعٌ بِبَلاغَةٍ وَفَصَاحَةٍ تَعْنُو إلَيْهَا يَعْرُبٌ وَتَمِيمُ

وبهذه الصفات التي اتصف بها، والمعارف التي أتقنها وحازها ، فإن هذا الفقيه وحيد عصره، ولا مثيلَ له، فالزمان عجز أن يفرز فقيهاً عاملاً مثله، ومن الصعوبة أن تنجب النساء مثله؛ لأنه عصي عن التكرار.يقول السرقسطي:

عَقُمَ الزَّمَانُ بِأنْ يَجِيءَ بِمِثْلِهِ إنّ الزَّمَانَ بِمِثْلِهِ لَعَقِيمُ

ويبدو أن هذا الفقيه قد كثر فيه اللوم بسبب عطائه ،وإنفاقه ،وعمل الخير والكرم، فيأتي السرقسطي ليبرهن أن هذه الصفات متأصلة فيه، ولا ينفع اللوم والعتاب على ثنيه عما هو عليه، لأن هذه الصفات هي رأس ماله الذي يتاجر به، وهي التي أوصلته إلى مكانته السامية، وهي التي حملت ذكره إلى كل مكان، فمن العسير على مثل هذا الفقيه وأمثاله أن يتخلى عما جبل عليه استجابة للوم اللائمين، الذين ينظرون إلى موضوع الجود والكرم بمنظار لا ينظر به هذا الفقيه، وفي هذا يقول مخاطباً لوّامه:(٢)

يَا مَنْ يُؤَنِبُهُ عَلَى صِلَةِ النَّدَى أعَلِمْتَ مَنْ فِي المَكْرُمَاتِ تَلُومُ
هَيْهَاتَ، نَقْلُ الصَّخْرِ أعْسَرُ مَطْلَبَاً أنْ يَستَحِيلَ عَنِ العَطَاءِ كَرِيمُ
لَيْسَ ابْتِذَالُ المَالِ يُفْنِيهِ وَلا يُبْقِيهِ فِي كَفِّ اللَّئِيمِ اللُّومُ
حَسْبُ الكَرِيمَ مَحَامِدٌ تَبْقَى لَهُ وَكَفَى اللَئِيمُ بِأنَّهُ مَذْمُومُ

---

(١) الجزار السرقسطي، الديوان، ص١٨٥

(٢)الجزار السرقسطي، الديوان ،ص١٨٥ــ ١٨٦

ورسم الشاعر أبوعامر بن الأصيلي[١] صورة جميلة للفقيه أبي عبدالله محمد بن إبراهيم الفهري[٢] عندما مدحه في مخمّسة أظهر فيها بعض صوره وفضائله وصفاته، فيقول[٣] : وهو من الطويل.

سَعَيْتُ وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ "مَنْ سَعَى رَعَى" إِلَى أَنْ لَقِيتُ النَّاسَ أَجْمَعَ أَكْتَعَا[٤]
فَتَىً لَوْذَعِيًّا[٥] بَاسِمَ الثَّغْرِ أَرْوَعَا مُفَدَّىً بِآبَاءِ الرِجَالِ سَمَيْدَعَا[٦]
هُوَ الكَرَمُ المَدُّ الذي مَا لَهُ جَزْرُ

فيصوره في هذه الأبيات بالفتى الذكي المتوقد الخاطر، الفصيح اللسان الذي ترتسم البسمة دائماً على وجهه، وله من المكانة والحظوة عند الناس حيزٌ كبيرٌ ، فيفتدونه بآبائهم لعظيم أفضاله عليهم، فهو السيد الشريف السخي الشجاع، بل هو الكرم عينه الذي يعطي دون انتظار رد الجميل، فهو كالمدّ الدائم الذي لا يعقبه جزر، كناية عن كثرة عطائه وكرمه.

ويصور سمعته وذكره الذي ملأ الآفاق، ووصلت أخباره إلى كل مكان، مما شجع الناس في المجيء إليه، وعندما وصلوا وجدوا أنه يفوق ما جاءت به الأخبار، ذكراً وثناءً، فيقول[٧]:

سَرَيْتُ إِلَيْهِ أَهْتَدِي بِضِيَائِهِ وَيُرْشِدُنِي فِي القَفْرِ طِيبُ ثَنَائِهِ
وَمَا زِلْتُ أَسْتَسْلِي بِطُولِ بَقَائِهِ وَأَسْتَكْبِرُ الأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ
فَلَمَّا التَقَيْنَا صَغَّرَ الخَبَرَ الخُبْرُ

ثم يصور الأصيلي ما يحظى به هذا الفقيه من محبة وإخلاص ووفاء من قبل الناس، وهذا الحب هو الذي يدفعهم للقدوم إليه، دون غيره من أصحاب السلطة والمكانة، الذين ربما يكونون

---

(1) أبو عامر الأصيلي، جواب آفاق، شاعر وأديب كبير، وله بيت شرف، وسابقة سلف، هبط إلى الأشبونة، فحسن بها مثواه، وأجزل فيها قِراه. انظر: ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الثالث، المجلد الثاني، ص٨٥٧-٨٦٧.

(2) هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الفهري، كان سويداء قلب ذلك الإقليم، ومجلسه بالأشبونة، مرمى جمار المنظوم والمنثور. انظر: ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الثالث، المجلد الثاني، ص٨٦٥-٨٦٦.

(3)ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الثالث، المجلد الثاني، ص ٨٦٥.

(4) الأكتع: من تثنت أصابعه إلى كفه.

(5) اللوذعي: المتوقد الذهن.

(6) السميدع: السيد ،الكريم، السخي، الشجاع

(7)ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الثالث، المجلد الثاني، ص ٨٦٥.

أعلى منه سلطة، ولكنه يفوقهم كلهم بالمكانة والرفعة والأخلاق الفاضلة والصفات النبيلة. ثم يضفي عليه مسحة من الهيبة والجلالة، ليعلي من قيمته وقدره، من خلال اسمه الذي وافق اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويكفيه هذا شرفاً ومكانة وهيبة، ويصفه بالكوكب الذي يسطع نوره في الليالي الحالكة فيحيل ليلها نهاراً وضياءً، فهو ملجأ الناس ومأواهم إذا أصابتهم مصيبة،أو مكروه، وهو مفتاح الأمل، إذا أغلقت في وجوههم سبل الحياة الكريمة، فيقول:

سَمِيَّ رَسُولِ اللهِ يَا خَيْرَ مُرْتَجَى وَيَا كَوْكَبَاً يَذْكُو إذَا حَادِثُ دَجَا
وَيَا مِقْلَدَ المَخْيَا إذَا البَابُ أُرْتِجَا دَعَانِي إلَيْكَ العِلْمُ وَالحِلْمُ وَالحِجَى
وَهَذَا الكَلامُ النَّظْمُ وَالنَّائِلُ النَّثْرُ

ويختم هذه المخمسة بالإفصاح عن المشاعر الجياشة النبيلة التي يكنها الشاعر لهذا الفقيه، فقلبه مفعم بالسرور لما حواه الفقيه من مجد وسؤدد، ويكن له كل الودّ الصافي، والاحترام والتقدير والإجلال ، حتى إن شعره الذي سطره بهذا الفقيه يكتسب شرفاً وعظمة وبهاءً ورفعة، لأنه نطق باسم الفقيه الجليل، فالفقيه لا يعلو قدره بهذا الشعر بقدر ما يعلو قدر الشعر الذي قيل فيه. فهذا الشعر يستحيل شعراً راقياً خالداً، لأنه اقتبس عظمته وشأنه من نَفَس الفقيه . يقول في هذا المعنى[١]:

لِمَجْدِكَ عِنْدِي حَلْيُ فَخْرٍ نُعُوتُهُ وَوُدٌّ كَمَاءِ المُزْنِ صَحَّ ثُبُوتُهُ
فَدَعْ كُلَّ شَعْرُورٍ فَطَبْعِي يَفُوتُهُ وَمَا قُلْتُ مِنْ شِعْرٍ تَكَادُ بُيُوتُهُ
إذَا كُتِبَتْ يَبْيَضُّ مِنْ نُورِهَا الحِبْرُ

ويرسم الشاعر محارب بن محمد الوادي آشي[٢]صورة الفقيه القاضي عياض [٣]، فيشيد أولاً بقومه الذين أصبحوا مدار الحديث بين الناس في الجود والكرم والمكارم، فهم رجالٌ أصحاب همم عالية، لا يرضون إلا بالمجد والسيادة والمكانة السامية، ويقف في طليعتهم بهذه المناقب والمآثر جوداً وكرماً وعلماً وفضلاً سيدهم القاضي عياض. يقول[٤]: وهو من الوافر.

([1])ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الثالث، المجلد الثاني، ص ٨٦٥.

([2]) هو أبو محمد محارب بن محمد بن محارب، من أهل وادي آش، قرب غرناطة، كان فقيهاً، أديباً، وكان حياً سنة ٥٥٣هـ. انظر: ترجمته في ابن الأبار، أبو عبد الله محمد القضاعي البلنسي. **تحفة القادم**، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦، ص١٤٤.

([3]) هوأبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي من أهل سبتة ، قدم إلى الأندلس طالباً للعلم، وهو من أهل اليقين في العلم والذكاء واليقظة والفهم، توفي سنة ٥٤٤هـ . انظر: النباهي. **تاريخ قضاة الأندلس** ، ص ١٠١.

([4]) ابن الأبار. **تحفة القادم**، ص٤٤– ٤٥ . والمقري. **أزهار الرياض في أخبار عياض**، ج٥، ص٨٣.

وَوَجْـــدُ بَنِـــي عِيَـــاضٍ بِالمَعَـــالِي   مَـــدَى الـــدُّنْيَا حَـــدِيثٌ مُـــسْتَفَاضُ
إِذَا قَـــصَدُوا أَثَـــارُوا البَحْـــرَ جُـــوداً   وَسَـــالُوا بِالمَكَـــارِمِ ثُـــمَّ فَاضُـــوا
فَقُلْـــتُ لَهُـــمْ وَمَـــنْ مِـــنْهُمْ عِيَـــاذِي   فَقَالَـــتْ ذَاكَ سَـــيِّدُهُمْ عِيَـــاضُ

ثم يستعرض الصفات الجليلة التي وسمت هذا الفقيه، فهو عالم بالشرع وأحكامه، حليم على من يجهل عليه، وله خبرة كبيرة في القضاء اكتسبها من سعة علمه بأمور الشريعة والدين، وهو صبور على من آذاه وأساء إليه، وهو صليب في الحق ،لا يخشى في الله لومة لائم، ولا يحابي أحداً على حساب الدين، وهو أديب رفيع المستوى، وله مكانته الأدبية، أما في المشورة فهو صاحب رأي سديد، يستشار في الأمور التي يعجز الفقهاء عن الخوض فيها، وهو فقيه ذو همة عالية، يتطلع إلى المعالي التي هو جدير بها، ويختم لوحته بوصف عياض وقومه، بأنهم أهل نجدة وحمية لا يُذَلّ ولا يهان من التجأ إليهم طالباً العون والمساعدة، أو الحماية، فيقول:

إِمَـــامٌ زَانَـــهُ حِلْـــمٌ وفَـــضْلٌ   لَـــهُ بِالخُطَّـــةِ العُلْيَـــا انْتِهَـــاضُ
يُقَـــارِضُ مَـــنْ أَسَـــاءَ بِحُـــسْنِ صَـــبْرٍ   وَأَمْـــرُ الـــدِّينِ وَالـــدُّنْيَا قِـــرَاضُ
فَفِـــي الآدَابِ جَـــدْوَلُ مَـــاءٍ مُـــزْنٍ   وَفِـــي الآرَاءِ بَحْـــرٌ لا يُخَـــاضُ
يَهِـــيمُ بِكُـــلِّ مَعْلُـــوَةٍ وَفَـــضْلٍ   كَمَـــا قَـــدْ هَـــامَ بِالعَلْيَـــا مُـــضَاضُ[1]
وَمَـــنْ تَعَلَّـــقْ حِبَـــالَ بَنِـــي عِيَـــاضٍ   يَـــدَاهُ فَـــلا يُـــضَامُ وَلا يُهَـــاضُ

ــ رثاء الفقهاء:

إذا كان الهدف من القصائد والأشعار التي مُدح بها الفقهاء الإعلاء من شأنهم، ورسمَ هالة من العظمة والأبهة والمثالية حولهم، والمبالغة أحياناً في عرض صفاتهم وأحوالهم، فإن صورة الفقيه في قصيدة الرثاء تبدو أكثر صدقاً وأشد حرارة من قصيدة المديح، ذلك أن الفقيه في هذه القصائد لا يرجى منه شيءٌ ، لذلك عرض الشعراء فيها كل معاني الوفاء والاحترام والتقدير والإعجاب، ممزوجة بالحسرة والألم، على غياب هؤلاء الأعلام الكبار، ثم إبراز الدور الذي قاموا به في خدمة الإسلام ،وتصوير الفراغ الكبير الذي خلفه موتهم في حياة الأمة ودينها، وافتقار الدين إلى مثل هؤلاء الفقهاء العاملين.

ومن الفقهاء الذين تسابق الشعراء في ذكر محاسنهم وصفاتهم وتخليد ذكراهم بعد موتهم الفقيه أبو مروان بن سراج[1]،فقد رثاه الشيخ أبو بكر بن خازم[2] بقصيدة عبر فيها عن شدة

([1]) هو مضاض بن عمرو الجرهمي، كان إليه قديماً ملك مكة.

الإحباط الذي أصاب أهل العلم وطلابه بموت هذا الفقيه الذي لا نظير له، ولا بديلاً يقوم مقامه، فقد توقف شلال العلم بموته، وخسر طلاب العلم خسارة لا يعوضها أحد، لأنه وحيد عصره في العلم، بل هو موسوعة علمية شاملة لكل أنواع العلوم والمعارف، فهو كالغيث الذي إذا ما نزل عمّ خيرُه الجميع، فيقول[3]، وهو من الطويل:

فَيَا طَالِبَاً لِلعِلْمِ لا تَطْلُبَنَّهُ ... بِطَيِّ الثَّرَى قَدْ غَادَرُوا العِلْمَ أَجْمَعَا
أَبَعْدَ أَبِي مَرْوَانَ تُبْصِرُ عَالِمَاً ... نَبِيهَاً لأَنْوَاعِ العُلُومِ مُجَمِّعَا
إِذَا مَا احْتَبَى فِي مَجْلِسِ العِلْمِ أَنْصَتُوا ... لَهُ وَأَتَى بِالمُعْجِزَاتِ فَأَبْدَعَا
وَمَا كَانَ إِلا الغَيْثَ عَمَّ بِنَفْعِهِ الْـ ... أَنَامَ فَلَمَّا عَمَّ بِالرِيِّ أَقْلَعَا

أما الفقيه أبو عبد الله بن أبي طالب القيسي[4]، فقد صور الفاجعة الكبيرة بموت الفقيه ابن سراج، فصدعت قلوب المسلمين وأدمت عيونهم، بفقد خادم القرآن الكريم والحديث الشريف، ومُجلي أحكامهما، فيقول[5]: وهو من الكامل.

أَوْدَى سِرَاجُ المَجْدِ وَابْنُ سِرَاجِهِ ... فَلَنُورِ شَمْسِ المَكْرُمَاتِ أُفُولُ
لَوْ كَانَ عِلْمُ الدِّينِ يَبْكِي مَيِّتَاً ... لَبَكَى الحَدِيثُ عَلَيْهِ وَالتَّنْزِيلُ

ثم يصور الخدمات الجليلة التي قدمها ابن سراج للإسلام والمسلمين، والمتمثلة بالغوص في أعماق الحديث الشريف واستنباط أحكامه، وفهم مدلولاته كما أراد الرسول من ذلك، وكذلك الخدمة الجليلة التي قدمها هذا الفقيه لمتلقي العربية، والمتمثلة في السعي إلى تسهيل قضايا النحو العربي وقواعده وجعله هيناً ميسراً لطلاب العلم، بالإضافة إلى ما يتمتع به هذا الفقيه من طلاقة فذّة، وقوة في اللغة، وقد صوره بالسراج الذي يعم نوره كل مكان، وبانطفائه خسر العلم ركناً أساسياً من أركانه التي يقوى بها، يقول فيه:

([1]) هو أبو مروان عبد الملك بن سراج بن عبد الله بن محمد بن سراج، إمام أهل الأندلس في علم لسان العرب، وضبط لغاتها في عصره، وإليه كانت الرحلة ترجع من جميع جهات الأندلس، توفي سنة ٤٨٩هـ. انظر: ، ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الأول، المجلد الثاني، ص٨٠٨-٨١٢.

([2]) هو خازم بن محمد بن خازم ، يكنى أبا بكر ، من أهل قرطبة، وكان وافر الأدب، وله تصرف في اللغة وقول الشعر، ولم يكن بالضابط لما رواه، توفي سنة ٤٩٦هـ . انظر: ابن بشكوال . **الصلة**، ج١، ترجمة رقم ٤١٢، ص ١٨٠.

([3])، ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الأول، المجلد الثاني، ص٨١٣.

([4]) هو أبو عبد الله جعفر بن مكي بن أبي طالب القيسي، كان عالماً باللغة والآداب، توفي سنة ٥٣٥هـ. انظر: ابن سعيد المغربي . **المغرب في حلى المغرب**، ج١، ص١٠٨-١٠٩.

([5])ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الأول، المجلد الثاني، ص٨١٥.

كَـمْ مِـنْ حَـديثٍ لِلنَّبيِّ أبَانَـهُ   فَبَدَتْ لَـهُ غُـرَرٌ تُـرَى وَحُجُـولُ
كَـمْ مُـصْعَبٍ فِـي النَّحْـوِ رَاضَ جِمَاحَـهُ   حَتَّـى غَـدَا وَالـصَّعْبُ مِنْـهُ ذَلُـولُ
أدْنَـى إلَـى الأفْهَـامِ نَـائِيَ عِلْمِهَـا   حَتَّـى تَـسَاوَى عَـالِمٌ وَجَهُـولُ
طَـبٌّ بِـأدْوَاءِ الكَـلامِ مُثَقِّـنٌ   سَـهْمٌ عَلَـى عَوْرَاتِـهِ مَـدْلُولُ

أما الشاعر أبو محمد عبد المجيد بن عبدون[١]، فقد رثى ابن سراج في قصيدة طويلة، أجاد فيها بإبراز المكانة التي تمتع بها هذا الفقيه، والمنزلة الرفيعة التي وصل إليها ، فشبهه بالبحر لسعة علمه، وكثرة عطائه ، وبالجبل الذي لا تهزه النائبات، ويتساءل بألم وحسرة عن مصير العلوم التي كان يتولى أمرها ونشرها بين طلاب العلم، فصورها بالأطفال اليتامى الذين فقدوا العائل المسؤول عنهم وعن رعايتهم، وهو بهذا يشير إلى المكانة التي حازها، ومدى الاحترام والتقدير الذي حظي به هذا الفقيه من عامة الناس.فيقول[٢]: وهو من البسيط.

فَمَـا سَـمِعْنَا بِبَحْـرٍ غَـاضَ فِـي جَـدَثٍ   وَكَـانَ مِـلْءَ الرُّبَـى يَرْمِـي بِأزْبَـادِ
وَلا بِطَـوْدٍ رَسَـا تَحْـتَ الثَّـرَى وَسَـمَا   عَلَـى السُّهَا حَمَلُـوه فَـوقَ أعْـوَادِ
مَـنْ لِلعُلُـومِ إذَا مَـا ضَـلَّ نَاشِـدُهَا   فِـي ظُلْمَـةِ الشَّكِّ بَعْـدَ النَّيِّـرِ الهَـادِي؟
مَـنْ لِلحَـدِيثِ إذَا مَـا ضَـاقَ حَامِلُـهُ   ذَرْعَـاً بِمَـتْنٍ وَإيـضَاحٍ وَإسْـنَادِ؟
مَـنْ لِلـتِلاوَةِ أوْ مَـنْ لِلرِّوَايَـةِ أوْ   مَـنْ لِلبَلاغَـةِ بَعْـدَ العَـادِ وَالبَـادِي؟

وتكاد الصورة نفسها يكررها أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن طريف[٣]، عندما يصور المنزلة الرفيعة التي وصل إليها هذا الفقيه، والضربة القوية التي أصابت العلم وأهله، والفراغ الكبير الذي خلفه عندما يقول[٤]: وهو من المتقارب.

فَمَـنْ لِخَفَايَـا حَـدِيثِ الرَّسُـولِ   وَمَـنْ لِغَـوَامِضِ عِلْـمِ الكِتَـابِ
وَمَـنْ ذَا يُـرَوِّي ظَمَـاءِ العُقُـولِ   وَيَـشْحَذُ ألبَـابَهُنَّ النَّـوَابِي

---

(١) هو أبو محمد عبد المجيد بن عبدون، أحد الزعماء في صناعة الشعر والنثر وثبوت القدم في الأدب، توفي سنة ٥٢٩هـ. انظر: ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الأول، المجلد الثاني، ص٨١٦.

(٢) ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الأول، المجلد الثاني، ص٨١٧-٨١٨.

(٣) هو أحمد بن عبد الله بن طريف، فقيه أديب محدث، يكنى أبا الوليد، توفي سنة ٥١٩. انظر: الضبي. **بغية الملتمس**، ترجمة رقم ٤٢٨، ص١٦٠.

(٤) الضبي. **بغية الملتمس**، ص٨١٨.

ويركز الفقيه أبو عبد الله القرشي[1] في رثائه للفقيه ابن سراج على سعة علمه، وفهمه الدقيق لأحكام الدين ومطالبه، وقدرته الكبيرة في تبسيط هذه الأحكام الشرعية وتيسيرها، وتسهيل المصاعب التي تعترض تعلم النحو العربي، ثم يبين عظم المصيبة التي حاقت بالإسلام، والأثر البالغ في نفوس المسلمين، فيقول في التعبير عن المصاب الكبير بموته، والحزن الشديد الذي عم البلاد، وعبر عنه بتكرار السؤال بكم[2]، وهو من الطويل:

فَثُلَّ ذُرَا عَرْشِ العُلا وَتَنَاثَرَتْ نُجُومُ اللَّيَالِي مِنْ مَرَاتِبِهَا وَهْيَا
وَكَمْ آيَةٍ لِلدِّينِ بَيَّنَ شَرْحَهَا وَلَمْ يَعْتَرِفْهَا عَنْ جَوَابٍ وَلا فُتْيَا
وَكَمْ مُصْعَبٍ فِي النَّحْوِ رَاضَ جِمَاحَهُ فَعَادَ ذَلُولاً بَعْدَمَا كَانَ قَدْ أَعْيَا
وَكَمْ مِنْ حَدِيثٍ لِلنَّبِيِّ أَبَانَهُ وَأَلْبَسَهُ مِنْ حُسْنِ مَنْطِقِهِ وَشْيَا

ورسم ابن شهيد[3] لوحة فنية جميلة للفقيه أبي العباس أحمد بن ذكوان، قاضي الجماعة بقرطبة، عندما رثاه بمجموعة من الأبيات، أسبغت عليه ظلال العظمة والهيبة والجلال.

فقد صور موت الفقيه ابن ذكوان بأنه فاجعة كبيرة، ومؤلمة، لحقت بالإسلام والمسلمين ليس لأن خير البرية "ابن ذكوان" قد فارق الحياة، بل لأن موته شكّل ضربة قوية للعلم، فخسارة العلم كبيرة بموت هذا الفقيه الكبير، وهذا يدل على المكانة السامية التي تمتع بها ابن ذكوان، وأحاطه بها أهل الأندلس عامة، وما كان يحمله من العلم والدين وينشره بين الناس، وفي هذا يقول[4]، وهو من الطويل:

ثَكِلْنَا الدُّنَى لَمَّا اسْتَقَلَّ وَإِنَّمَا فَقَدْنَاكَ يَا خَيْرَ البَرِيَّةِ نَاعِبَا
وَمَا ذَهَبَتْ إِذْ حَلَّ فِي القَبْرِ نَفْسُه وَلَكِنَّمَا الإِسْلامُ أَدْبَرَ ذَاهِبَا
يَسِيرُ بِهِ النَّعْشُ الأَعَزُّ وَحَوْلَهُ أَبَاعِدُ كَانُوا لِلمُصَابِ أَقَارِبَا

---

(1) هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن، يكنى أبا عبد الله ويعرف بالأحمر، تتلمذ على أبي مروان بن سراج وكان حافظاً للفقه على مذهب مالك، متفنناً في المعارف والعلوم، توفي سنة ٥٤٢هـ، بعد أن كف بصره. انظر: ابن بشكوال. **الصلة**، القسم الثاني، ترجمة رقم ١٢٩٥، ص٥٨٩.

(2) ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الأول، المجلد الثاني، ص٨٢٠.

(3) هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عبدالملك بن شهيد الأشجعي، من العلماء بالأدب ومعاني الشعر وأقسام البلاغة، وكان حين وفاته حامل لواء الشعر والبلاغة، توفي سنة٤٢٦هـ. انظر:الحميدي. **جذوة المقتبس**، تح: روحية السويفي، ترجمة رقم ٢٣٢، ص١١٧ــ ١٢٠.

(4) المقري. **نفح الطيب**، ج٣، ص٣٥٩-٣٦٠، وانظر: ابن شهيد. **الديوان**، تح: محيي الدين ديب، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط١، ١٩٩٧، ص٥٠-٥١.

ولكي يبرز المكانة الجليلة لهذا الفقيه فقد صور الملائكة عليهم السلام وهم يحتشدون حول النعش يلقون عليه التحية، ويصافحونه مصافحة المودع الحزين، ثم يصور الجموع المحتشدة حول الضريح وقد أصابهم الذهول، والارتباك، والحزن الشديد لموت هذا الفقيه، وما حزنهم وبكاؤهم عليه إلا اعترافاً بفضله ومكانته، فيقول:

عَلَيْهِ حَفِيفٌ لِلْمَلائِكِ أَقْبَلَتْ ... تُصَافِحُ شَيْخاً ذَاكِرَ اللهِ تَائِبَا

تَخَالُ لَفِيفَ النَّاسِ حَوْلَ ضَرِيحِهِ ... خَلِيطَ قَطَا وَافَى الشَّرِيعَةَ هَارِبَا

إِذَا مَا امْتَرُوا سُحْبَ الدُّمُوعِ تَفَرَّعَتْ ... فُرُوعُ البُكَا عَنْ بَارِقِ الحُزْنِ لاهِبَا

ثم يصور عمق الفاجعة التي خلفها موت هذا الفقيه، والفراغ الذي تركهم يعيشون في وحشته، فهو من جهة، الفقيه العالم الذي يغترفون من معين علمه، ومن جهة ثانية، هو الملجأ الذي يأوون إليه وقت المحن والشدائد، فلذلك ليس من الغرابة أن تتفطر الأكباد حزناً وألماً لموت هذا الفقيه الجليل. يقول في هذا المعنى:

فَيَا لَهْفَ قَلْبِي آهِ ذَابَتْ حُشَاشَتِي ... مَضَى شَيْخُنَا الدَّفَّاعُ عَنَّا النَّوائِبَا

وَمَاتَ الذِي غَابَ السُّرُورُ لِمَوْتِهِ ... فَلَيْسَ وَإِنْ طَالَ السُّرَى مِنْهُ آيِبَا

ثم يعرض الشاعر بعض المناقب التي تحلى بها ابن ذكوان، ويأتي في مقدمتها العظمة التي اكتسبها بعلمه وصفاته وخلقه، والتفاف الناس حوله، ثم الهيبةُ والجلالُ اللذان يحوطه بهما الناس، والاحترام والتقدير والخضوع الذي يبديه الآخرون له. يقول في ذلك:

وَكَانَ عَظِيماً يُطْرِقُ الجَمْعُ عِنْدَهُ ... وَيَعْنُو لَهُ رَبُّ الكَتِيبَةِ هَائِبَا

وَذَا مِقْوَلٍ عَضْبِ الغِرَارَيْنِ[1] صَارِمٍ ... يَرُوحُ بِهِ عَنْ حَوْمَةِ الدِّينِ ضَارِبَا

علاوة على أن الله قد وهبه لساناً حاداً قاطعاً، وظَّفه في خدمة الإسلام والمسلمين، ويذود عن الدين ويحمي حماه.

ويصور الشاعر ابنُ الحناط [2] الفقيه أبا العباس بن ذكوان بأنه زينة الدهر وفخره وأن دنيا لا تحتضن ابن ذكوان هي دنيا قبيحة لا حسن فيها، والحياة بدونه مرة لا طعم لها، والأيام

---

(1) الغرار: حد السيف أوالرمح أوالسهم.

(2) هو أبو عبدالله محمد بن سليمان بن الحناط الرعيني الأعمى القرطبي نشأ نشأة أعانته على أن يبلغ غاية من العلم، وكان الغالب عليه المنطق حتى اتهم في دينه، وكان بنو ذكوان هم الذين كفوه مؤونة الدهر وفرغوه للاشتغال بالعلم، توفي سنة ٤٣٠هـ. انظر: الأندلسي، ابن سعيد. **المغرب في حلى المغرب**، ج١، ص١٢١ــ١٢٤. الحميدي. **جذوة المقتبس**، ترجمة رقم ٦٠، ص ٥١ــ٥٢.

القادمة سوداء لا خير فيها، لذلك لم يتمالك الشاعر نفسه فيبكي ابن ذكوان الذي رحل، ويبكي الأيام السوداء التي خلفها موت هذا الفقيه فيقول[1]: وهو من الطويل.

عفَاءٌ عَلَى الأَيَّامِ بَعْدَ ابْنِ ذَكْوَانِ ... وَقُبْحاً لِدُنْيَا غَيَّرَتْ كُلَّ إِحْسَانِ

سَأَبْكِي دَماً بَعْدَ الدُّموعِ بِعَبْرَةٍ ... تُغَيِّرُ أَجْفَانِي وَتَعْبِرُ عَنْ شَانِ

وَإِنَّ حَيَاتِي اليَوْمَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ... دَلِيلٌ بِأَنَّ الغَدْرَ فِي كُلِّ إِنْسَانِ

ويصور ابن الحناط الدور الكبير الذي قام به ابن ذكوان في خدمة الإسلام، ولا يصدق أن الموتَ قد اختطفه، فبموته تضعضعت أركان الدين، وتهدم ركن أساسي وفاعل من أركانه، ثم يصور الجو العام الذي أعقب موته، فالحزن يخيم على كل شيء، حتى إن المكارم والأمجاد شعرت باليتم؛ لعدم وجود من يحييهما ويقوم عليهما، فهو صاحب المكارم والأمجاد، وباعث الحياة فيهما. يقول:

أَحَقّاً سِرَاجُ العِلْمِ أَخْمَدَهُ الرَّدَى ... وَهَدَّمَ رُكْنَ الدِّينِ مِنْ بَعْدِ بُنْيَانِ

وَغُودِرَ فِي دَارِ البِلَى عَلَمُ الهُدَى ... مُزَعْزِعَ آسَاسٍ مُضَعْضَعَ أَرْكَانِ

فَشَقَّتْ عَلَيْهِ المَكْرُمَاتُ جُيُوبَهَا ... وَأَلْقَتْ رُؤُوسُ المَجْدِ عَنْهَا بِتِيجَانِ

وللفقيه أبي بكر بن ذكوان[2] مكانة لا تدانيها مكانة عند أهل الأندلس، ومصيبتهم في موته لا تعدلها مصيبة، فقد صوره ابن زيدون[3] بالقمر الذي يضفي عليهم أنواره بما يفيضه عليهم من العلم، وينير لهم طريق حياتهم، فهو وإن كان غير مصدق من هول الصدمة بأن يدفن مثل هذا العلم، ويُهال عليه التراب، إلا أنه يغبط هذا التراب الذي حُثي فوقه لما ناله من شرف وتكريم بضم رفات ابن ذكوان، ولعظم مكانته العلمية، وقدره الديني، يستغرب ابن زيدون كيف للنعش قدرة على حمل هذا الفقيه الكبير، يقول في هذا[4]: وهو من الكامل.

وَلَّى أَبُو بَكْرٍ فَرَاعَ لَهُ الوَرَى ... هَوْلٌ تَقَاصَرَ دُونَهُ الأَهْوَالُ

---

(1) عياض. **ترتيب المدارك**، ص٦٦٦-٦٦٧.

(2) هو محمد بن أحمد بن عبد الله بن ذكوان، قرأ العلم وسمع الحديث، وكان الحذاق يتباهون بمجالسته، رامه الرئيس ابن جهور، على أخذ مال الأوقاف، لينفقه على المصالح، فلم يوافقه عليه، توفي سنة ٤٣٥هـ. انظر: عياض. **ترتيب المدارك**، ص٧٨٤.

(3) هو أحمد بن عبد الله بن غالب بن زيدون المخزومي، المعروف بأبي الوليد، من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة في أيام الجماعة والفتنة، وأصبح فيما بعد من خواص المعتضد بن عباد، توفي سنة ٤٦٣هـ. انظر: ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الأول، المجلد الأول، ص٣٣٧.

(4) ابن زيدون. **الديوان**، تقديم وشرح أحمد الفاضل، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ٢٠٠٤، ص١٤٥-١٤٧. وعياض. **ترتيب المدارك**، ص٧٨٥.

قَمَـرٌ هَـوَى فِـي التُـربِ يُحثَّـى فَوقَـهُ   للهِ مَـا حَـازَ الثَّـرَى المُنْهَـالُ
قَـدْ قُلْـتُ إذْ قِيْـلَ السَّرِيرُ يُقِلُّـهُ   هَـلْ لِلسَّرِيرِ بِقَـدْرِهِ اسْـتِقْلالُ؟

ثم يعرض ابن زيدون جملة من الفضائل والشمائل التي اتصف بها هذا الفقيه، فهو إلى علمه الواسع الفذ صاحب أخلاقٍ عالية ونفس طيبة، وقد حاز من الشرف والمجد ما أصبح به مضرب الأمثال، ورغم أن الفقيه قد مات ولم يتجاوز الأربعين من عمره، إلا أن ابن زيدون يصوره بصاحب الفضل الكامل، وصاحب المكارم العلمية الخالدة، التي خلفها لمن بعده من المسلمين، وهذا دلالة على المكانة الرفيعة التي كان يحتلها هذا الفقيه عند الأندلسيين، يقول في ذلك:

شِـيَمٌ يُنَـافِسُ حُسنَهَا إحْـسَانُهَا   كَالرَّاحِ نَافَسَ طَعْمَهَا الجِريَـالُ[1]
يَـا مَـنْ شَـأى[2] الأمثَـالَ مِنْـهُ وَاحِـدٌ   ضُـرِبَتْ بِـهِ فِـي السُّؤدُدِ الأمْثَـالُ
نَقَـصتَ حَيَاتُـكَ حِـينَ فَـضْلُكَ كَامِـلٌ   هَـلاَّ استَـضَافَ إلَـى الكَمَـالِ كَمَـالُ
وَدَّعْـتَ عَـنْ عُمُـرٍ عَمَـرْتَ مَـصِيرَهُ   بِمَكَـارِمٍ أعْمَـارُهُنَّ طِـوَالُ

ويصور ابن زيدون حال المجالس العلمية بعد رحيل ابن ذكوان، فرحيله فتح باب النزاع والخلاف بين العلماء، وأصبح الجهال يزاحمون العلماء الحلماء، وما كان هذا يحدث لو كان هذا الفقيه حاضراً، فوجوده يحسم كل الأمور الخلافية بين هؤلاء العلماء؛ لما يتمتع به من فكر وعلم وهيبة ومكانة في نفوس الآخرين، فيقول:

مَـنْ لِلنَّـدِيِّ إذَا تَنَـازَعَ أهْلُـهُ   فَاسْـتَجْهَلَتْ حُلَمَـاءَهُ الجُهَّـالُ
لَـوْ كَـانَ شَـاهِدَهُم لَقَـلَّ مِـرَاؤُهُم   لأغَـرَّ فِيـهِ مَـعَ القَضَـاءِ جَـلالُ

ثم يصور الخسارة التي خسرها المجتمع المسلم بفقد هذا الفقيه الذي سبب هزة واضطراباً في أركانه، فهو قطب رحى الإسلام، وأحد المراجع الأساسية المؤثرة التي يعوّل عليها المسلمون في أمور حياتهم. فقد فقد العلم أحد أقطابه الأعلام، وفقد القضاء أحد أبرز المراجع الفقهية والقضائية التي يستأنس برأيها إذا ما اعترضت طريقه إشكالات بحاجة إلى قرار فصل، وفقد اليتامى أكبر ناصر ومعين لهم، وأصدق مدافع عن حقوقهم وأمين على أموالهم، فيقول:

مَـنْ لِلعُلُـومِ فَقَـدْ هَـوَى العَلَـمُ الَّـذِي   وَسَـمَتْ بِـهِ أنْوَاعَهَـا الأغْفَـالُ
مَـنْ لِلقَـضَاءِ يَعِـزُّ فِـي أثْنَائِـهِ   إيـضَاحُ مُظلِمَـةٍ لَهَـا إشْـكَالُ

---

(1) الجريال: لون الخمر.
(2) شأى : سبق.

مَـــــنْ لِليَتِــــــيمِ تَتَابَعَــــــتْ أَرْزَاؤُهُ   هَلَـــكَ الأبُ الحَـــانِي، وَضَـــاعَ المَـــالُ

ويختصر ابن زيدون كل ما سبق ببيت من الشعر يصور فيه عظمة هذا الفقيه، ويبين أنـه من الصعوبة أن ينجب الزمان شبيهه أو يعوضهم بمثله، لأنه أصبح وسماً جميلاً لهـذا الزمـان، وعلامة بارزة في حياة المجتمع الأندلسي، فيقول:

هَيْهَـــاتَ لا عَهْـــدٌ كَعَهْـــدِكَ عَائِـــدٌ   إذْ أَنْـــتَ فِـــي وَجْـــهِ الزَّمَـــانِ جَمَـــالُ

أما الفقيه يحيى الكناني[١]الذي كان إماماً في الفقه، ضابطاً لما روى، عالماً بكتبه، وكانت له منزلة شريفة عند العامة والخاصة والسلطان[٢]، فقد صوره الشاعر سعدون الروحي[٣]، ورسم له صورة مثالية عظيمة الشأن، إذ صور وجوده في الأندلس والمكانة السامية التي كان يتمتع بها بالبدر الذي يقتبس من نوره وضيائه جميع أهل الأندلس، ، وهو زينة ذلك العصر وفقدانه وموته أحال البلاد إلى ظلام وحزن شمل الأندلس كلها، وصوره بالسراج الذي يتحلق حوله طالبو العلم، وما أن ينطفئ وينفد زيته، حتى يطوي هؤلاء سجلاتهم ويتوقفون عن طلب العلم من نبعه الصافي يقول[٤] في ذلك: وهو من البسيط.

عَـــيْنٌ أَلَـــمَّ بِهَـــا وَجْـــدٌ وَلَـــمْ تَـــنَمِ   تَبْكِـــي بِـــدَمْعٍ كَـــنَظْمِ الـــدُرِّ مُنْـــسَجِمِ

يَـــا مَـــوْتُ أَثْكَلْتَنَـــا يَحْيَـــى وَكَـــانَ لَنَـــا   فِي بَلْـــدَةِ الغَـــرْبِ مِثْـــلَ البَـــدْرِ فِـــي الظُّلَـــمِ

مَـــا كَـــانَ إلا سِـــرَاجاً يُسْتَـــضَاءُ بِـــهِ   فِي العِلْـــمِ يَسْمَعُ مِنْـــهُ العِلْـــمُ فِـــي الحِكَـــمِ

ثم يصور المكانة العظيمة التي كان يحتلها هذا الفقيه، من خلال التركيز على الدور الـذي كان يقوم به في الأندلس، فقد كان الملجأ الذي يسكنون إليه في أوقات الشدة، والخوف، وهم الآن مكشوفو الظهر لا ملجأ لهم، وكان وجوده بينهم كالسيف الذي يُعز به الدين، ويحمي كل محروم، ثم هو الوسيلة المتاحة للإصلاح، عندما يحدث انحراف عن مبادئ الحق. يقول في ذلك:

وَكَـــانَ يَحْيَـــى إذَا خِفْنَـــا لَنَـــا حَرَمَـــاً   يُلْجَـــى إِلَيْـــهِ فَقَـــدْ صِـــرْنَا بِـــلا حَـــرَمِ

وَكَـــانَ يَحْيَـــى لَنَـــا سَـــيْفَاً نَعِـــزُّ بِـــهِ   الـــدِّينَ الحَنِيـــفَ، وَيَحْمِـــي كُـــلَّ مُهْتَـــضَمِ

وَكَـــانَ يَحْيَـــى لَنَـــا فِـــي الـــزَّائِغِينَ إِذَا   ضَـــلُّوا لِـــسَانَاً يَبِـــينُ الحَـــقَّ عَـــنْ أَمَـــمِ

([1]) هو يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكناني، أندلسي من أهل جيان، وعداده من الأفريقيين، سكن القيروان وكان فقيهاً حافظ الرأي، وشرفت منزلته عند العامة والخاصة، توفي سنة ٢١٣هـ. انظر: عياض. **ترتيب المدارك**، ص٢٣٤-٢٤١.

([2]) انظر: عياض. **ترتيب المدارك**، ص٢٣٥.

(3) لم أعثر له على ترجمة في حدود المصادر المتوفرة.

([4])انظر: عياض. **ترتيب المدارك**، ص٢٤٠-٢٤١.

ثم تنهمر الكلمات من لسان الشاعر شلالاً متدفقاً، في رسم صورة زاهية مشرقة لهذا الفقيه، قوامها مجموعة من الصفات المثالية التي تخلّق بها واتصف، فيضعه في المقام الأول بين الفقهاء الذين ازدانت بهم الأندلس، فهو من أشجعهم في الحق وللحق؛ لما اتصف به من شدة وحزم، وهو فصيح اللسان بليغ البيان متكلمٌ ، وهو فوق ذلك كله فقيه من الطراز الأول، عالم بالأحكام الفقهية، وكان صاحب نخوة ونجدة يلجأ الناس إليه وقت الحاجة ، ويقف حائلاً دون الاعتداء على محارم الناس، فهو السيف المشرع في وجوه مثل هؤلاء، وهو المنادي باتباع سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم والالتزام بأحكامها، وهو طاهر النفس، نقي السريرة حاذقٌ بالكتابة،هذه اللوحة التي رسمها سعدون الروحي لهذا الفقيه، تعطي صورة واضحة وجلية عن مدى الاحترام والتقدير والهيبة التي حظي بها الفقهاء العاملون في ذلك العصر، لذلك ليس من الغريب أن يبكي الشاعر هذا الفقيه دماً بدلاً من الدموع ، تعبيراً عن حدة الفاجعة التي تصيب المسلمين، عندما يموت أمثال هؤلاء الفقهاء، فيقول:

لِتَبْكِ يَحْيَى عُيُونٌ بِالدُّمُوعِ فَإِنْ غَاضَتْ مَدَامِعُها فَلْتَبْكِهِ بِدَمِ
مَا كَانَ أَشْجَعَهُ، مَا كَانَ أَرْوَعَهُ مَا كَانَ أَفْصَحَهُ فِي مَحْفِلِ الكَلِمِ
مَا كَانَ أَفْقَهَهُ مَا كَانَ أَعْلَمَهُ مَا كَانَ أَحْمَاهُ عِنْدَ الخَوْفِ لِلْحُرَمِ
مَا كَانَ أَرْغَبَهُ فِي سُنَّةٍ دَرَسَتْ يَشِيدُ فِيهَا بِنَاءَ الحَاذِقِ الفَهِمِ
مَا كَانَ أَطْهَرَ تِلْكَ النَّفْسِ مِنْ رِيَبٍ مَا كَانَ أَكْتَبَ تِلْكَ الكَفُّ بِالقَلَمِ

وقال ابن دراج القسطلي[1] يرثي الفقيه إسماعيل بن محمد[2] الذي مات وهو في طريقه إلى الحج، فأسبغ عليه من الصفات الطيبة التي تعلي من شانه ومقداره بين الناس، فهو من أصحاب القدر العالي، والمكانة الرفيعة، ومن الفقهاء ذوي الشمائل الحرة النبيلة الفاضلة، وأهم ما يميزه الخشوع لله تعالى، ومخافته والعمل على مرضاته ، والتواضع الذي يزيده هيبة ومحبة من الناس فيقول[3]: وهو من البسيط.

فَأَيُّ قَدْرٍ رَفِيعٍ حَانَ مَحْمَلُهُ فِي النَّعْشِ يَوْمَاً عَلَى أَكْتَافِهِم رَفَعُوا

---

(1) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن العاصي بن دراج الأندلسي القسطلي، من أشهر شعراء الأندلس في وقته لُقّب بمتنبي الأندلس، وكان من المقربين من المنصور بن أبي عامر. انظر: ابن سعيد المغربي. **المغرب في حلى المغرب**، ج٢، ص٦٠، **الذخيرة**، القسم الأول، المجلد الأول، ص٥٩- ٩٥.

(2) هو إسماعيل بن محمد المعروف بابن فورتش، كان قاضي سرقسطة، توفي سنة ٤١٢هـ بمصر وهو في طريقه إلى الحج . انظر: ابن دراج القسطلي، **الديوان**، تح محمود علي مكي، الكتاب الإسلامي، ط٢، ١٩٦٨، ص ٢٦٦.

(3) القسطلي، ابن دراج. **الديوان**، ص ٢٦٦- ٢٦٩

وَأَيُّ مُخْتَشِعٍ للهِ مُتَّضِعٍ   حُرُّ الشَّمَائِلِ فِي حَرِّ الثَّرَى وَضَعُوا

ولما اتصف به هذا الفقيه من صفات عظيمة، فقد شاركت الحمائم في البكاء عليه، وبكت السماءُ بأمطارها حزناً لفراقه، وحملت الريح سمعته الطيبة وذكراه الحسنة، ورائحته الزكية وأخباره الجميلة، وطارت بها إلى كل مكان . يقول في هذا(١):

تَغْدُو عَلَيْهِ حَمَامُ الأَيْكِ بَاكِيَةً   وَتَسْتَهِلُّ عَلَى أَكْنَافِهِ القَلَعُ
وَالرِّيحُ تُهْدِي لَهُ مِنْ كُلِّ عَارِفَةٍ   عَرْفَاً وَتَحْمِلُ عَنْهُ فَوْقَ مَا تَدَعُ

ثم يصور المآل الحسن الذي آل إليه هذا الفقيه، ويجعل موته بهذه الطريقة بشارة خير له في الفوز بالنعيم الجزيل عند الله تعالى، فها هو يموت شهيداً وهو في طريقه إلى الحج، وسوف يكون ثوابه مضاعفاً، وصور الفرحة في السماء وهي تستقبل هذا الفقيه في جنات الله، فالحور العين ينتظرن لقاءه في خيام الجنة شوقاً إليه، وأبواب الجنة مشرعة تستقبل قدومه. يقول في هذا(٢):

بُشْرى لِمَنْ زُوِّدَ التَّقْوَى لِمُنْقَلَبٍ   حَيَّاهُ مُدَّخَرٌ فِيهِ ومُطَّلَعُ
بِمِيتَةٍ فِي سَبِيلِ اللهِ أَسْلَمَهُ   فِيهَا إِلَى رَبِّهِ الأَبْنَاءُ والشِّيَعُ
فِي حِجَّةٍ بِرُّهَا فِي اللهِ مُتَّصِلٌ   بِالمُحْرِمين عَنِ الأَوْطَانِ مُنْقَطِعُ
لبّى مِنَ الغَايَةِ القُصْوَى فَجَاوَبَهُ   حُورُ الخِيَامِ إِلَى لُقْيَاه تَطَّلِعُ
واسْتَفْتَحَ الكَعْبَةَ العَلْيَاءَ فَافْتُتِحَتْ   لَهُ إِلَى الجَنَّةِ الأَبْوَابُ وَالشُّرَعُ

ثم ينتقل ابن دراج إلى ذكر مناقب الفقيه المرثي وشيمه الأصيلة ،التي أصبحت تلهج بها الألسنة وتثني عليها، وقد صور الفقيه بصورتين جميلتين معبرتين، شبهه في الأولى بالمسك الذي يختفي وتبقى رائحته الزكية التي تنعش الأرواح، وفي الثانية بالغيث الذي يصيب الأرض ويتوقف، ولكن أثره على الأرض باقٍ ينعم به الناس، وكذلك الفقيه فهو وإن غاب جسده، ووري التراب إلا أن أثره العلمي والخلقي بقيا مآثر يهتدي بها الناس ويقتدوا، فالأصل يذهب ويتلاشى ويبقى الأثر الذي يحدثه دال عليه. يقول في ذلك(٣):

فَكَيْفَ تُوحِشُكَ الدُّنْيَا إِلَى شِيَمٍ   لِذِكْرِهَا فِي الوَرَى مَرْأى ومُسْتَمَعُ
تُتْلَى فَيَعْبَقُ فِيهَا كُلُّ ذِي تَفَلٍ   طِيبَاً وَيَعْذُبُ مِنْهَا الصَّابُ والسَّلَعُ(٤)

(1) القسطلي، ابن دراج. الديوان، ص٢٦٧.

(2) القسطلي، ابن دراج. الديوان، ص٢٦٨.

(3) القسطلي، ابن دراج. الديوان، ص٢٦٩.

(4) التفل: تغير الرائحة، والسلع: شجر مُر.

قَدْ حَمَّلَتْ أَلسُنُ المُثْنِينَ مَا حَمَلَتْ وَأَوْسَعَتْ أَيْدِيَ العَافِينَ مَا تَسَعُ
كالغَيْثِ يَنْأى وَمَا يَخْفَى لَهُ أَثَرٌ وَالمِسْكِ يُوعَى وَمَا يُوعَى لَهُ فَنَعُ(١)

ثم يخلص ابن دراج إلى بعض الأعمال الجليلة التي كان يتكفل بها الفقيه، راضياً لمساعدة الآخرين وكشف الضيم والظلم والفقر عنهم، ومفرج الكروب عن كواهلهم، في الوقت الذي لم يراعِ الموت هذه المكارم في الفقيه إسماعيل، وعندما يتصف فيه الفقيه بالحلم والورع، لم يكن كذلك الموت معه، وعندما يحمي الفقيه جاره من الظلم والضيم، لم يقابله الموت بمثله ويبقي على حياته، وعندما يقوم الفقيه بتفريج الكروب عن كواهل الناس، يكون الموت قد أجهز على حياته. يقول ابن دراج في ذلك(٢):

لِطَيِّبِ الذِّكْرِ مِنْ حِلْمٍ ومِنْ وَرَعٍ لَوْ كَانَ لِلْمَوْتِ حِلْمٌ عَنْهُ أَوْ وَرَعُ
وَمَانِعِ الجَارِ مِنْ ضَيْمٍ وَمِنْ عَدَمٍ لَوْ أَنَّهُ مِنْ حِمَامِ الحَيْنِ يَمْتَنِعُ
وَوَازِعِ الخَطْبِ عَنْ قُرْبٍ وَعَنْ بُعُدٍ لَوْ أَنَّ صَرْفَ الرّدَى مِنْ بَعْضِ مَا يَزَعُ

ورسم الأديب أبو محمد غانم بن وليد(٣) صورة معبرة للمكانة الجليلة والعلم الغزير، والحزن العميق الذي أصاب أهل الأندلس بموت الفقيه أبي علي بن حسون فيقول(٤)، وهو من الكامل:

لَو كَانَ يُبْقِي المَوتُ حَبْراً عَالِماً لَوَقَى الحِمَامُ أَبَا عَلِيٍّ وَاقِ
مَا أَنْصَفَتْ عُقْبَاكَ يَا طَلْقَ الرَّدَى أَرْدَيْتَ عَالِمَنَا عَلَى الإِطْلاقِ
وَلّى حُسَيْنٌ وَالمَحَامِدُ بَعْدَهُ كَيْلا تُقَاسِي جَاحِمَ الأَشْوَاقِ

فيصفهُ في هذه الأبيات بأنه وحيد عصره في العلم والمكانة، ولكن الردى اختاره دون غيره ، وهو الأحق بالبقاء حياً لو كان الموت بالاختيار، لحاجة الأندلس إلى أمثاله في ظل الظروف التي تعيشها، لقد مات ابن حسون، وترك خلفه مشاعر الحزن تضطرم ألماً لفراقه، وهو وإن مات، إلا أن سيرته العطرة وأخلاقه السامية ومحامده الكثيرة بقيت خالدة تذكر به، وتشيد بمآثره.

---

(1) فَنَعُ المسك :رائحته الطيبة الذكية.

(2) القسطلي، ابن دراج. **الديوان**، ص٢٦٩.

(3) هو غانم بن الوليد بن عمر بن عبدالرحمن المخزومي المالقي، عالم جليل، وفقيه مقدم، وأستاذ في الآداب مُجوّد، مع فضل وحسن طريقة، توفي سنة ٤٧٠هـ. انظر: الضبي. **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس**، ترجمة رقم ١٢٨٠، ص٣٨٦، وابن سعيد. **المغرب في حلى المغرب**، ج٢، ص٣١٧.

(4)ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الأول، المجلد الثاني، ص٨٦٦-٨٦٨.

رسم ابن وليد صورة زاهية توحي بعظمة هذا الفقيه ومنزلته التي لا تدانيها منزلة، فهو سيد مالقة وفقيهها وعالمها الذي يشار إليه، وزينتها التي تتباهى به وتفتخر، وهو فيها بمثابة العقد الذي يزين عنق الحسناء، والطوق الذي يلف أعناق الحمائم، فتكون أبهى وأجمل بوجوده، وتفقد بريقها وتألقها إذا هو غاب عنها. وفي هذا المعنى يقول[1]:

أَسَفِي لِرِيَّةَ كُنْتَ عِقْدَ جَمَالِهَا فَابْتُزَّ ذَاكَ العِقْدُ دُونَ وِفَاقِ
تَزْدَانُ مِنْكَ بِحُسْنِ مَا قَدْ طَوَّقَتْ زَيْنُ الحَمَامِ الوُرْقِ بِالأَطْوَاقِ

ثم يفصح ابن وليد عن بعض الصفات والمناقب التي تحلى بها هذا الفقيه، وجعلته يحتل المقام الرفيع في مالقة والأندلس، فعلاوة على العلم الواسع في أحكام الدين وفقهه، فهو فقيه حليم راجح العقل، كامل الصفات ، ذو وجه صبوح، مشرق يمتلئ نضارة، ويوحي بالبشر والخير والسعادة، فسبحان من وضع فيه هذه المكارم العظيمة. يقول في هذا[2]:

عِلْمٌ أُعِينَ بِفَضْلِ حِلْمٍ رَاجِحٍ أَخَذَ الأَمَانَ لَهُ مِنَ الإِخْلاقِ
وَصَبَاحَةٌ وَسَمَاحَةٌ قُسِمَتْ لَهُ رِزْقَاً تَبَارَكَ قَاسِمُ الأَرْزَاقِ

ويصور ابن وليد الإرث العلمي الكبير الذي خلفه ابن حسون لمن بعده، وهو شاهد على ما لهذا الفقيه من مكانة علمية في الأندلس، تفوق مكانة الشمس ورفعتها في السماء، فالشمس عندما تغيب ينتهي أثرها، ولا تخلف وراءها إلا الظلام، ولكن ابن حسون عندما غابت شمسه، ووسد في التراب، بقي أثره وإرثه الكبير متوهجاً في الآفاق، وبقيت مآثره الخالدة يقتبس منها طلبة العلم، ويتغنى بها الشعراء. يقول في هذا[3]:

ومِنَ الغَرِيبِ غُرُوبُ شَمسٍ فِي الثَّرَى وَضِيَاؤُهَا بَاقٍ عَلَى الآفَاقِ
أَبْقَيْتَ فِي الدُّنْيَا مَآثِرَ ثَرَّةً تَبْكِي خُلَى الأَيَّامِ وَهْيَ بَوَاقِ

ويختم رثاءه بوصف مجلسه العلمي الذي أصبح موحشاً قفراً بعد موته، بعد أن كان قبلة طلبة العلم، ولم يستطع أحد أن يملأ الفراغ الذي خلفه موت هذا الفقيه، فيصف هذا المجلس وقد غاب عنه السراج (الفقيه)بالليل عندما يغيب البدر، ويخلف وراءه ظلاماً حالكاً موحشاً، وهذا الموقف يجعل الشاعر يمتليء حزناً وألماً لفراق هذا الفقيه وموته، لأن الزمان الرديء الذي

---

(1)ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الأول، المجلد الثاني، ص٦٦٧.

(2)ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الأول، المجلد الثاني، ص٨٦٧.

(3)ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الأول، المجلد الثاني، ص٨٦٧

تعيشه الأندلس في ذلك العصر هو بأمس الحاجة إلى مثل هذا الفقيه؛ لإعادة التوازن إليه. يقول في ذلك[1]:

قَدْ كَانَ مَجْلِسُكَ المُبَارَكُ مَوْسِماً فَأَقَامَ أَوْحَشَ مِنْ غَدَاةِ فِرَاقِ
غُيِّبْتَ عَنْهُ مَغِيبَ بَدْرٍ كَامِلٍ وَاللَّيْلُ أَدْهَمُ ضَارِبٌ بِرُوَاقِ
وَمِنَ العَجَائِبِ وَالكُسُوفُ مُرَتَّبٌ قَمَرٌ تَوَارَى فِي زَمَانِ مَحَاقِ

ويصور الأديب الأصيلي في قصيدة يرثي بها الفقيه أبا عبد الله الفهري ، الذي قتل ظلماً، بالملجأ الآمن الذي يقصده أصحاب الحاجات، ويستظلون بظله إذا أتعبتهم الحياة، فيشعرون بالأمن والأمان في كنفه، وبموته انهدم هذا الركن الحصين، وذهب معه السخاء والكرم والفضل والجود، فموته ظلماً ، أخرس الألسنة ولجمها من هول الصدمة التي أذهلتهم، يقول الأصيلي[2]:وهو من الطويل.

عَلَى مَصْرَعِ الفِهْرِيِّ رُكْنِي وَمَوْئِلِي بَكَيْتُ وَأَبْكِي طُولَ عُمْرِي وَحُقَّ لِي
أَوَيْنُ مَنْ مَاتَ النَّدَى يَوْمَ مَوْتِهِ وَقَلَّصَ ظِلُّ الجُودِ عَنْ كُلِّ مُرْمِلِ[3]
وَمَا كَانَ صَمْتِي مُنْذُ حِينٍ لِسَلْوَةٍ وَلَكِنَّ عِظَمَ الرُّزْءِ أَخْرَسَ مِقْوَلِي

يرسم الأصيلي صورة جميلة ومشرقة وبهية للفقيه الفهري، الذي تتطلع إليه أنظار أصحاب الحاجات وهو الركن الحصين الذي يلتجئ إليه كل من أرهقته الحياة، وهو محط أنظار الشعراء الذين فقدوا بموته عنصراً أساسياً لموضوعاتهم، وعلى قبره تحطمت الآمال العريضة التي كان أصحابها يعولون عليه في تحقيقها لهم، فهذا الطود الشامخ هز بموته كل شيء، وجعل الناس يعيشون في حيرة واضطراب من أمرهم. وفي هذا يقول[4]:

إِلَى أَيِّ طَوْدٍ يُسْنِدُ الشِّعْرُ بَعْدَهُ وَقَدْ حَطَّ مِنْهُ الدَّهْرُ أَرْكَانَ يَذْبُلِ
تَوَلَّى ابْنُ إِبْرَاهِيمَ فَالغَرْبُ بَعْدَهُ لِكُلِّ غَرِيبِ الدَّارِ حَلْقَةُ جُلْجُلِ[5]
فَأَصْبَحَتِ الآمَالُ بَعْدَ مُحَمَّدٍ تُنَادِي أَلا بُعْداً لِكُلِّ مُؤَمِّلِ

---

(1) ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الأول، المجلد الثاني ص،٨٦٧.

(2)ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الثالث، المجلد الثاني، ص٨٦٦.

(3) المرمل: الفقير.

(4)ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الثالث، المجلد الثاني، ص٨٦٦.

(٥) الجلجل: الجرس الصغير.

ويدخل الأصيلي في لوحته هذه صورة القتلة المجرمين الرّعاع الجهلة الحساد اللئام، الغادرين، الذين ارتكبوا جريمة قتل هذا الفقيه، الذي صدّع القلوب وأدمى العيون بموته، وجعلها صورة مقابلة لصورة هذا الفقيه ، لكي يبرز المناقب الحسنة التي اتصف بها.

وفي الوقت الذي يصور الشاعر هؤلاء القتلة المجرمين بهذه الصور الدنيئة، نجده يرسم صورة مشرقة ونقية للفقيه، فهو عالم وأيُّ عالم، ليس له نظير، وهو من عائلة تتسم بالسيادة والشرف والمجد، وهو سيد شجاع، كريم الأفعال، شريف النسب، يقول في ذلك(١):

أَمَا إِنَّهُ وَالحَقُّ أَبْلَجُ وَاضِحٌ لَقَدْ جِئْتُمُ بِالْعَارِ يَا آلَ أَخْطَلِ
غَدَرْتُمْ فَكَانَ الغَدْرُ مِنْكُمْ سَجِيَّةً فَتَى العِلْمِ وَالمَجْدِ التَّلِيْدِ المُؤَثَّلِ
لِئَامٌ رِعَاعٌ جَاهِلُونَ تَحَاسَدُوا عَلَى قَتْلِ صِنْدِيْدٍ أَغَرَّ مُحَجَّلِ
سَقَى اللهُ قَبْراً ضَمَّ جِسْمَ مُحَمَّدٍ سَحَائِبُ تَتْرَى بِالْحَيَا الْمُتَنَزِّلِ

أما الشاعر الحجاري(٢)، فقد رسم لوحة ولا أجمل للفقيه القاضي ابن أدهم عندما داهمه الموت ، عبّر فيها عن الحزن العميق الذي خلفه موته على أهل الأندلس، ثم يصور تزايد موت الفقهاء والعلماء، ويشبه هذه الظاهرة بالشموس التي تغيب، والبدر الذي يأفل في كل حين، مخلفة وراءها فراغاً علمياً من الصعب تعويضه والإحاطة به، يقول في ذلك(٣)، وهو من الكامل:

أَمَّا الأَسَى فَعَلَيَّ مِنْهُ مَخَايِلُ نَفَسٌ أُصَعِّدُهُ وَدَمْعٌ سَائِلُ
فِي كُلِّ آونَةٍ إِلَى أُفْقِ الثَّرَى شَمْسٌ مُغَوَّرَةٌ وَبَدْرٌ آفِلُ

ثم يرسم صورة مهيبة جليلة للفقيه ابن أدهم(٤)،فيقسم بالقبر الذي يضمه بين جنباته،وهذا دلالة على عظمته ومكانته وهيبته،أن لو تعلم الأعداد الغفيرة من المشيعين أن هذا القبر المبارك الذي هو جنةٌ وروضة ، تفوح منها الرائحة الطيبة الزكية سيرقد فيه أبو الكرم والمكارم؛ لاتخذوه كعبة يحجون إليها، يتعلقون به ويتمسحون بجوانبه تقرباً وتبركاً، وفي هذا يقول(٥):

---

(1)ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الثالث، المجلد الثاني، ص٨٥٧.

(2) هو أبو حاتم الحجاريّ، من وادي الحجارة، فرد من أفراد العصر، شاعر متصرف في النظم والنثر، ولما انقرضت أيام ملوك الطوائف بالجزيرة، وكسدت بضاعة الشعر، بحث عن مورد آخر للرزق، فكان متقلباً بين شاعر وخطيب، وطبيب وجندي. انظر: ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الثالث، المجلد الثاني، ص٦٦١.

(3)ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الثالث، المجلد الثاني، ص٦٦١.

(4)هو عبيدالله بن أدهم ، من أهل قرطبة وقاضي الجماعة بها، يكنى أبا بكر، ولي القضاء في قرطبة، من أهل الصرامة في تنفيذ الحق، لا يخاف في الله لومة لائم، توفي سنة ٤٨٦هـ. انظر: ابن بشكوال. **كتاب الصلة**، القسم الأول، ترجمة رقم ٦٧٢، ص٣٠٤.

(5) ابن بشكوال. **الصلة**، القسم الأول ، ص٣٠٤.

أقْسَمْتُ بالجَدَثِ الَّذِي أنَا وَاقِفٌ أرْنُو إِلَيْهِ وَدَمْعُ جِفْنِيَ هَامِلُ
لَو يَعْلَمُ البَشَرُ المُطِيفُ بِأنَّهُ جَبَلٌ عَلَى كَبِدِ المَكَارِمِ نَازِلُ
لَثَمُوا جَوَانِبَهُ وقَدْ أرِجَ الهُدَى وَتَضَوَّعَ العَلْيَا وَفَاحَ النَّائِلُ
قُلْ لِجُفُونِكَ فِي حَدَائِقِ زَهْرِهِ فَمِنَ الغَمَامِ عَلَى الرِّيَاضِ شَمَائِلُ

ثم يشبه عظمة هذا الفقيه وعلمه بالبحر الكبير الواسع، الذي لا يحيط بمكارمه شيء، ولكنه على عظمته ومكانته عند الموت يقف مستسلماً لقضاء الله وقدره ، ثم يشير إلى الدور الكبير الذي قام به هذا الفقيه، عندما حاول إصلاح ما أفسده ملوك الطوائف، ومحاولة توحيدها ضد أعداء الأمة،وربما يشيد بدوره في السفارة التي كلّف بها بين أهل الأندلس والأمير يوسف ابن تاشفين أمير المرابطين من أجل إقناعه بالعبور إلى الأندلس لإعادة هيبة الدين والإسلام، والمحافظة عليهما من التمزق والانهيار. فعمله هذا كان خالصاً لوجهه تعالى، راجياً منه الثواب والأجر ، وليس من أجل دنيا يصيبها، أو منصب يتسلق عليه، يقول في هذا[1]:

كَالبَحْرِ كَانَ فَنَهْنَهَتْهُ مَنِيَّةٌ فَغَطَتْ[2] بِهِ ولِكُلِّ بَحْرٍ سَاحِلُ
عَضَدَ الهُدَى وسَعَى إِلَى تَأْيِيدِهِ والزَّغْفُ[3] نَهْرٌ وَالسُّيُوفُ جَدَاوِلُ
وَهَدَى الأمِيرَ إِلَى مَنَاهِجِ قَصْدِهِ ومَعَ الدِّلاءِ عَلَى المِيَاهِ حَبَائِلُ
لَمْ تُلْهِهِ الدُّنْيَا فَأعْرَضَ دُونَهَا وبِتَرْكِ عَاجِلِهَا يُنَالُ الآجِلُ

وفي قصيدة أخرى للحجاري نفسه يؤبن فيها فقيهاً يدعى عبد الصمد[4]، يصور الحجاري فيها عمق المأساة، وعظم الخطب الذي رافق وفاة الفقيه عبد الصمد. فموته قد أوقف عجلة الزمان، ولم يعد هناك طموحات وآمال يسعى لتحقيقها، فقد ماتت واندثرت بموت هذا الفقيه الذي ملأ الدنيا بمآثره ومحاسنه ومناقبه، وتمكنت محبته من قلوب الناس، أما وقد مات فكل شيء قد أدار ظهره إليه، فقد فقد السند الذي يستند إليه ويقوى بوجوده، فالفقيه هو الوجه المشرق الذي كان يضفي حسناً وبريقاً ونضارة على كل شيء، أما الآن فقد اندثرت تلك المحاسن والمآثر، فلم

---

(1)ابن بسام. **الذخيرة** ، القسم الثالث، المجلد الثاني، ص ٦٦١ ــ ٦٦٢.

(2) غطت: غطته وطمرته.

(3) الزغف: الدرع الواسعة الطويلة

(4)هو عبدالصمد بن موسى بن هذيل بن محمد تاجيت البكري، قاضي الجماعة بقرطبة بعد وفاة أبي بكر بن أدهم، يكنى أبا جعفر، كان مشاوراً في الأحكام بقرطبة، وكان له حظ من الفقه، ومعرفة جيدة بالشروط، وكان وقوراً من بيئة علم ونباهة، وفضل وجلالة، توفي سنة ٤٩٥. انظر: ابن بشكوال. **الصلة**، القسم الثاني، ترجمة رقم ٨٠٨، ص ٣٧٦ــ٣٧٧.

المحاسن والمآثر، فلم يعد الشاعر يرى شيئاً حسناً، وأصبح وحيداً يصارع متاعب الحياة وأزماتها، مكشوف الظهر بدون درع تحميه. يقول في ذلك[1]، وهو من البسيط:

الآن أُدرِجَتِ الآمَالُ فِي كَفَنِ وَاليَومَ فُرِّقَ بَيْنَ الجَفْنِ وَالوَسَنِ
إنَّا إلَى اللهِ جَلَّ الخَطْبُ فِي رَجُلٍ مِلْءِ الزَّمَانِ وَمِلْءِ العَيْنِ وَالأُذُنِ
أمَا وَقَدْ طُوِيَتْ تِلْكَ المَحَاسِنُ لا واللهِ لا وَقَعَتْ عَيْنِي عَلَى حَسَنِ
أصْبَحْتُ بَعْدَكَ وَالأَيَّامُ مُعْرِضَةٌ مُعَرَّضَاً لِزَمَانَاتٍ مِنَ الزَّمَنِ

ثم يصوره بالتاجر الحاذق الماهر الذي يستثمر أمواله بتجارة رابحة مع الله سبحانه وتعالى، غايتها الفوز بمرضاة الله والثواب الجزيل، فالله أكرمه في الدارين ثواباً جزيلاً وذكراً حسناً وثناءً مستديماً، يقول في هذا[2]:

أنْهَبْتَ مَالَكَ فِي تَقْوَى ذَخَرْتَ بِهَا أُخْرَى بِأجْرٍ وَمَخْزُونَاً بِمُخْتَزَنِ
يَنْأَى الثَّنَاءُ فَتَسْتَدْنِيْهِ مُرْتَخِصَاً لِجَوْهَرِ الحَمْدِ بِالْغَالِي مِنَ الثَّمَنِ
تُعْطِي وَتَمْنَعُ فِي حَالٍ فَيَا عَجَبَاً عِرْضٌ مَصُونٌ وَمَالٌ غَيْرُ مُخْتَجَنِ

هذه الصورة المشرقة التي رسمها الشعراء للفقهاء، وحشدوا فيها كل الصفات الطيبة، والمآثر النبيلة التي تظهر المكانة الجليلة التي كان يحتلها الفقهاء في قلوب الناس وعقولهم.

الفصل الثاني: صورة الفقيه السلبية.

إذا كانت قصيدتا المدح والرثاء قد صورتا الفقيه بصور مثالية تصل إلى حد المبالغة، وأسبغت عليه لوناً من القداسة، وذلك تعبيراً عن المكانة الجليلة التي تبوأها الفقهاء، والاحترام والتقدير اللذين حظوا بهما من قبل العامة والخاصة، وأظهرت ما لهؤلاء الفقهاء من قيمة معنوية كبيرة بوجودهم بين ظهرانيهم، ظهرت بعد رحيلهم عنهم، وتمثلت بالخسارة الكبيرة التي خسرها العلم بفقدانهم، فقد جاءت قصيدة الهجاء أو النقد لتعرض صورة مغايرة تماماً للفقيه، صورته بصور سلبية كثيرة، بالغ بعض الشعراء مبالغة خرجت عن نطاق الأدب والمعقول في أحيان كثيرة.

ولعل من الأسباب التي دعت بعض الشعراء إلى التشنيع على الفقهاء، وتصويرهم بصور تناقض واقعهم ومكانتهم وعلمهم، تلك المنافسة التقليدية بين الشعراء وبين رجال العلم عامة،

---

(1) ابن بسام. الذخيرة القسم الثالث، المجلد الثاني، ص٦٦٢.
(2)ابن بسام. الذخيرة، القسم الثالث، المجلد الثاني، ص٦٦٢.

والفقهاء خاصة، في نيل الحظوة والمكانة عند أولي الأمر والسلطان، علاوة على الحساسية الشديدة بين هاتين الشريحتين التي تعود جذورها الأولى إلى تعاليم الإسلام التي حدّت من قيمة الشعر، وحاربت نوعاً من الشعراء وهذبت أخلاقهم، وموضوعات شعرهم ووجهتها إلى خدمة الدين الإسلامي والدفاع عن قضاياه المختلفة.

لقد شعر الشعراء في الأندلس بأن الفقهاء قد سحبوا البساط من تحت أقدامهم ، وأصبحوا هم الشريحة المفضلة والمقربة من أرباب السلطة، وأنهم قد حرموهم من بعض الامتيازات التي كان الشعراء على مر التاريخ العربي والإسلامي يتمتعون بها دون غيرهم، لذلك فقد شنوا عليهم هجوماً عنيفاً في بعض الأحيان ؛لإطفاء هالة القداسة والاحترام والتقدير التي أحيطوا بها من قبل عامة الناس، وللتقليل من شأنهم عند الناس عامة، وعند الحكام خاصة.

وهجوم الشعراء على الفقهاء وإن كان مبالغاً فيه أحياناً، وتجاوز الحدود والذوق، إلا أنه يجلي بعض الغموض الذي أحاط بفئة من الفقهاء، لم تحترم علمها ومكانتها، فاستغلت هذا العلم وتلك المكانة للحصول على كثير من الامتيازات الدنيوية، فباعت واشترت باسم الدين والعلم عرضاً من عروض الدنيا.

ومثلما رسم الشعراء صورة زاهية ومشرقة للفقيه في الأندلس، فقد مال بعض الشعراء إلى رسم صورة مغايرة وقاتمة لبعض الفقهاء الذين خالفوا المألوف، وانحرفوا عن جادة الطريق، وهم بهذا قد مهدوا الطريق للشعراء للانقضاض عليهم والتشنيع بهم، ووصفهم بأخسّ الصفات، وأبشعها، فقد عاب الشعراء على الفقهاء سعيهم إلى الثراء، واكتساب الثروة بشتى الطرق حتى لو كانت على حساب الدين والمبادئ التي ينادي بها الفقهاء، ويدعون إلى العمل بها، فكان ثراء الفقهاء الواضح مدعاةً لاستنكار الشاعر يحيى الغزال[1] الذي كثيراً ما صب جام غضبه عليهم، محاولاً رسم صورة قبيحة ومنفرة ومخزية لهم، ليس لأنهم أصحاب ثروة ومال، بل لأنهم سلكوا ــ كما يرى الغزال ــ طرقاً ملتوية وغير مشروعة واتجهوا اتجاهات منحرفة، واستغلوا مناصبهم الدينية وعلمهم ومكانتهم أسوأ استغلال، في جمع هذه الثروات الكبيرة وتنميتها.

يثير الغزال الشكوك في طهارة أصول هذه الثروات، وفي صفاء نيات أصحابها الفقهاء، وحسن سلوكهم ففي الوقت الذي يضرب الشعراء في الأرض ، قاصدين من يتوسمون فيهم

([1]) هو يحيى بن حكم المعروف بالغزال، كثير القول، مطبوع النظم في الحكم والجد والهزل، وهو جليل في نفسه وعلمه، وله منزلة كبيرة عند أمراء الأندلس، كان سفيراً لبعض بني أمية إلى ملك الروم، توفي سنة ٢٥٠هـ. أنظر الضبي، **بغية الملتمس**، ترجمة رقم ١٤٦٨، ص ٤٣٧. وانظر المقري، **نفح الطيب**، ج٢، ص٢٥٤-٢٦٢.

الخير والمنفعة والحصول على جوائزهم، وعطاياهم، لم يصلوا إلى ما وصل إليه الفقهاء القاعدون ، الذين لم يبرحوا أماكنهم ، ومع ذلك جمعوا الثروات الضخمة، فكيف لهم أن يجمعوها وهم على هذه الحال، ويخرج بخلاصة مؤداها أن هؤلاء الفقهاء لهم طرقهم الخاصة في جمع الثروة، ولهم ألاعيبهم المنحرفة التي تجعل عامة الناس ، والحكام خاصة يغدقون عليهم الأموال والهبات، وفي هذا المعنى يقول الغزال[1] : وهو من الخفيف.

لَسْتَ تَرَى الفَقِيْهَ إلا غَنِيّاً لَيْتَ شِعْرِي مِنْ أَيْنَ يَسْتَغْنُوْنَا؟
نَقْطَعُ البَرَّ والبِحَارَ طِلابَ الرِزْقِ وَالقَوْمُ هَا هُنَا قَاعِدُوْنَا
إنّ لِلْقَوْمِ مَضْرِبَاً غَابَ عَنّا لَمْ يُصِبْ قَصْدَ وَجْهِهِ الرَّاكِبُوْنَا

وتبدو صورة الفقيه المنافق المرائي واضحة بجلاء في مقطوعة للشاعر الأبيض الإشبيلي[2] فقد صور الفقيه الذي تسلح بالعلم والدين، واتخذهما وسيلة لتحقيق أهدافه والوصول إلى مبتغاه بالذئب المتوحش الذي يتصيد فريسته ويترصدها، حتى إذا سنحت الفرصة له انقض عليها وافترسها، ويرى الأبيض أنهم اتخذوا مذهب الإمام مالك، وتشبثوا به، ليكون مطيتهم التي يركبون موجتها، لتحقيق مكاسبهم الدنيوية، خصوصاً بعد أن أصبح لهذا المذهب الحظوة والمكانة العظيمة عند أمراء الأندلس، ومن قال بما قال به مالك وأصحابه وتلاميذه، أمثال ابن القاسم[3]،وأشهب[4]،وأصبغ[5]،فقد حاز الخير كله، يقول الأبيض مخاطباً الفقهاء المرائين[6]: وهو من الكامل:

---

(١) الغزال، يحيى بن حكم البكري الجياني الأندلسي. الديوان، تح: محمد رضوان الداية، دار قتيبة، ط١، ١٩٨٢، ص١٠٩.

(2)أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري الإشبيلي، المعروف بالأبيض، أصله من قرية همدان، وتأدب بإشبيلية وقرطبة، وهو شاعر مشهور وشاح، حسن التصرف، هجاء، مات بعد سنة ٥٢٥هـ. أنظر، ابن سعيد. **المغرب في حلى المُغرب**، ج٢، ص١٢٧-١٢٨.

(3) هو عبد الرحمن بن القاسم خالد بن جناده، أصله من الشام من فلسطين، وسكن مصر، صاحب الإمام مالك، وهو من كبار الفقهاء في مصر، وكان رجلاً صالحاً، مقلاً، صابراً، انظر: عياض ، **ترتيب المدارك**، المجلد الثاني ص٤٣٣-٤٤٧.

(4) هو أشهب بن عبد العزيز بن داود القيسي المعافري، كان بينه وبين ابن القاسم منافسة شديدة انتهت إليه الرئاسة بعد وفاة ابن القاسم،وكان فقيهاً نبيهاً، حسن النظر،من المالكيين المحققين،توفي سنة٢٠٤هـ. انظر: عياض. **ترتيب المدارك**، المجلد الثاني ص٤٤٧-٤٥٣.

(5) هو أصبغ بن الفرج بن سعد بن نافع، من أشهر الفقهاء المصريين وأصحاب مالك، كان ماهراً في الفقه وحسن القياس، صدوقاً، تكلم في أصول الفقه، توفي سنة ٢٢٥. انظر : عياض. **ترتيب المدارك**، المجلد الثاني ص٥٦١-٥٦٥.

(6) المقري، **نفح الطيب**، مرجع سابق، ج٣، ص٤٤٨.

أهْـــلَ الرِّيَـــاءِ لَبِـــستُمْ نَامُوسَـــكُم كَالـــذِّئْبِ يُـــدْلِجُ فِـــي الظَّـــلامِ العَـــاتِمِ
فَمَلَكْـــتُمُ الـــدُّنيا بِمَـــذْهَبِ مَالِـــكٍ وقَـــسَمْتُمُ الأَمْـــوَالَ بِـــابْنِ القَاسِـــمِ
وَرَكِبْـــتُمْ شُـــهْبَ البِغَـــالِ بِأشْـــهُبٍ وبِأَصْـــبَغٍ صُـــبِغَتْ لَكُـــمْ فِـــي العَـــالَمِ

ولما كانت دراسة الفقه بضاعة رائجة ولها سوقها في الأندلس، فإن كثيراً من المتفقهين أو طالبي الفقه اندفعوا إليها دون وازعٍ أصيل، ورغبة حقيقية صادقة، أملاً في الحصول على مركز اجتماعي مرموق، يؤكد هذا ما جاء على لسان الشاعر ابن خفاجة،عندما أكد أن سبب انـدفاع هؤلاء الفقهاء لدراسة العلوم المختلفة والفقه خاصة، يعود إلى أطماعهم، وطموحهم للوصول إلى مجالسة علية القوم من الحكام وأعوانهم، وتناول أطراف الحديث معهم، ليصنعوا لأنفسهم مكانـة وهيبة في نفوس الناس تقربهم من الحكام وتتزلف إليهم.

ويؤكد ابن خفاجة صفة الرياء والنفاق التي اتخذها مثل هؤلاء الفقهاء وسيلة للوصول إلـى تحقيق الأهداف المرسومة، وذلك بإظهار الزهد والنسك والتقشف، ريثما تترسخ أقدامهم، وتقوى شوكتهم، عندها يظهرون الوجه الحقيقي الخبيث والقبيح الذي يخفونه؛ لينقضوا على أموال الناس وأموال الوقف ليضيفوها إلى حساباتهم المتكدسة. يقـول ابـن خفاجـة فـي هـذا المعنـى[١]، وهو من الكامل:

دَرَسُـــوا العُلُـــومَ لِيَمْلِكُـــوا بِجِـــدَالِهِم فِيْهَـــا صُـــدُوْرَ مَراتِـــبٍ ومَجَـــالِسِ
وَتَزَهَّـــدُوا حَتَّـــى أصَـــابُوا فُرْصَـــةً فِـــي أخْـــذِ مَـــالِ مَـــسَاجِدٍ وكَنَـــائِسِ

ومن الصفات الذميمة التي رسمها الشعراء للفقهاء ووصفوهم بها سخرية وتهكماً وتنـدراً التعامل بالرشوة وشهادة الزور، استغلالاً لمناصبهم ومكانتهم وطمعاً في جمع الأموال وتكديـسها ويظهر الفقيه في بعض الأشعار إنساناً رخيصاً مهاناً يبيع دينه وضميره بقليل من عرض الـدنيا، وعنده الاستعداد بأن يحلف زوراً وبهتاناً ما دام ذلك يعود عليه ببعض الفتات، يقول الشاعر أبـو بكر اليكي[٢] في فقيه يدعى بالزناتي، استُخدم شاهد زور على الشاعر بدَين ادَّعى عليـه ظلمـاً وجوراً، وسجن على أثرها فما كان منه إلا أن أشهر لسانه الفاحش الذي مسخ فيه الفقيه الـشاهد وكل من شاركه في ذلك[٣]، وهو من الكامل:

أرْشُـــوا الزّنَـــاتِيَّ الفَقِيْـــهَ بِبَيْـــضَةٍ يَـــشْهَدْ بِـــأنَّ مُظَفَّـــراً ذُو بَيْـــضَتَيْنِ

---

(1) ابن خفاجة .الديوان، ص٣٠٥، **نفح الطيب**، ج٣، ص٣٠٣.

(2) هو أبو بكر بن سهل اليكي، اشتهر بالهجاء ووصف بالأندلس بأنه ابن الرومي وحطيئة الأندلس، لا تجيد قريحته إلا في الهجاء، ولا تنشط به في غير ذلك، توفي سنة ٥٦٠. أنظر: ابن سعيد ، **المغرب في حلى المغرب**، ج٢، ص٢٢٦.

(3) المقري . **نفح الطيب** ، ج٣، ص٣٢٤ .

وَاهْـــدُوا إِلَيْـــهِ دَجَاجَــــةً يَحْلِـــفُ لَكُـــمْ مَـــا نَـــاكَ عَبْـــدُ اللهِ عِـــرْسَ أَبِـــي الحُـــسَيْنِ

ومن الصفات السيئة التي صور بها الشعراء الفقهاء التلاعب بأحكام الشرع والدين، للمحافظة على مصالحهم الخاصة، أو بما يتوافق مع هذه المصالح، يدل على هذا ما صور به ابن مغاور[1]، القاضي ابن بيّش الذي من أجل المحافظة على منزلته وعمله، أحل للناس كل محرم يقول ابن مغاور في ذلك[2]: وهو من البسيط.

قَـــالَ ابْـــنُ بَـــيِّشٍ المَـــشْهُورُ مَوْضِـــعُهُ قَـــوْلاً يُعَـــابُ عَلَيْـــهِ آخِـــرَ الأَبَـــدِ

الخَمْـــرُ وَالزَّمْـــرُ وَالفَحْـــشَاءُ أَجْمَعُهَـــا حِـــلٌّ وَبِـــلٌّ وَتَبْقَـــى خُطَّتِـــي بِيَـــدِي

ويؤكد الشاعر أبو بكر بن مغاور فكرة البيع والشراء بالدين وشهادة الزور، واستغلال العلم عند فئة من الفقهاء طمعاً بجمع الأموال، وحيازة الممتلكات؛ فيرسم تلك الصورة السوداء القبيحة لهؤلاء عندما جعلوه ألعوبة في أيديهم، يوجهون نصوصه الوجهة التي تحقق مصالحهم الذاتية، ولم يكتفوا بليّ عنق الأحكام لتوائم أهواءهم، بل سعوا بما هو أكبر من ذلك، بارتكابهم كبيرة من الكبائر التي يمقتها الإسلام ويحذر منها، فأصبحت شهادة الزور عندهم من الأشياء المتعارف عليها ، والتي لا يتورعون في النطق بها، مع علمهم بما تجرُّ هذه الكبيرة من استلاب لحقوق العباد باسم الدين والشرع، فيصورهم بالشياطين الذين يسعون في الأرض بالفساد، فهم والشياطين من طينة واحدة يجمعهم الخبث والدجل والنفاق، يقول في ذلك[3]، وهو من البسيط:

إِنَّـــا إِلَـــى اللهِ مَـــاذَا حَـــلَّ بِالـــدِّينِ مِـــنَ الطِّـــوَالِ اللِّحَـــى البِـــيضِ العَثَـــانِينِ

بَـــاعُوا رِضَـــا اللهِ وَابْتَـــاعُوا مَـــسَاخِطَهُ وغَيَّـــرُوا الـــشَّرْعَ يَـــاللهِ لِلْـــدِّينِ

أَضْـــحَتْ شَـــهَادَتُهُم بِـــالزُّوْرِ نَاطِقَـــةً إِنَّ الـــشُّهُودَ لأَعْـــوَانُ الـــشَّيَاطِيْنِ

فَارْحَـــلْ أَخِـــي رَاشِـــداً عَـــنْ أَرْضِ شَـــاطِبَةٍ فَمَـــا المُقَـــامُ بِهَـــا إِلا مِـــنَ الهُـــوْنِ

---

(1)هو عبد الرحمن بن محمد بن مغاور السلمي، من أهل شاطبة، وكان في وقته بقية مشيخة الكتاب، وجلة الأدباء المشاهير في الأندلس. توفي سنة ٥٨٧ هـ. أنظر صفوان بن إدريس، **زاد المسافر**، أعده عبد القادر محداد، دار الرائد العربي، بيروت، ص ٧٩

(5)ابن إدريس، صفوان، **زاد المسافر**، ص٨٠.

(3)ابن إدريس، صفوان، زاد المسافر ، ص٨٠.

وقد رسم الشاعر عبد الرحمن بن وليد بن غانم[١]، صورة قاتمة للفقيه عبيد الله بن يحيى بن يحيى الليثي[٢]، عندما وصفه بالجاهل بأسرار اللغة وبواطنها، التي تعد ركيزة أساسية من مكونات الفقيه العلمية، ففي إحدى حلق الدرس ورد على لسان الفقيه كلمة "الثغام" "نبات جبلي أبيض الزهر"، وعندما سئل عنها أجاب بأنها طائر الماء، فأنكر عليه ذلك، فالشاعر يتحسر على العلماء الأفذاذ الذين أودى بهم الزمان، وتركوا الساحة لمدَّعي العلم والفقه الجهلة الذين وصفهم بأراذل الناس وأوغادهم وأكثرهم جهلاً وحمقاً وغباءً، بحيث لا تميزهم في الجهل عن الدواب والبهائم ومع ذلك، فقد نالوا المكانة والمنزلة العالية، وتصدروا حلق العلم وفي هذا المعنى يقول[٣]: وهو من الكامل.

ذَهَبَ الزَّمَانُ بِصَفْوَةِ العُلَمَاءِ ... وَبَقِيتُ فِي ظُلَمٍ وَفِي عَمْيَاءِ
وَأَتَى طَغَامٌ رُتَّعٌ مِنْ بَعْدِهِمْ ... لا فَرْقَ بَيْنَهُمُ وَبَيْنَ الشَّاءِ
فَإِذَا سَأَلْتَ عَنِ الثَّغَامِ أَسَدَّهُم ... عِلْماً يُفَسِّرُهُ بِطَيْرِ المَاءِ

ومن الفقهاء الذي تعرضوا لنقد شديد من قبل الشاعر الغزال الفقيه القاضي يخامر الشعباني، الذي جعله الغزال مدار سخريته وتندره، فكان مضرب المثل في البله والغباء والجهل، فهو لا يميز بين الشعر والقرآن الكريم، وقد صوره الغزال بالتيس ثقيل الرأس، عديم الفهم في الأحكام الشرعية التي أنيطت به، وفي هذا يقول[٤]: وهو من المجتث .

لَقَدْ سَمِعْتُ عَجِيْبَاً ... مِنْ آبِدَاتِ يُخَامِرْ
قَرَأَ عَلَيْهِ غُلامٌ ... طَهَ وسُوْرَةَ غَافِرْ
فَقَالَ: مَنْ قَالَ هَذَا؟ ... هَذَا لَعَمْرِيَ شَاعِرْ
أَرَدْتُ صَفْعَ قَفَاهُ ... فَخِفْتُ صَوْلَةَ جَائِرْ
أَتَيْتُ يَوْمَاً بِتَيْسٍ ... مُسْتَعْبِراً مُتَحَاسِرْ
فَقُلْتُ قُومُوا اذْبَحُوهُ ... فَقَالَ: إِنِّي يُخَامِرْ

---

(١) هو عبد الرحمن بن وليد بن عبد الرحمن بن عبد المجيد بن غانم من بيت أدب رائع، وكتابة وجلالة، وكان عالماً باللغة. أنظر: ابن الأبار، **الحلة السيراء**، ج١، ص١٦٢.

(٢) هو أبو مروان عبيدالله بن يحيى بن يحيى بن كثير الليثي القرطبي، سمع بالأندلس من أبيه الفقيه المشهور يحيى بن يحيى، ورحل حاجاً وتاجراً ، وكان عظيم المال والجاه، مقدماً في المشاورة والأحكام، منفرداً برياسة البلد، توفي سنة ٢٩٨هـ. انظر:الحميدي. **جذوة المقتبس**، ترجمة رقم٥٨١، ص ٢٣٧.

(٣) ابن الأبار، **الحلة السيراء**، ج١، ص١٦٢.

(٤) ابن حيان، **المقتبس** ، مكي، ص٦٥.

والجهل بأحكام الدين والشريعة من المثالب التي صورها الشعراء في الفقهاء، وعدها الشعراء فضيحة كبيرة في حق الدين والفقهاء معاً، فالفقيه يقف عاجزاً أو حائراً في إبداء رأي الدين في قضية من القضايا، وفي الوقت نفسه لا يطلب الإعفاء مما كلف به، فالأمور الجسام لن يقوى عليها فقهاء ضعفاء في تكوينهم الديني والعلمي، وفي هذا المعنى يقول الغزال[1]:وهو من الطويل.

فَقُلْتُ لَهُ كَلَّفْتَنِي غَيْرَ صَنْعَتِي كَمَا قَلَّدُوا فَضْلَ القَضَاءِ يُخَامِرَا
فأصْبَحَ قَدْ حَارَت بِهِ طُرُقُ الهُدَى يُكَابِدُ لُجِّيَّاً مِنَ البَحْرِ زَاخِرَا
فَقُلْتُ لَو اسْتَعفَيْتَ مِنْهَا فَقَالَ لِي سَأَفْضَحُ مَا قَدْ كَانَ مِنكَ مُغَايِرَا
فَقُلْتُ لَهُ رأسُ الفُضُوحِ إِقَامَةٌ عَلَيْنَا كَذَا مِنْ غَيْرِ عِلْمٍ مُكَابِرَا
وَخَبْطُكَ فِي دِينِ الإِلَهِ عَلَى عَمَىً خِبَاطَةَ سَكْرَانٍ تَكَلَّمَ سَادِرَا
فَلَنْ يَحْمِلَ الصَّخْرَ الذُّبَابُ وَلَنْ تَرَى م السَّلاحِفَ يُزْجِيْنَ السَّفِينَ المَوَاخِرَا

وقد وصفه عبد الله بن الشمر[2] بالبله والغفلة وقلة العقل، وسخر منه غاية السخرية عندما دس بين أوراقه التي ينادي بها على المتخاصمين ورقة كتب فيها المسيح بن مريم ويونس بن متى، فنادى منادي يخامر عليهما، وبلغ ابن شمر غايته من ذلك. يقول في ذلك[3]، وهو من الطويل:

يُخَامِرُ مَا تَنْفَكُّ تَأْتِي بِفَضْحَةٍ دَعَوْتَ ابْنَ مَتَّى والمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَا
فَثَوِّبْ فِيْنَا ثُمَّ نَادَاكَ صَائِحٌ فإنَّهُمَا لَمّا عَلَى الأَرْضِ يُعْلَمَا
قَفَاكَ قَفَا جَحْشٍ وَوَجْهُكَ مُظْلِمٌ وَعَقْلُكَ مَا يَسْوَى مِنَ البَعْرِ دِرْهَمَا
فَلا عِشْتَ مَوْدُوداً وَلا رُحْتَ سَالِماً وَلا مُتَّ مَفْقُوداً ولا مُتَّ مُسْلِمَا

وعلم الفقه والتبحر فيه ليس بكثرة الدراسة ، وحفظ مسائله ، فحفظ المسائل إذا لم يسنده فهم صحيح ودقيق فلا فائدة منه، وهذا ما عبرعنه الجزار السرقسطي عندما اكتشف أن صديقه

---

(1) ابن حيان. **المقتبس**، مكي، ص٦٤.

(2) هو عبد الله بن الشمر، من نمير، كان شاعر عبد الرحمن بن الحكم، ونديمه ومنجمه. انظر: ابن حيان. **المقتبس**، مكي، ص٤٧٧.

(3) ابن حيان، **المقتبس**، مكي ، ص٦٦.

الفقيه علي البرجي[1] غارق بالجهل ، غبي، عديم الفهم، فقال معبراً عن ذلك[2] : وهو من الطويل.

وَدَارِسُ كُتْبِ العِلْمِ لا فَهْمَ عِنْدَه كَسَاعٍ بِلا جِدٍّ لأدْرَاكِ مآرِبِ
يَنَالُ مِنَ العِلْمِ الذَّكِيُّ نَصِيبَهُ وَإنْ هُوَ لَمْ يَعْكِفْ عَلَيهِ وَيَدأبِ
وَمَا يَنْفَعُ المَرْءَ الغَبِيَّ دِرَاسَةٌ أَيَنْتَفِعُ الأعْمَى بِكُلِّ مُجَرَّبِ

وإذا كان الشعراء قد انتقدوا الفقهاء بصفات خلقية وانحرافات سلوكية، فإن الجزار السرقسطي قد نحا منحىً آخر عندما عيّر الفقيه البرجي بمهنة والده (الفراء) وأنها مثلب ومنقصة، فوصفه من خلالها بصفات تنم عن الجهل والغباء ، وهو في هذا قد سلك مسلك شعراء النقائض الذين جعلوا من الآباء والأجداد والأخوات والأنساب مجالاً للهجاء والتطاول. يقول الجزار [3]: وهو من الوافر.

بَلَوتُ عَلِيَّاً الفَرَّاءَ فِيمَا تَعَاطَى مِنْ مُسَابَقَةِ البَيَانِ
وَكُنْتُ أَظُنُّهُ تِبْراً نُضَاراً زَكِيَّ الخُبْرِ عِنْدَ الامتِحَانِ
فَإذْ أفْرَغْتُهُ فِي نَارِ خُبْرٍ طَلَبْتُ فَلَمْ أجِدْ غَيْرَ الدُّخَانِ

واستخدم القضاة في الأندلس بعض الفقهاء ليقوموا بأداء الشهادة، وإبداء الرأي في عمليات التقاضي، وأُطلق عليهم اسم "العدول"، فقد حاد بعض هؤلاء العدول عن طريق الحق في إبداء الشهادة بميلهم إلى الرشوة، فكان الناس يتطيرون منهم لما يقومون به من فتنة وخلافات بين الناس من جراء شهادات الزور، وتجافي الحقيقة، فرسم لهم الغزال صورة قبيحة ممجوجة عندما وصف اثنين من هؤلاء العدول، فالمجلس الذي يحضرونه للشهادة كأنه ساحة حرب وقتال يسيطر عليها الخوف والرهبة والرعب، لما ينتظره المتخاصمون من فتن وخلافات وعظائم الأمور، فشهادتهم تنزل على المتخاصمين وكأنها السيوف المرهفة التي لا ترحم، لذلك يستعيذ الناس من شرورهم الظالمة، وفي هذا يقول الغزال في اثنين منهم[4]: وهو من الطويل.

---

(1) هو علي بن محمد بن عبدالله الجذامي، يعرف بالبَرجيّ ، شوور في الأحكام، وهو الذي أوجب في كتب لأبي حامد الغزالي حين أحرقها أبو عبدالله بن حمدين بأمر من علي بن يوسف، تأديب محرقها وتضمينه قيمتها، توفي سنة ٥٠٩هـ. انظر : ابن الأبار، **المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي**، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧، ترجمة رقم٢٥٣، ص ٢٨٣.

(2) الجزار السرقسطي. **الديوان**، ، ص ١٠٦.

(3) الجزار السرقسطي. **الديوان**، ص١٠٥.

(4) الغزال، يحيى بن حكم البكري الجياني الأندلسي، **الديوان**، تح: محمد رضوان الداية، دار قتيبة، ط١، ١٩٨٢، ص٨٩. وانظر: ابن حيان القرطبي، **المقتبس**، مكي، ص٧٠.

أتَـاكَ أبُـو حَفْـصٍ ويَحْيَـى ابْـنُ مَالِـكٍ فَـأهْلاً وَسَـهْلاً بِـالوَغَى وَالمَعَـامِعِ
رِجَـالٌ إذا صَـبُّوا عَلَيـكَ شَـهَادَةً حَكَـتْ فِيـكَ وَقْـعَ المُرهَفَـاتِ القَواطِـعِ
أَقُـولُ لِـديكي إذْ رَأيـتُ وُجُـوهَهُم تَعَـزَّ فَقَـدْ جَاءَتْـكَ إحْـدَى الفَجَـائِعِ
رَثَـا واسْـتَهَلَّتْ عِنْـدَ ذَاكَ دُمُوعُـهُ وَقَـالَ: كَثِيـراً مَـا أفَاضُـوا مَـدَامِعِي

ويصف ابن الطراوة[١] فقهاء مالقة الذين يستغلون ظروف الناس بالاستيلاء على أموالهم بالقنّاصة، الذين ينتظرون أي فريسة للانقضاض عليها وابتزازها، فهؤلاء المرتشون المنافقون الذي يعطّلون الأحكام والحدود، ويفتون بالرخص، إذا كان هذا يحقق مصلحتهم ويملأ جيوبهم، أما الأمر الذي لا يستفيدون منه فإنهم يتشددون فيه، ليظهروا بمظهر الفقهاء الصالحين القائمين على حدود الله وشرعه، وهو بهذا يشير إلى انتشار مبدأ الرشوة بين هؤلاء الفقهاء ، واستخدامها لابتزاز أموال الناس.يقول ابن الطراوة في فقهاء مالقة[٢]، وهو من البسيط:

إذَا رَأوْا جَمَـلاً يَـأتِي عَلَـى بُعُـدِ مَـدُّوا إلَيـهِ جَمِيعَـاً كَـفَّ مُقْتَـنِصِ
إنْ جِئْـتَهُمْ فارِغَـاً لَـزّوكَ فِـي قَـرَنٍ[٣] وإنْ رَأوْا رِشْـوَةً أفْتَـوكَ بِـالرُّخَصِ

وهناك صورة سلبية للفقهاء يرسم لوحتها فقيه عاين فقهاء عصره وخبرهم، وسجل للتاريخ شهادة ضدهم لا مجال للطعن فيها، لأنها صادرة من عالم فقيه عرف بالتقوى والزهد بكل مباهج الدنيا وزخارفها، ولم يعجبه ما جبل عليه الفقهاء، والطريق الذي ساروا عليه.

فالفقيه أبو إسحق الإلبيري يشير إلى فئة من فقهاء عصره الذين أصبح شغلهم الشاغل اللهاث وراء جمع المال بشتى السبل المتاحة، على حساب علمهم ودينهم والواجب المفروض عليهم تجاه الدين والمجتمع،فيصفهم بالجهل الذي أعمى عيونهم،وأبرز نفاقهم وانحرافهم، بعقدهم تلك الصفقات المالية المشبوهة الخاسرة التي داخلها الحرام المكشوف، ويفتي بأن هذه الأموال التي جمعوها هي أموال سحت وحرام، ولا يليق بالفقهاء خاصة أخذها، لذلك وحرصاً على مكانة العلماء والعلم يوجه الإلبيري هؤلاء الفقهاء، ويرشدهم إلى أن يجعلوا المال وسيلة لسد حاجاتهم الأساسية، لا أن يكتنزوه، ويجمعوا الثروات الكبيرة التي سوف يسألون عنها يوم القيامة.

([1]) هو سليمان بن محمد بن عبد الله السبئي ابن الطراوة، نحوي بارع، يقرض الشعر، وينشئ الرسائل، وله آراء في النحو انفرد بها وخالف جمهور النحويين، فكان مبرزاً في علوم اللسان نحواً وأدباً ولغة، توفي سنة ٥٢٠ هـ. انظر: المراكشي ، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، السفر الرابع، ص٨١.

([2]) المراكشي. **الذيل والتكملة**، السفر الرابع، ص١٠٦- ١٠٧.

([3]) القرن: الحبل.

ويعيب عليهم الإلبيري سعيهم الجاد إلى مباهج الدنيا وزخارفها، كاقتناء المطايا الكثيرة لمجاراة أهل الدنيا من أمراء وأصحاب جاه، وتشبههم بهم، وإلى اللباس الناعم الذي تنافسوا في الحصول عليه ،كمظهرين من مظاهر الوجاهة التي سعى الفقهاء إلى تحصيلها بأي ثمن. يقول الإلبيري في هذا(1): وهو من الكامل.

لا شَيءَ أخْسَرَ صَفْقَةً مِنْ عَالِمٍ لَعِبَتْ بِهِ الدُّنْيَا مَعَ الجُهَّالِ
فَغَدَا يُفَرِّقُ دِينَهُ أيْدِي سَبَا وَيُزِيلُهُ حِرْصَاً لِجَمْعِ المَالِ
لا خَيْرَ في كَسْبِ الحَرَامِ وَقَلَّمَا يُرْجَى الخَلاصُ لِكَاسِبٍ بِحَلالِ
فَخُذِ الكَفَافَ ولا تَكُنْ ذَا فَضْلَةٍ فَالفَضْلُ تُسْأَلُ عَنْهُ أيَّ سُؤَالِ
وَدَعِ المَطَارِفَ وَالمَطِيَّ لأهْلِهَا وَاقْنَعْ بِأطْمَارٍ ولُبْسِ نِعَالِ
فَهُمُ وَأنْتَ وَفَقْرُنَا وَغِنَاهُمُ لا يَسْتَقِرُّ وَلا يَدُومُ بِحَالِ

وفي قصيدة أخرى يشير الإلبيري إلى بعض الصفات السلبية التي لا تليق بالفقهاء أن يتصفوا بها، عندما رسم لوحة متكاملة يوضح فيها الأسباب التي دعته إلى سلوك طريق الزهد والبعد عن الناس، وخاصة الفقهاء الذين دأبوا على الكيد لبعضهم بعضاً ؛ للاستئثار بالمكانة العالية دون غيرهم، والطعن ببعضهم ليمتلكوا الساحة وحدهم، وأشد ما وصفهم به أنهم ذئاب، بل هم أشد من الذئاب قسوة ووحشية، وانحداراً في المستوى الأخلاقي؛ لأن الذئاب على وحشيتها لا تغدر ببعضها، وتحفظ العلاقة القائمة بين أفرادها، بعكس الفقهاء الذين أنشبوا أظفارهم ببعض حرصاً على مصالحهم الشخصية، فإذا كان جوّهم العام بهذه الطريقة وبهذا الشكل، فالأحوط والأسلم له أن يعزل نفسه عن الناس كلهم، ولا يخوض فيما خاض به غيره من الفقهاء، ويبتعد عن هذه الفتنة التي ذهبت بعقولهم وأخلاقهم، فيقول في هذا المعنى(2): وهو من الوافر.

ألا حَيِّ العُقَابَ وَقَاطِنِيهِ وَقُلْ أهْلاً بِهِ وَبِزَائِرِيهِ
حَلَلْتُ بِهِ فَنَفَّسَ مَا بِنَفْسِي وَأنَسَنِي فَمَا اسْتَوحَشْتُ فِيهِ
وَكَمْ ذِيبٍ نُجَاوِرُهُ وَلَكِنْ رَأيْتُ الذِّيبَ أسْلَمَ مِنْ فَقِيهِ
وَلَمْ أجْزَعْ لِفَقْدِ أخٍ لأنِّي رَأيْتُ المَرْءَ يُؤتَى مِنْ أخِيهِ
وَأيْأسَنِي مِنَ الأيَّامِ أنِّي رَأيْتُ الوَجْهَ يَزْهَدُ فِي الوَجِيهِ
فَآثَرْتُ البُعَادَ عَلَى التَّدَانِي لأنِّي لَمْ أجِدْ مَنْ أصْطَفِيهِ

---

(1) المقري، نفح الطيب، ج٤، ص٣١٨، ديوان الإلبيري، ص٤٠.

(2) الإلبيري ، الديوان، مرجع سابق، ص٧٢.

أصبح الفقهاء مجالاً للتندر والسخرية من بعض الشعراء، ومضرباً للمثل في النفاق والتلون واللعب على أكثر من حبل، فبينما يظهر الفقيه في النهار الزهد والتقى والصلاح أمام مرأى الناس، يكون ذا وجه آخر مناقض في الليل، فعندما تبتعد أعين الناس عنه يخفّ إلى ندمائه المنحرفين يسامرهم، ويقضي ليله معهم بعيداً عن أعين الرقباء، هذا ما عبر عنه الشاعر عبادة بن ماء السماء(١)، عندما لم يجد لنبات الخيري الذي يكتم الطيب ولا ينشره لينتعش الناس برائحته إلا الفقيه المرائي الناسك نهاراً المنحرف ليلاً، يقول في هذا المعنى(٢): وهو من الخفيف.

وَكَأَنَّ الخيْرِيَّ فِي كَتْمِهِ الطِّيْـ ـبَ فَقِيهٌ مُغْرَىً بِطُولِ رِيَاءِ
يُظْهِرُ الزُّهْدَ بِالنَّهَارِ وَيُمْسِي فَاتِكاً لَيْلَهُ مَعَ الظُّرَفَاءِ

حاول الفقهاء أن يدخلوا ميدان الشعر ويخوضوا غماره، خصوصاً أن كثيراً منهم كان يملك ملكة شعرية فذة، جعلت منهم شعراء يقرضون الشعر في مختلف فنونه وأغراضه، واصطدم بعضهم مع الشعراء في معارك شعرية قوامها الهجاء والنقد والتعريض.

فها هو الشاعر الجزار السرقسطي يشن هجوما عنيفاً على الفقيه البرجي، على خلفية نقد وجهه الفقيه إلى الشاعر عندما استخدم لفظة اعترض الفقيه على سوء استخدامها، إذ يرى أن استخدامها غير جائز ويخالف قواعد اللغة، فأثار حفيظة السرقسطي الذي أنشأ قصيدتين طويلتين يُعَرِّضُ فيهما بالفقيه، حملت الأولى توبيخاً وعتاباً شديداً، وحملت الثانية نقداً وهجاءً وتهجماً شديداً وعنيفاً، إذ كانت رداً على قصيدة أنشأها البرجي معرضاً بالشاعر السرقسطي وموجهاً له نقداً شديداً، لم يخلُ من الشتم والسباب.

يبدأ السرقسطي هجومه على الفقيه البرجي بعد المقدمة التي شاع فيها شعر الحكمة، وأول ما يصفه به أنه رفيق سوء لم يحافظ على الود والصداقة التي تربطهما معاً، رغم أنه كان بمثابة الأخ الذي كان يحمي ظهره عند الحاجة، ولكنه انكشف له عندما بدأ يعرّض به ويشهّر، ويبحث عن عثرات وسقطات لم تقلل من شأنه، فيقول(٣): وهو من الطويل.

---

(1) هو عبادة بن عبد الله الأنصاري، من ذرية سعد بن عبادة، يكنى أبا بكر، أديب وشاعر مشهور، وفحل من فحول الشعراء، وعلم من أعلام الأدباء، وهو صاحب الموشحات الرائقة التي تضرب بها الأمثال، توفي سنة ٤١٩هـ. انظر: المالقي، أبو بكر محمد بن محمد بن علي بن خميس، **كتاب أدباء مالقة، المسمى مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار**، تح: صلاح جرار، دار البشير، الأردن ومؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٩، ص٢٨٦-٢٩١.

(2) الحميري، أبو الوليد إسماعيل. **البديع في وصف الربيع**، تح: محمد عبد الرحيم عسيلان، دار مدني، جدة، السعودية، ١٩٨٧، ص١١٥.

(3) الجزار السرقسطي. **الديوان**، ص٨٨-٩٧.

فَدَعْ قُرَنَاءَ السُّوءِ لا تُدْنِينَّهُمْ فَمَا قُرَنَاءُ السُّوءِ إلا نَوَائِبُ
أَخٌ كَانَ لِي وكُنْتُ أَحْسَبُ أنَّهُ دِلاصِي وَسَيْفِي إنْ نَحَانِيَ طَالِبُ
قَرَرْتُ بِهِ عَيْناً فَلَمَّا بَلَوتُهُ إذَا هُوَ يَبْغِي عَثْرَتِي وَيُحَارِبُ

ثم يصفه بالصديق المنافق الذي يظهر الأخوة الصادقة، والمحبة الصافية، ولكنه يضمر الحقد والكراهية، ويعمل على محاربته والتقليل من شأنه، ويصوره بأنه فقيه ناكر للجميل، يقابل الإحسان بالإساءة ،والمحبة بالكراهية والحقد البغيض، والوفاء بالغدر، وشغله الشاغل مراقبة أقوال الناس وأحوالهم ،والبحث عن سقطات وعثرات يدخل منها للإساءة إليهم ، ومحاولة الحط من شأنهم إلا أنه أصغر من أن ينال منه في شيء، يقول في هذا:

أتبدي إخاءً ثُمَّ تُضمِرُ ضِدَّهُ وتُظْهِرُنِي سِلْماً وَأَنْتَ مُحَارِبُ
وَأَسْقِيكَ مَاءَ الوُدِّ صَفْواً مِنَ القَذَى وَأَنْتَ لَهُ بالغِلِّ وَالحِقْدِ شَائِبُ
وَيَا عَجَبَاً ضِدَّانِ فِيكَ تَجَمَّعَا فُؤَادُكَ يُقْصِينِي وَأَنْتَ تُعَاتِبُ
أَتَنْقُدُ أَشْعَارِي وَتَرْقُبُ عَثْرَتِي وَأَقْرَبُ مِنْ هَذَا إلَيْكَ الكَوَاكِبُ

ويصور جانباً آخر من صفاته السلبية، فيصفه بالحمق والجهل لأن أساس انتقاداته واه، وبحاجة إلى إثبات، وهو قاصر عن إدراك ذلك، فالسرقسطي ليس من الذين تنطلي عليهم أحكام البرجي الذي تعوّد أن يحوّل الحق باطلاً، ليكسب ود الآخرين ورضاهم ، وهو أحمق عندما حاول وسم شعر السرقسطي بالنقص، فكشف ذلك عن معايب الفقيه وضحالة معرفته وعلمه باللغة التي يدّعي تبحره بها.

ثم يصور الغيرة التي أكلت قلب هذا الفقيه بمحاولته إخفاء محاسن الآخرين لتظهر محاسنه، ولكن العكس هو الذي فضح نواياه، لأنه كشف نفسه ومساوئه بنفسه، ثم يقرر السرقسطي إنهاء رابطة الصداقة بينهما، لأن البرجي الذي يغتاب صاحبه ويحاول الحط من قدره والتقليل من شأنه، لا يستحق دوام الصداقة معه، يقول في هذه المعاني:

أَلَمْ تَتَحَقَّقْ يَا أُخَيرِقُ أَنَّهُ عَلَيْكَ بِإِثْبَاتِ الحَقَائِقِ وَاجِبُ
إذَا رُمْتَ إحْقَاقَ الحُقُوقِ بِبَاطِلٍ تُزَخْرِفُهُ فَانْظُرْ بِهِ مَنْ تُخَاطِبُ
مَحَاسِنُ قَوْلِي رُمْتَ إخْفَاءَ فَضْلِهَا فَمَا أَنْتَ إلا وَهْيَ فِيكَ مَعَايِبُ
وَمَنْ رَامَ أَنْ يُخْفِي مَحَاسِنَ غَيْرِهِ تَلُحْ فِي مَسَاوِيهِ إِلَيْكَ عَجَائِبُ
وَمَنْ كَانَ مُغْتَابَاً صَدِيقاً فَبُعْدُهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ لا مَحَالَةَ وَاجِبُ

ويطغى لون الرياء والنفاق على صورة الفقيه البرجي التي رسمها السرقسطي، فيؤكد الشاعر هذه الصفة المتأصلة في نفس البرجي الذي يتصنع العفاف ودماثة الخلق، والمحافظة على الود والصداقة بينه وبين الآخرين، وبيّن أن هذه الطباع أصيلة في نفسه، عايشها وعاشت معه، وليس بالإمكان التخلص منها، وهو بهذه الصفات يزاحم أولي الفضل على المكانة الرفيعة، ويظن أنه قد حصّل بها أعلى المراتب، ولكن حظه السيئ أوقعه في مواجهة غير متكافئة مع الجزار السرقسطي الذي يقلل من قيمة انتقاداته، فهي تصدر من إنسان يدّعي العلم والمعرفة بأمور الأدب والشعر، وهو بالمقارنة مع الجزار كميزاب (مزراب) الماء في مواجهة البحر، ووصفه هذا كناية عن تواضع شاعريته وضعف شعره، وبأنه ليس من الذين يؤبه لهم، يقول السرقسطي بهذا المعنى:

يُرِيكَ عَلِيٌّ عِفَّةً ودَمَاثَةً   وَصَفْوَ وِدَادٍ جَمْرُ وَارِيهِ ذَائِبُ
وَذَاكَ رِيَاءٌ كُلُّهُ وَتَصَنُّعٌ   تَغَذَّى عَلَيهِ لا طِبَاعٌ تُنَاسِبُ
وَقَدْ يَتَحَلّى ذُو الرِّيَاءِ بِعَادَةٍ   فَتُحسَبُ طَبْعاً لَكِنِ الطَّبْعُ غَالِبُ
فَكَيْفَ عَلَى اللَّيْثِ اجْتَرأتَ مُخَاطِراً   أَلَمْ تَخْشَ أَنْ تُرْدِيكَ مِنْهُ مَخَالِبُ
أَقُولُ لَهُ والمَقْتُ يُزْرِي بِعُجْبِهِ   مَتَى سَاجَلَتْ فَيْضَ البُحُورِ المَزَائِبُ

ويخيط هذه اللوحة بلون من السخرية والاستهزاء بالشاعر وقدراته، فيصفه بصيرفي الشعر، كناية عن المتطفل على هذه الصناعة التي لا يتقنها إلا من خبرها ، وعرف أسرارها وخفاياها، وكيفية التعامل مع ألفاظها.

ثم يتهكم على البرجي عندما يخاطبه بابن العميد الكاتب العباسي المشهور، استهزاءً وسخرية منه بهدف الحط من شأنه، والتقليل من قدراته، ثم يتمادى في هذه السخرية عندما ينحت له اسماً على وزن سيبويه عالم النحو المشهور، فيدعوه "بجعسويه"، إشارة إلى أنه قزم في الشعر والأدب، فيتشفى به ويسخر منه عندما يقول له: اشرب من الكأس التي حاولت أن تسقينا منها وهذا دلالة على الغباء، وضحالة التفكير. يقول في هذا:

أَيَا صَيْرَفِيَّ الشِّعْرِ هَذَا نُضَارُنَا   وَهَذي عَذَارَانَا فَهَلْ أَنْتَ خَاطِبُ
وَيَا ابْنَ العَمِيدِ المُنْتَضِي سَيْفَ نَقْدِهِ   إِلَيْكَ طُلَى شِعْرِي فَهَلْ أَنْتَ ضَارِبُ
وَيَا جَعْسَوَيْه اخْسَ الذي قَدْ سَقَيْتَنَا   فَمِثْلُكَ حَاسٍ مَا سَقَاهُ وَشَارِبُ

ويصور السرقسطي صفة قبيحة حاول البرجي أن يرسمها لنفسه ، ألا وهي صفة الإعجاب الكاذب والنفخ الزائد للذات ، ليوهم الناس أنه على قدر كبير من الشاعرية الفذة التي

يجاري فيها كبار الشعراء، وما ذاك إلا وهم عشعش في رأس البرجي، وهذا الإعجاب هو الذي سوف يرديه في النهاية، لأنه قائم على المغالطة والوهم، فالسرقسطي يصف البرجي بصفة تنفي عنه أن يكون شاعراً مجيداً كغيره من الشعراء، وهي الموهبة الشعرية التي يفتقرها، وتحول بينه وبين الفهم السليم لأصول الشعر، ومعاني اللغة، يقول:

وَقُلْتَ لِمَنْ حَادَاكَ مِنْ غَيْرِ فِكْرَةٍ لِتُوهِمَ كُلاًّ: أنَّ فَهْمَكَ ثَاقِبُ
فَيَا ذَا الذي عَنْ قَوْسِ إعْجَابِهِ رَمَى فَخَابَتْ مَرَامِيهِ وَذُو العُجْبِ خَائِبُ
وَمَا أَقْبَحَ الإعْجَابَ فِي المَرْءِ وَالهَوَى وَأحْسَنَ مِنْهُ القَوْلُ لَوْلا المُجَاوِبُ
طَغَى لَكَ إعْجَابٌ هَوَى لَكَ نَجْمُهُ إلَى هُوَّةٍ فِي قَعْرِهَا أنْتَ رَاسِبُ
مَتَى رُمْتَ أنَّ الصُّبْحَ لَيْلٌ فَقَدْ بَدَا إلَى كُلِّ ذِي عَيْنَين أنَّكَ كَاذِبُ
أخِلْتَ انتِقَادَ الشِّعْرِ فَرْواً مُمَزَّقاً مُرَقِّعُهُ مِمَّنْ وَهَى مِنْهُ جَانِبُ

وفي قصيدة أخرى قالها الجزار السرقسطي في الرد على الفقيه البرجي ، عندما أعلن أنه ليس في الأندلس كلها من يجاريه في نظم الشعر، وأن الجزار تحديداً ليس من أكفائه، مما أوغر صدر الجزار، فأنشأ هذه القصيدة التي تطعن في نسب البرجي، وتكشفه على حقيقته، فقد قسّم الجزار هذه القصيدة إلى قسمين: الأول منهما استخدم فيه مجموعة من التساؤلات الاستنكارية الاستفزازية التي تنفي عن البرجي أية صفة إيجابية يمكن أن يفتخر بها، وتجعله من أصحاب المكانة العالية التي يفتخر بها، فيقول:[1] وهو من مجزوء الرمل.

لَيْتَ شِعْرِي بِمَ ذَا المَفْخَرِ يَا نَزْرَ الحَيَاء
أبِسَيْفٍ أمْ بِجُودٍ أمْ بِمَجْدٍ أمْ سَنَاء
قَدْ تَحَلّيْتَ بِكِبْرٍ وَبِعُجْبٍ وَجَفَاء
شِيَمٌ لَيْسَتْ لَعَمْرِي شِيَماً لِلأُدَبَاء
أمْ مِنَ ابْنَاءِ مُلُوكٍ أنْتَ أمْ مِنْ وُزَرَاء
أمْ مِنَ ابْنَاءِ قُضَاةٍ عُلَمَاءَ فُضَلاء
أمْ مِنَ ابْنَاءِ حُمَاةٍ بِالظُّبَا يَوْمَ اللِّقَاء
أمْ مِنَ ابْنَاءِ فِصَاحٍ خُطَبَاءَ بُلَغَاء
أيْنَ مِنْ ذَا الصِّنْفِ تَعْتَدُّ سَخِيفُ السُّخَفَاء

[1] الجزار السرقسطي. الديوان، ص١٣٩ـ ١٤٠.

فهو ليس ابن كرم معروف، أو مجدٍ أو رفعة، ومكانة، وهو ليس من الأبطال الذين يشار إليهم بالبنان، فقد تحلى بصفات لا يمكن أن تكون في الأدباء، فالكبر والعجب والجفاء من الصفات التي تبعده عن أية مفخرة يفتخر بها ، ثم يطرح مجموعة من الأسئلة عن موقعه بين الفئات التي يحق لها أن تفخر، وهو بتساؤلاته هذه ينفي أية صلة تربطه بمفاخر الرجال، فهو ليس من أبناء الملوك أو الوزراء أو أصحاب الشأن الذين يفتخرون بمكانتهم، وليس من أبناء القضاة العلماء الذين يفتخرون بعلمهم وتقواهم، وليس من أبناء الأبطال والقادة الذين يفتخرون بشجاعتهم، وليس من أبناء الفصحاء البلغاء الذين يفتخرون بفصاحتهم وبلاغتهم، فإذا لم يكن له نسب بأي من هؤلاء ، فما المفاخر التي يفتخر بها؟ وبمن يفتخر؟.

وفي النصف الآخر يؤكد حقيقة البرجي، ويكشفها على الملأ من خلال الطعن بنسبه، ونسب أبيه ووضاعته، فما هو إلا ابن فراء يتعامل مع جلود الحيوانات ودباغتها لصناعة الفراء، وهو من قوم حمقى، وفقراء، ليس لهم من المكارم نصيب، ثم هو ينحدر من بلدة برجة التي يصفها بأنها موطن الأغبياء التي لم تنجب ذا مكانة، ولهذا يرى أنه ليس من حقه أن يفتخر بشيء؛ لأنه لا يملك ما يفتخر به إلا صناعة الفراء. يقول في ذلك:

بِمَ تُكْثِرُ مِنْ قَوْ   لِكَ "لَسْتُمْ بِكُفَاء"
أنْتَ إلا نَجْلُ فَرَّا   ءٍ تَغَذَّى بِشَقَاء
وَجَرَى الدَّهْرَ وَرَاءَ الـ   فَلْسِ حِرْصَاً لاقْتِنَاء
أيُّ فَخْرٍ لِمُغَذَّى   بِقَذَارَات فِرَاء
قَدْ نَشَا مَا بَيْنَ أشْقَا   فِ دِبَاغٍ كَالخَرَاء
جَدُّكَ البُرْجِيُّ مِنْ بُرْ   جَةَ دَارَ الأغْبِيَاء
مِنْ جُعَاةٍ[1] لا سُرَاةٍ   وَحُفَاةٍ أشْقِيَاء
فَدَعِ الفَخْرَ فَلَيْسَ الـ   فَخْرُ سِيمَا العُقَلاء
حُطَّ عَنْ مَنْكِبِ فَخْوَا   كَ رُوَاء الكِبْرِيَاء
فَارْتِفَاعُ المَرْءِ فَوْقَ الـ   قَدْرِ سِيمَا الوُضَعَاء

تحامل بعض الشعراء على الفقهاء بشكل مبالغ فيه أحياناً، وصوروهم بصور قبيحة بعيدة عن الواقع والمنطق وسلامة النفس والذوق العام، بهدف السخرية والتندر وتشويه صورتهم عند عامة الناس، وقد يعود هذا التحامل إلى شدة التنافر بين الشعراء والفقهاء، وشدة الحساسية بينهما،ومن الصفات الذميمة التي جعلت بعض الشعراء،بل بعض الفقهاء يوجهون سهام نقدهم

([1]) الجعاة : الحمقى.

الشديد إلى الفقهاء ما جبل عليه بعض فقهاء المالكية من تعصب للرأي، خصوصاً رأي الإمام مالك، وتلاميذه الكبار، والسخرية من عجزهم عن إضافة أي جديد إلى ما قاله هؤلاء الفقهاء ، يبدو هذا واضحاً من الأبيات التي أنشأها الفقيه منذر بن سعيد البلوطي في ذم الفقهاء المتعصبين لأقوال الإمام مالك وتلاميذه ، يقول في هذا [1]: وهو من الطويل.

عَذِيرِيَ مِنْ قَوْمٍ يَقُولُونَ كُلَّمَا طَلَبْتُ دَلِيلاً هَكَذَا قَالَ مَالِكُ
فَإِنْ عُدْتُ قَالُوا هَكَذَا قَالَ أَشْهَبٌ وَقَدْ كَانَ لا تَخْفَى عَلَيْهِ المَدَارِكُ
فَإِنْ زِدْتُ قَالُوا قَالَ سُحْنُونُ مِثْلَهُ وَمَنْ لَمْ يَقُلْ مَا قَالَهُ فَهُوَ آفِكُ
فَإِن قُلْتُ قَالَ اللهُ ضَجُّوا وَأَكْثَرُوا وَقَالُوا جَمِيعَاً أَنْتَ قِرْنٌ مُمَاحِكُ
وَإِنْ قُلْتُ قَدْ قَالَ الرَّسُولُ فَقَوْلُهُمْ أَتَتْ مَالِكَاً فِي تَرْكِ ذَاكَ المَسَالِكُ

وبالغ الشاعر اليكي كثيراً عندما صوّر الفقيه بكائن نتن قذر نجس ، ينقل النجاسة إلى كل ما يحيط به ، محذراً من النطق باسمه ، أو المرور بجانبه ، لأن النجاسة المنبعثة منه من مبطلات الوضوء الذي يستوجب إعادته لصحّة الصلاة فيقول[2]: وهو من الكامل.

أَعِدِ الوُضُوءَ إِذَا نَطَقْتَ بِهِ مُتَذَكِّرَاً مِنْ قَبْلِ أَنْ تَتَنَسَّى
وَاْحفَظْ ثِيَابَكَ إِنْ مَرَرْتَ بِهِ فَالظِّلُّ مِنْهُ يُنَجِّسُ الشَّمْسَا

ومن الصور القبيحة التي رسمها الشعراء للفقهاء الفساد والانحراف الأخلاقي والشذوذ، فهذا الأعمى المخزومي[3] يصف الفقيه الطبني الذي كثيراً ما نعى عليه شرب الخمر، بالشذوذ الجنسي بممارسته اللواط الذي تمجّه الأنفس السوية، يقول في ذلك[4]، وهو من الكامل :

طُبْنِيُّكُمْ هَذَا الفَقِيهُ مُحَقِّقٌ بَاقٍ عَلَى عَهْدِ الصِّدِّيقِ مُقِيمُ
شَهِدَتْ عَلَيهِ بِاللُّواطِ جَمَاعَةٌ واللهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَظْلُومُ
سَاءَ الفَقِيهَ بِأَنِّي مُتَخَلِّعٌ وَيَسُرُّنِي أَنَّ الفَقِيهَ قَطِيمُ

---

(1) كنون ، عبد الله . **أدب الفقهاء** ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، ١٩٨٨ ، ص ١٤١ .

(2)ابن سعيد المغربي . **المغرب في حلى المغرب** . ج٢ ، ص ٢٦٧ .

(3) أبو بكر محمد الأعمى المخزومي، كان أعمى شديد القحة (الجرأة والوقاحة) والشر، معروفاً بالهجاء مسلطاً على الأعراض سريع الجواب، وصف بأنه بشار الأندلس، توفي بعد سنة ٥٤٠هـ. انظر: **الإحاطة**، ج١، ص٤٢٤، **المغرب في حلى المغرب**، ج١، ص٢٢٨.

(4) ابن إدريس، صفوان. **زاد المسافر**، ص١١٨.

وبنفس الأسلوب والألفاظ صور المخزومي أحد الفقهاء القضاة ، عندما وصفه بالانحراف الخلقي ، وبأنه يمارس اللواط، وبأنه ديّوث لا يغار على نسائه، ويرى العار يحيق بهن ولا يحرك ساكناً، وفي هذا المعنى يقول(١): وهو من الطويل.

أَصِيخْ لِلَّذِي لَمْ يَأْتِ دَهْرٌ بِمِثْلِهِ ... لَعَمْرِي وَلَمْ يَسْمَعْ بِهِ قَطُّ سَامِعُ
لِبَأْسَةِ قَاضٍ قَطِيمٌ مُتَوَلِّلٌ ... ثَوَالِيلُهُ مِنْ أَنْ يُنَاكَ مَوَانِعُ
فَرَاحَتُهُ فِي أَنْ يَرَى نَيْكَ عِرْسِهِ ... كَذِي العُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ وَهْوَ رَاتِعُ

هذه الصورة السلبية القبيحة التي رسمها الشعراء للفقهاء تكاد تكون بعيدة عن الواقع، فهي غالباً من نسج خيال الشعراء الذين ساءهم ما وصل إليه الفقهاء من مكانة واحترام، وربما تكون هذه الأشعار خروجاً من الجد إلى الهزل من اجل الترويح عن النفس ، وتغذيتها وتنشيطها لتستأنف نشاطها وجدها.

الفصل الثالث: صورة الفقيه في الموشح والزجل

تتجلى صورة الفقيه الإيجابية والسلبية في الشعر الأندلسي في موضوعات المديح والرثاء والنقد والهجاء، وبها رسم الشعراء للفقهاء لوحات فنية جميلة،ركزت على الجانب المشرق من حياة الفقيه وصفاته، وأعطت صورة واضحة عن المجتمع الأندلسي وظروف حياته السياسية والاقتصادية والاجتماعية،وقد أبدع الشعراء في إخراج هذه اللوحات الّتي تعبر أصدق تعبير عن صورة الفقيه، ومدى الاحترام والتقدير والإعجاب والتعظيم الّذي كان يكنه أبناء الأندلس للفقهاء.

أما في الموشحات فقد كادت هذه الصورة أن تختفي، فلا يبدو لها أثر في الموشحات على كثرتها، وقد يكون السبب المباشر والرئيس في ذلك أن فن الموشحات عندما ظهر أول ما ظهر "لم يكن يعالج الموضوعات التقليدية من مديح ورثاء وهجاء"(٢) بل كانت الموشحات في أول أمرها وقفاً على الغناء دون غيره، "فكانت تعالج موضوعات الغزل والخمريات ووصف الطبيعة"(٣) الّتي تناسب الغناء الّذي انتشر في الأندلس انتشاراً كبيراً.

ولذلك لم تضم أمهات المصادر الأندلسية بين طياتها موشحات في الأغراض التقليدية الأساسية. أما في الزجل الّذي جاء متأخراً عن الموشح واتخذ لغة غير اللّغة الفصيحة، الّتي

---

(١)ابن إدريس، صفوان. **زاد المسافر** ، ص١١٧.

(٢) عنان، محمد زكريا، **الموشحات الأندلسية**، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٣١،١٩٨٠، ص ٥٩.

(٣) الكريم، مصطفى عوض، **فن التوشيح**، بيروت، ١٩٥٩، ص ٣٣.

اتخذها الموشح، فقد انتشر وكثر الزجالون الذين ينظمون به أشعارهم في مختلف الموضـوعات، حتى الموضوعات والأغراض التقليدية المعروفة (الرثاء، المديح، الهجاء) ومن هنا فقد رسم الزجالون صورة لا تختلف كثيراً عن الصورة الّتي رسمها الشعراء في القصيدة التقليدية، خاصة أن الزجالين ما هم إلا شعراء قَصَّروا عن مجاراة الشعراء الكبار في الأندلس شعرياً، فـاتجهوا إلى هذا النوع من الشعر الّذي يناسب البيئة الأندلسية في ذلك الوقت فأبـدعوا فيـه، وانتـشرت أسماؤهم وعلت منازلهم، ولعل ابن قزمان[1]أشهر من نظم الأزجال في الأندلس، ويعتبـر بحـق إمام الزجالين فيها ، وسوف أقتصر على متابعة صورة الفقيه في الأزجال على ما نظمـه ابـن قزمان في ديوانه الزجلي "إصابة الأغراض في ذكر الأعراض".

الفقيه في أزجال ابن قزمان:

تنوعت موضوعات الزجل عند ابن قزمان شأنها شأن الفنون الأدبية الأخرى، وكان للفقيه نصيب منها، فجاءت صورة الفقيه ضمن لوحتين فنيتين متناقضتين في المضمون، فقد ظهـرت الصورة المشرقة للفقيه بألوانها الزاهية البراقة وبصفاته الطيبة، إلى جانب تلك الصورة القاتمـة المزرية المبتذلة الّتي رسمها ابن قزمان للفقيه.

عندما يمدح ابن قزمان الفقهاء فإنه يصورهم بأشخاص يملكون قدرات وملكات عظيمـة، فالذكاء والدهاء من أهم ما يميزهم عندما يتعاملون مع المسائل الّتي تطرح عليهم، لإيجاد الحـل المناسب لها ،المشفوع بالدليل والحجة القاطعة، ويصفهم كذلك بـالحفظ الـشديد لأمـور الـدين والشريعة، وبأنهم أطهار أنقياء لا يقربون حراماً، ولا يحللونه، وكذلك يصفهم بالحذق والمهـارة والفهم الصحيح لكل أنواع العلوم، وفي هذا يقول في أحد أزجاله[2]:

وَنَمدَحْ مُلُوكْ الدِّينْ مِثْلَ ابْنَ فَرَجْ [3]

---

[1] هو أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن عيسى بن قزمان، إمام الزجالين في الأندلس، كان مشتغلاً بالنظم المعرب، فرأى نفسه تقصر عن أفراد عصره، فعمد إلى طريقة لا يمازجه فيها أحد، فصار إمام أهل الزجل، توفي سنة ٥٥٥هـ. انظر: ابن سعيدالمغربي، **المغرب في حلى المغرب**، ج١، ص ١٠٠.

[2] ابن قزمان، **الديوان، إصابة الأغراض في ذكر الأعراض**، تح: ف. كورنيطي، المعهد الإسباني العربي للثقافة، ١٩٨٠، زجل رقم ١٥، الدور الخامس، ص ١١٤.

(3) هو محمد بن فرج مولى الطلاع، فقيه قرطبي مشهور، محدث، مقدم في الفتوى، من أهل الثقة والفضل، توفي سنة ٤٩٧هـ. انظر: الضبي. **بغية الملتمس**، ترجمة رقم ٢٥٦، ص ١٠٦.

الذَّهْنَ الذَّكِي في المَسَايِلْ وقَطْعَ الْحُجَجْ

وَالحِفْظَ القَوِي وَالطَّهَارَة قُلْ بِلا حَرَجْ

فَمَا أَفْهَمْ بَالغَوَامِضْ وَمَا أَحْذَقْ

ويصف ابن قزمان ممدوحه الفقيه ابن فرج بالفصاحة والبلاغة والكرم والسخاء، الّذي أصبح عنده مثل الواجب الّذي لا يمكن أن يتقاعس عن أدائه، والقيام به تجاه الآخرين، فالمال الرابح عنده هو المال الّذي ينفقه في وجوه الخير لا الّذي يبقيه ويكتنزه، يقول في ذلك:(١)

وَمَا أَسْبَقْ لِلمكارِمْ وما أَسْخَى يَدَيْه

قَدْ صَار الكَرَمْ (والسخا) عِنْدُ وَاجِبْ عليه

فَلَسْ يَعْجَبْ الدرهمْ إلا (أن) يطلبْ إليْه

ولا يعجبْ مَال إلا إذَا انفَقْ

ويصور الفقيه ابن يونس بأنه سيد عصره ووحيده في العلم والمعرفة، فهو فقيه أصيل بلغ من البلاغة والفصاحة، ما لم يبلغه سحبان، وبلغ من الخطابة، ما لم يبلغه قس بن ساعدة .يقول في ذلك(٢):

مَا يَعْمَلَ الفَقِيهْ أَبُو يُونُسْ (٣)

فَهُو الأصَح وَهُو الأصْلِ والأُس

لا سَحْبَانَ البَلاغَةْ وَلا قُسْ

أَخْطَبْ مِنَ الفَتَى الذِي سَمَّيْت

ومن أسمى ما يمدح به الفقيه ويوصف في ذلك العصر، حفظه للمدونة فمن حفظها فقد بلغ الكمال في الفقه، وبلغ المنزلة العالية الّتي لا تدانيها منزلة، وهذا ما أسبغه ابن قزمان على الفقيه أبي يونس، الّذي مدحه بحفظه المدونة ووصفه بالعالم المتبحر بالسنة الشريفة، الّذي لا يجاريه

---

(1)ابن قزمان، الديوان، زجل رقم ١٥ ، الدور ٦ ،ص ١١٤.

(2) ابن قزمان، الديوان ، زجل رقم ١٨، الدور ٧، ص ١٢٨.

(3) هو مغيث بن يونس بن محمد بن مغيث، يكنى أبا يونس، شوور بقرطبة مدةً ، وشرف بنفسه وببيته النبيه الرفيع، توفي سنة٥٥٢هـ. انظر: ابن بشكوال، الصلة، القسم الثاني، ترجمة رقم ١٣٨٦، ص٦٢٠.

مجارٍ ولا يباريه مبارٍ، وقد حوى من المفاخر والمآثر والمكرمات ما لم يكن لغيره، وبها قد خلد ذكره، وعلا شأنه على مر الأيام. يقول في ذلك:

وَيَحْفَظ المدوَن ظَاهِر[1]

وَلَسْ لعلمه بالسُنة آخِرْ

أفخر فإنّ مَعَك مَفَاخِرْ

بالله يا أخِي غَايَة ما أبقيْت

ثم يصوره بالحر الشريف العفيف النظيف، الّذي لا يقرب الدنايا، وفعاله كريمة لا يخدشها سوء، وهو زينة الشباب في المحافل والاجتماعات، وقد جمع في نفسه كل صفات المروءة والشرف والفضائل والمعالي، فهنيئاً له هذه المكارم وتلك الخصال. يقول في ذلك:

يَا حُرٌ يَا شَرِيفَ الفَعَايلْ

يَا زِيْنَة لشَبَابَ المَحَافِلْ

هَنِي ذَا العُلا والفَضَايِلْ

جَمَعْتَ كُلَّ خَصلَة فَهنَّيْتْ

وصور ابن قزمان عودة الفقيه ابن الحاج[2] إلى القضاء بأنه انتصار للحق، وإحياء لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وإعادة الاعتبار إليها، فالفقيه ابن الحاج اجتمعت فيه خلال ثلاث " الورع والعلم والدين" بها تستقيم الأمور، ويسود الحق والعدل والإنصاف، وبدونها فإن الظلم والجور، وضياع الحقوق هو الّذي سوف يسود. يقول في ذلك[3]:

ظَهَرَتْ سُنَّةُ مُحَمَّدْ	وانْصَقَلْ مِرَا الإِسْلامْ
رَجَعَ ابنَ الحَاجِّ قَاضِي	فَأَدَامَ اللهُ ذَا الأَيَّامْ
وَصَلَ المَظْلُومْ لِحَقُّ	وَانْتَصَفْ غَنِي وَمِسْكِين
أَجْتَمَعْ فِيهِ الثَّلاثْ	أَلْوَرَعْ والعِلْمِ وَالدِّينْ

([1]) أي يحفظ المدونة عن ظهر قلب.

([2])هو القاضي محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبي المعروف بابن الحاج، كان من جلة الفقهاء، وكبار العلماء، بصيراً بالفتيا وكانت الفتيا في وقته تدور عليه ، لمعرفته وثقته وديانته ، توفي سنة٥٢٩ هـ. انظر: النباهي. **تاريخ قضاة الأندلس(المرقبة العليا)** مرجع سابق ،ص١٠٢.

([3]) ابن قزمان، **الديوان** ، زجل رقم ٩٧، الدور ١، ص ٦٥٦.

فَيَـــــــــزُول الحَــــــــقّ إذا زَالْ وَيُـــــــــــدُوم الحـــــــــقّ إذا دَامْ

ويصفه بأنه الشريف الأفعال الوقور التقي الَّذي يخاف الله ويراقبه المبرأ من النفاق والرياء، الَّذي ناسب باطنه ظاهره ،وهو العفيف النفس، الطاهر القلب، الملجأ الَّذي يلتجئ إليه المحتاجون والضعفاء، وهو الناصر لهم، المدافع عنهم ، المعين لهم على نوائب الدهر، يقول:

يَـــــــاهُ الـــــــشَّرِيف الأفْعَــــــالْ الوَقُــــــورْ بَــــــاطِنِ وَظَــــــاهِرْ
الّـــــــذِي ثَـــــوبُ وَقَلْــــــبُ كُـــــلٌ وَاحِـــــدْ مِنْـــــهُ ظَـــــاهِرْ
إذْ قَـــــدْ انْتَـــصَرْتُ أنَـــا بِيـــكْ فَكُـــنَ آنْتَ وَلِـــي وناصِــــــرْ
وَإذَا رَجَوتَـــــــكَ أشْـــــــهُرْ فَكُـــنَ آنْتَ فِـــي عَـــوْنِ أيّـــامْ

ويصور مدى حب الناس له، والتفافهم حوله ، وتعظيمه وتقديره، فسعادة الآخرين بأن يروا هذا الفقيه مسروراً وموفقاً، فالفقيه ابن الحاج قمر يستضيء بنوره الآخرون، ويستمدون البهاء والنضارة منه، لذلك من أراد التبرك به وبحث عن المعالي، والمنزلة الرفيعة ،والسؤدد والسيادة ،والذكر الحسن، فما عليه إلا أن يتشرف بزيارة هذا الفقيه، فزيارته والتشرف بمقابلته هي المنزلة الرفيعة بحد ذاتها، ومن لم يزُره فإنه قد أضاع خيراً كثيراً، كالقائم في الصلاة الّذي أسقط تكبيرة الإحرام الّتي هي من أركان الصلاة وبدونها لا تصح، يقول في ذلك:

لا سُــــــــــرُورْ لِحَــــــــــدْ إلاّ أنْ يُـــــــدِيمْ اللّـــــــه سُــــــــرُورَكْ
لَــــسْ يُــــرَى فِــــي وَجْــــه احَــــدْ نُــــورْ حَتّــــــى يَسْتَــــــضِي بِنُــــــورَكْ
مَـــــنْ طَلَـــــبْ كَـــــسبَ المَعَـــــالِي وَامْتَنَـــــعْ مِـــــنْ أنْ يُـــــزُورَكْ
هَـــــذَاهُ بِحَـــــالْ مَـــــنْ أسْـــــقَطْ فالـــــصلاةْ تَكْبِيـــــرِ الإحْـــــرَامْ

رسم ابن قزمان صورة مشرقة للفقهاء من آل حمدين، فصوّر أبا القاسم ابن حمدين(1) بأنه قاضي الحاجات، وملجؤه عند الملمات، فهو السراج الّذي ينير له حياته عندما تدلّهم، وفي ذلك يقول(2):

سَـــــــــــألُوني طَوَايِـــــــــــفْ مِـــــــنْ آشْ نَـــــــدَبّرْ عِلاجِـــــــي
قُلْـــــتُ يَـــــا قَـــــوْمْ فُـــــلانْ هُـــــو فِـــــي كُـــــلْ ظُلْمَـــــة سِـــــرَاجِي

---

(1)هو أحمد بن محمد بن علي بن حمدين التغلبي، قاضي الجماعة بقرطبة،يكنى أبا القاسم، كان نافذاً في أحكامه، جزلاً في أفعاله، وهو من بيت علم ودين وفضل وجلالة، توفي سنة ٥٢١هـ . انظر: النباهي. **تاريخ قضاة الأندلس(المرقبة العليا)** ص ١٠٣.

(2) ابن قزمان، **الديوان**، زجل رقم ١٠٣، دور ٢، ص ٦٩٢.

وَحَـــــوَاجِي كَثِيـــــرَهْ وَأنْـــتَ تَقــــضِي حَـــوَاجِي
وَنبيـــعْ نُبْلـــيْ غَـــالِي وَغَـــالِيْ يَـــا ابْنِـــي اشْـــتَرَانِي

وهو شريف في نفسه، عظيم الكرم ، مفرج الكرب، به تزول الهموم ،وتتبدل أحزانه أفراحاً ، ولا يتصور أن يعيش حياة كريمة لو لم يكن هذا الفقيه يعيش في عصره، فهو الّذي يجدد حياته، ويبعث فيها الأمل والحياة، لذا يتمنى أن يمدّ الله في عمره، ويجعله مخلداً في الأرض؛ ليكون الأمل الّذي يتعلق به الناس، يقول في ذلك:

يَـــا شَـــرِيف المَحَاضِـــرْ وَيَـــا مَلِـــيح الكَرَامَـــهْ
هَـــرَبَ الهَـــمّ عَنِّـــي والفَـــرَح عِنْـــدِيْ أقَامَـــهْ
وَابقَــــا ألاّ بـــالنَّبِي وَعِـــشْ لِيَـــوْم القِيَامَـــهْ
وأي زَمَـــانْ كـــان نقاسِـــيَ لَـــوْ لَـــمْ تكـــن فِـــي زَمَـــانِيْ

وهو الفقيه المشاوَر الّذي يرجع إليه في توضيح الأحكام واستنباطها، وإنهاء الخلافات الفقهية، وهو الّذي يقضي بين الناس بالعدل، علاوة على ما وهبه الله من البلاغة والفصاحة الّتي لا يجاريه فيها أحد، فهو وحيد عصره في قرطبة ولا مثيل له فيها.يقول في ذلك:

الفَقِيْـــهَ المـــشاوَر وَاوف فالمدينـــة مُخَطَّـــطْ
ونكُـــون فِيهَـــا قَاضِـــي بعَـــزةِ لـــم تُـــرا قَـــطْ
اختـــصَار فـــي بَلاَغـــه وَذَا الكَـــلام كـــلٌ يُـــسقَطْ
إنمـــا أنـــتَ واحـــد ولَـــسْ فـــي قرطبـــه ثـــانِيْ

وفي زجل آخر وصفه بأنه صاحب الفضائل العظيمة، والمكارم العميمة حتى أصبح الملجأ الّذي يأوي إليه الناس، طمعاً بمعروفه وعطائه، وهو المبرأ من كل سوء ونفاق ورياء، فطابق مظهره مخبره، يقول في ذلك[1]:

هُ الذِي شَيَّد رُكْنَ الفَضَايلْ
وَاوْجَبَ المَرغُوْب عِنْدَ الوَسَايِلْ
وَوَسَّعَ المَعْرُوفْ لِكُلِّ سَايِلْ
وَطَابَتْ أفعالُ منظرْ وَمَخْبَرْ

([1]) ابن قزمان، **الديوان**، زجل رقم ٧٩، الدور ١٣، ص ٥٠٨

وهو فخر للدنيا والدين، والعصر الّذي عاش فيه انحنى له احتراماً وتقديراً ،لاثماً قدميه اعترافاً بالفضل، والمجد والفخار لم يُعرفا إلا بسببه ومن أجله، فسيرته غلبت على الأندلس كلها، يقول في ذلك:

مَا دَامت الدنيا تفخر بعدلُ

وَخَرَّت الأيام لتُــرب نَعْلُ

وَالمَجْدُ لم يُعْرَف إلاّ من اجْلُ

وَمَنْ ذُ المَمْدُوْح في كُلّ مخضَر؟

ويرسم له صورة الكريم صاحب الخير الوافر، الّذي لا يمنع أحداً منه، وصور الأماني والآمال وهي تأتيه طائعة تنظر بعين العطاء إليه، فالله تعالى قد زاده شرفاً ومجداً وفخراً على الجميع:

مَوْلانا أبُو القَسِمْ قَاضِي الجَمَاعَهْ

لا زالَت الخَيْرات عنْدَك مُشَاعَهْ

وجاتك الآمَال سَمْعاً وَطَاعَهْ

وزادك المولا مَفْخَرْ لِمَفْخَرْ

وصور ابن حمدين بالمنارة الّتي يهتدي بنورها الضالون، وهو الّذي أعاد الحياة للأحكام العادلة بعد أن غُيبت وأقام عوجها، وعلى يديه ظهر الحق وتوارى الباطل مدحوراً، يقول في ذلك:

أنْتَ الهُدَى للدّيْن فيهْتدَا لك

فأوْزَع المَوْلى شُكر اهتبَالك

مَشَى القَضَا حَيْران حتى انتهالك

فالبَاطِل اتلاشَىْ والحَقّ أظْهَرْ

وفي زجل آخر، يرسم ابن قزمان صورة مثالية للفقيه أبي القاسم بن حمدين، عندما يصفه بكل صفات الشرف والمروءة والعدل، فهو صاحب المفاخر، والمآثر، والمروءة ،والعدل، وهو الأمل الّذي يتعلق به الناس، والذي حاز على كثير من الفضائل الّتي تعلي من شأنه. يقول في ذلك:

قُلٌ مَنْ يَعْمَلْ مَعَكْ ذِيْ النَّوَادِرْ[١]

قُلْت ابن حَمديْنِ وَحيْد المَفَاخِرْ

عُدَّة الحَاضِرْ وأُنْس المُسَافِرْ

الّذِي يَكْسَبْ فَضَايل ويَجْمَعْ

ويرسم له صورة الفقيه الّذي حاز المكانة العالية، والسمعة الطيبة، صاحب الرأي السديد واللسان والفصيح، والنظر الثاقب والقول الحسن، والذي توارث هذه الصفات من آبائه وأجداده، ومهما وصف ووضع له من صفات، فإن الوصف يقصر عن إعطائه حقه. يقول في ذلك:

فَلَكَ العلْيَا والفَخرْ المُشيَّدْ

النَّظَرْ والرَّأيْ والقَوْل المُؤكَّدْ

شرفٌ مُوْرَث عن والِدْ وَعَنْ جَدْ

إشْ يِقَعْ وَصْفِي بِمَا عَنُّ نَسْمَعْ

ثم يصوره بخادم الدين وحامي الشريعة، الذي حارب الانحراف والمروق عليه، ومضى الباطل يجر أذيال الخيبة والفشل، يقول:

مَهّدَ الإسْلاَم وَصَاحَ العِوَجْ غَاقْ

حتى قَامَ الدّيْن والحق عَلى سَاقْ

وَمَضَى البَاطِلْ مُشَيَّع بِشَفْلاَق[٢]

وَخَرَجْ هَارِبْ مُحَيرْ مُبَرْقَعْ

ويصور القاضي الفقيه أبا عبد الله بن حمدين[٣]، بأنه صاحب المعالي، والمنزلة الرفيعة، والعرض الشريف المصان، النقي الطاهر، وهو صاحب الذكر الحسن، والثناء الجميل، ويصفه بأنه خير خلف لخير سلف، يسير بسيرة أبيه، أبي القاسم بن حمدين. يقول في ذلك[٤]:

---

(1) ابن قزمان، الديوان ، زجل رقم ٧، الدور ٨، ٩، ١٠، ص ٤٤.

(2) الشفلاقة: ضرب العجيزة بظهر القدم.

(3) هو أبو عبد الله محمد بن علي بن أبي القاسم بن حمدين، تولى قضاء قرطبة، بعد وفاة والده ما بين ٥٢١-٥٢٩، انظر : ابن بسام، الذخيرة، القسم الأول، المجلد الثاني، ص ٨٣٩.

(4) ابن قزمان. الديوان، زجل رقم٧٢ الدور ٨، ص٤٦٦.

أَبُو عَبْدِ الله مَا أَشْهَرْ عُلاَكْ

وأنقَى عِرْضَكَ وأطْيَبْ

عوِض عَنْ وَلْدَك نريد أن نراك

تْرِدِ الحُلَّ لصَحْبَ المَتَاعْ

ويصفه بمجموعة من الصفات الّتي تضعه في المقام السامي والعالي بين الناس، فقد اختصه الله بالأخلاق الفاضلة الحرة الكريمة، والسيادة والمجد العظيم، وأمده بالمال الوفير الّذي ينفقه في وجوه الخير، علاوة على ما وهبه الله من عزيمة قوية ورأي مطاع. يقول في ذلك[١]:

لَقَدَ فَضَّلَكُمْ الله بِعَظِيِم

أخلاقاً حرة وخلقاً كريم

وعرضاً مُورَث ومجداً قديمْ

ومالاً ممدوداً وَعَزْمَاً مُطَاعْ

في مرثية طويلة في رثاء الفقيه القاضي أبي القاسم بن حمدين، يصور ابن قزمان ما لهذا الفقيه من جاه ومكانة واحترام وتقدير بين الناس، وما كان يتصف به من صفات الكرم والجود والصدق، الّتي فقدت معناها بموته، ولم يبق منها إلا الاسم. يقول في هذا المعنى[٢]:

بَعْدَ ابن حَمْدِيْن لا حُرْمَةْ وَلا جَاه

الكَرَمْ عَاصِي إذ فَارَق لِمَولاه

قَدْ بَقَى لَفظْ وَفَاتَنَا مَعْنَاهْ

فالنَّغَمْ مَحْفُوظ والصِّدق مُضَيَّعْ

وصوره بأنه رجل المواقف كلها، في ساعات الشدة والرخاء، "مات أبو القسم شمسك وهلالك" لذلك وقف ابن قزمان موقف المعاتب والمؤنب لهذا الزمان، الّذي اغتال ابن حمدين، وأصاب أهل الأندلس بمصيبة المصائب الّتي لا تعدلها مصيبة، فالزمان الّذي يتخلص من رجاله المخلصين ويغتالهم لا أمان له، ولا أخلاق عنده، فلم يعد يأمن له، وبعد موت ابن حمدين ليفعل الزمان ما يشاء، لأن هذه المصيبة لا يعدلها مصيبة. يقول في الزجل نفسه. الدور (٩):

(١) ابن قزمان، **الديوان**، ، زجل ٧٢، الدور ٩، ص ٤٦٧.

(٢) ابن قزمان، **الديوان**، زجل رقم ٨٣، الدور ٦، ص ٥٢٨-٥٣٦.

يَا زَمَانْ افتكْ واعْمل ما بَدا لَكْ

مَاتْ أبو القَسِمِ شَمْسَكْ وَهِلاَلَكْ

تَقْطَع أيامَك بِعَفْرِ رِجَالَكْ

هَذِهِ أخْلاق وَهَذه مقطع؟!

والمصيبة الّتي ذهبت بابن حمدين لا تقف عند ذلك، وإلا لهان الأمر، فالأمر يتعدى إلى ما هو أهم وأخطر: إلى السنة الشريفة والدين الحنيف الّذي فقد بموته أكبر رجالاته، فأصبح الدين ممزقاً مقطع الأوصال، من الصعب إعادة لحمته إلى سابق عهده. يقول في ذلك:

ضَاعَتْ السُنَّة فَأصْبَحَ الإسْلام

كلُّ رَنْبِيط[1] لا طَوْق ولا أكْمَام

مَنْقُوض البنتات[2] لَسْ فيْه وصلاً تامِ

وَارِي[3] أو مقدم لَسْ فيه مَا يَرْقع

ويصور موقف الحزن والأسى على موت ابن حمدين ،فالمصاب أكبر من الصبر والاحتمال، فهم لم يفقدوا الفقيه الجليل ولم يودعوه وحده، بل ودعوا معه العلم، والمعالي، والمآثر، والكرم ،والدين، والمجد، وهذا الّذي لا يمكن تعويضه، فابن حمدين من الرجال الذين لا يمكن أن يجود الزمان بمثلهم بسهولة، ولا يقوم بمقامه أحد. يقول من الزجل نفسه الدور [13]:

مُتَّ يا قاضي وَبَي قاضي نَجْبَر؟

وَأي صَبَرْ يَبْقَى والنَّازلَه أكبر؟

لَسْ يُودّعْ فيْكَ العلم ولا أكْثَرْ

العُلا والدّين وَالمَجْد مُرَقَّعْ

ويستكمل ابن قزمان رسم لوحة الفقيه، عندما يصور عظم الرزية والمصيبة الّتي أصابت الإسلام بموت ابن حمدين، والفراغ الكبير الّذي خلفه هذا الغياب، ليس في مجال الدين والعلم فقط، بل في المجال الاجتماعي أيضاً ، فقد كشف موته أناساً كثيرين كان خلق ابن حمدين وعلمه

---

(1) رنبيط : عجمي ، ومعناه ممزق.

(2) البنتات: عجمية، ومعناها الغرزات.

(3) واري الشيء : مؤخره.

وكرمه وتقواه يغطي عليهم، وأظهر مدى المساحة الّتي كان يشغلها ابن حمدين قبل موته،فقد ترك الناس في حيرة من أمرهم. يقول في الدور (١٤) من الزجل نفسه :

جاتن في فقدك رَزِيَّة كَبِيْرَة

سِيْرَة الإحْسَان يالسنة سيرة

وَانكَشَفْ بَعْدَك أقْوَاماً كَثِيْرَة

كَشْفَتَ البُرغوث في جَبْهَة الأصلَع

ويصور مدى التناقض الّذي يأتي به الزمان الخائن اللعوب، الّذي فيه يشقى النبيل الشريف والعظيم القدر، بينما يعيش الجاهل والصغير في لذة ونعيم، فالعصر بعد ابن حمدين هو عصر الحمقى والجهلة، وربما يكون في هذا الدور والدور السابق له، تعريض بالفقهاء الّذي جاءوا بعده، ولم يكونوا بمستوى ابن حمدين علماً ومكانة. يقول في ذلك:

نَحْنُ في حيْرَه وقَاضِيِنَا قَدْ مَات

والزَّمَان لَعَاب يوقفن بشاه مَات

وَالنَّبيْل يَشْقَى والجَاهِل في لَذَّات

يَا فَهِيْمَ اهْبط ويا أبلَه اطْلَع

ويختم زجله هذا بتصوير مشاعر ابن قزمان تجاه الفقيه، فموته أوجع قلبه وآلمه، وهو وإن كان يكنّ له كل الحب والوفاء في حياته، إلا أن هذا الحب ما زال حياً في قلبه بعد موته، وإن دل على شيء فإنما يدل على أن لابن حمدين مكانة عظيمة في قلبه، لم يستطع إخفاءها، وأنه صادق فيما يقول بحقه، لأنه مات ولم يعد هناك ما يرجوه منه. يقول في ذلك:

وَقَدْ حَضَرْ بُعْدَكْ وَغَابْ عَنّ قُرْبَكْ

وَحَبَبْتَكْ حَي وَمَيّت نَحبّكْ

اسْمَع آش قَال ذَا ويوجَعْن قلبك

تَارك بالله ءُ بَعَدْ مما يَوْجَعْ

في النصوص السابقة تبدو صورة الفقيه عند ابن قزمان صورة ناصعة ومشرقة، وتبدو العلاقة معه علاقة ودّ، وانسجام ، وصفاء، ولكن المتتبع لما رسمه ابن قزمان للفقهاء في ديوانه

يجد صورة باهته ، والعلاقة علاقة تنافر وعدم ارتياح من الجانبين، فالفقيه يعذل ابن قزمان على تهتكه وشربه، ويدعوه إلى ترك ذلك والعودة إلى الله، وابن قزمان يحقد على الفقيه لكثرة ما ينهاه عن ذلك، ومن هنا فابن قزمان يتحاشى ملاقاة الفقيه، ويحاول الهرب منه دائماً حتى لا يصطدم معه، ولا يعكر صفو الحياة الّتي يعيشها ، لذلك آثر ابن قزمان أن يستأجر بيتاً في أطراف المدينة، لا تزدحم حوله المنازل، والحي هادئ ليس فيه مضايقات وليس فيه فقهاء يتابعونه ولا حجاج ، بل على العكس فيه أرامل جميلات، يحاولن خطب وده، وهذا ما يريده[1]، فيقول في أحد أزجاله مبيناً شدة ارتياحه لعدم وجود فقيه يجاوره في منزله، يقول في ذلك[2]:

وَالرَّبَضْ لا شيُوخْ وَلا حُجَّاجْ

وَأرَامِلْ مِلاَحْ بِلاَ أزْوَاجْ

وَيَجُوْنِ طُول النَّهَارْ عَنْ حَاج

وَأشْيَات[3] لَسْ يَنْبَغِي أنْ تُقَالْ

يصور ابن قزمان شدة التنافر بينه وبين الفقيه، وكأنها حرب مفتوحة بين الطرفين، فالفقيه لا ينفك يدعو ابن قزمان إلى التوبة عن الذنوب الّتي يقترفها بشرب الخمر وتوابعه، فيصوره بالعذول الّذي يتابع تصرفاته ويسجلها عليه، خصوصاً بعد أن يذكره بقرب أجله، والبياض الّذي يغزو لحيته خير شاهد على ذلك ، ويبدو أن هذا العذل واللوم يثير ابن قزمان، ويخرجه عن صوابه، فيهتف في مواجهة الفقيه متحدياً له بأنه في هذه الأيام الجميلة النضرة ، ما زال في بداية الطريق الّتي ترشده إلى العبث والمجون، وكأنه إصرار على تحدي دعوة الفقيه، يقول في ذلك[4]:

بَيْنِي وَبَيْنَ الفَقِي جَارِيَ فالكاسْ حُرُوبْ

فِي أيَّام الخَسِّ والبَسْبَاسِ تَحلا الذُّنُوبْ

كَمَا يَرَى لَحْيَةً بَيْضَا يقلْ تُوبْ

وَأنَا كما دَاب نَتَعَلَّمْ طُرْقَ الزَّنَمْ

---

(1) انظر الأهواني، عبد العزيز. **الزجل في الأندلس**، معهد الدراسات العربيّة العالمية، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٧٠.

(2) ابن قزمان، **الديوان** ، زجل ٨٧، دور ٧، ص ٥٦٢.

(3) أشياتاً، جمع شيء.

(4) ابن قزمان، **الديوان**، زجل رقم ٧١، الدور (٣)، ص ٤٦٠.

ويتحاشى ابن قزمان مواجهة الفقيه، وخوض جدال عقيم معه، حول حياة اللهو والمجـــون الّتي يعيشها ابن قزمان، فهو يحترم الفقيه ويوقره، ولا يريد أن يخسره، لذلك يهرب من مواجهته ولكنه مصر على حياته هذه، فيسب ويشتم أمَّ كل من لا يشرب، مهما وقف في وجهــه الفقهــاء يقول في ذلك[1]:

يَخْشَى الْفَقِيه كُلّ مَنْ لا يَذرُبْ

أنَا نوَقّرْ فقِيه أوْ تَهْرُبْ

جقّجقْتُ [2]أمّ الّذي لا يَشْرُبْ

لَوْ كَانْ عَلَى رَأسِيَ الغَزّالِي

ولكثرة إلحاح الفقيه على ابن قزمان بالتوبة ، والإقلاع عن شرب الخمرة يصفه بـــالحمق والغباء، ويسخر من دعوته هذه ، فكيف له أن يتوب ويستجيب لدعوة الفقيه، تاركاً وراءه مباهج الحياة ومسراتها من رياض ضاحكة، ونسيم عليل تطيب معه القلوب والنفوس، يقول في هذا[3]:

أسْـــمَعْ آشْ قَـــال لّـــي الفَقَـــي تُـــوبْ إنّ ذا فُـــــــــــضُولِي أحْمَـــــــــــــقْ

كيـــفْ نُتُـــوبْ والـــرَّوْضَ ضَـــاحِكَهْ والنَّـــسِيمْ كالْمِـــــــسْكِ يَعْبَـــــقْ

ويمثل الفقيه لابن قزمان مصدر الرعب والخوف، فعند ما يلوح الفقيه له ولجماعته مـــن أصحاب الشرب والمجون فإنهم يطلقون سيقانهم للريح، ويولون هاربين من أمامه، خوفـــاً مـــن ملاحقتهم، يقول في ذلك[4]:

أيْمَا كانْ وَزِيرْ بِقُرْب نَقْرُبْ

وإنْ رَيْتْ فَقِيه نُقُومْ وَنَهْرُبْ

وَكُلّ جَماعَة لا تَشْرُبْ

لَسْ نَقْرُبْ أنا ذِيك الجَمَاعَة

([1]) ابن قزمان. الديوان، زجل رقم ٢٢، دور ٤، ص ١٦٦.

(2) جقّجقْتُ : نوع من السباب في الأم.

([3]) ابن قزمان، الديوان، زجل رقم ١٤٨، ص ٩٢٠.

([4]) ابن قزمان، الديوان، زجل رقم ٢٣، الدور ٤، ص ١٧٤.

ورسم ابن قزمان صورة طريفة للفقيه، ولكنها معبرة جداً عن فكرة النفاق والرياء والتلون الّذي يمارسه الفقيه، فحيناً تراه يلبس القلنسوة العلامة المميزة للفقهاء، تعبيراً عن التدين والورع والتقوى والزهد، وذلك يكون أمام الناس، وفي النهار تحديداً، ثم لا يلبث أن يخلع هذه القلنسوة ويلبس اللباس المميز لجماعة المهرجين، الذين يضحكون الناس بكلامهم وفعلهم، فيصوره وهو في حالة الورع والزهد بالديك، الّذي يبرز عُرفه أو قلنسوته فوق رأسه تعبيراً عن التدين والتقوى، أما بعد خلع القلنسوة، فهو كالقباعة ذات الألوان الزاهية الّتي يعبر عنها برواد الحانات الذين يشربون المسكرات، وهذه صورة طريفة تبين مدى التناقض الّذي يعيشه فقيه ابن قزمان، يقول في ذلك[1]:

فَقِي أنْ خَمَّارْ مِنْ رُوحِيْ نَعْمَلْ

فَلَسْ كتِكُوُنْ عمامَ أشْكَلْ

إن لَمْ نَلْقِيْ قَالسْ نَلْقَىْ جُلْجَلْ

تَرَاهْ أمْسِ دِيكْ واليَوْمْ قُبَاعَهْ

وفكرة النفاق والرياء التي يتميز بها الفقيه يكررها ابن قزمان عندما يشبهه بنبات الخيري النمام، الّذي يكتم أزهاره ورائحته الطيبة نهاراً ولا يطلقها ويبديها للناس، وفي الليل يطلق هذه الرائحة وينشرها على الملأ، فاختار هذه الصفة ليصم الفقيه بها، فالفقيه يبدو عليه الوقار والنسك والتقوى في النهار وعلى مرأى الناس، ولكنه في الحقيقة منافق مُراءٍ ، يخالف مظهره وورعه نهاراً ما يبديه ويقوم به ليلاً، فبعد أن يجن الليل يتخلى عن هذه الصفات الطيبة، ويخلع ثوب الوقار فيهرع إلى الكأس، ويلتقي بأهل الخلاعة والمجون ليقضي معهم ليله في سكر وعربدة، وفي هذا يقول[2]:

وَفَقِيــــه النَّوار إنَّمَا هُوَ الخَيْرِي

بَالنَّهار يَوْرِي وَقَارْ وَتَرَى بَيْعُ مُرِي[3]

وإذَا كَان اللّيْــلُ يَمْضِي للكاسْ يَجْرِي

ويَصيح يا خُلاَعْ بارَكَ اللّــهْ فيكُــمْ

---

(1) ابن قزمان .الديوان، زجل رقم ٢٣ ، الدور ٥ ، ص١٧٤ .

(2) ابن قزمان، الديوان، زجل رقم ١٤٢، الدور ٣، ص ٨٩٦.

(3) كناية عن الرياء.

يلحّ ابن قزمان كثيراً على فكرة النفاق والرياء عند بعض الفقهاء الذين عرفهم وخبرهم، ففي أحد أزجاله يصور لنا مشهداً متكاملاً للفقيه المرائي المنافق ، الّذي يبطن خلاف ما يظهر، وأن زهده وتقواه ما هما إلا واجهة يستخدمها الفقيه لإخفاء سقطاته، لذلك يستنكر ابن قزمان على الفقيه هذا المذهب المنحرف الّذي يسير عليه، فصوره في ليلة شرب وأنس صورة فضحت الجانب الآخر من حياة الفقيه، يقول في ذلك[1]:

وإذَا كُنْتَ مَعْ فَقِيْه أوْ إمَامْ

ويقُولك شَرَبْتَ قط مُدامْ؟

قُلْ اشْنَهُ يا فَقِيَ ذَا الكَلاَمْ؟

بِالله مَا ذُقْتْ شرابْ تفّاحْ

والذي يساعد ابن قزمان على المضي في شرب الخمر جهاراً أنه يعرف هذا الفقيه، ويعرف مذهبه في الانحراف والنفاق، لذلك فكل نصائحه لابن قزمان ليست ذات جدوى، فقد عاش معه زمناً طويلاً، وكاد صبره عليه ينفد، فهبَّ في وجهه صائحاً يريد مجادلته ، ومناقشته بأية طريقة بالحوار الهادئ، أم بالصياح العالي، وفي هذا تحدٍ للفقيه المرائي يقول في ذلك:

وَان أجْمَعْكَ بِهْ زَمَاناً طَوِيلْ

وَعَسَى لَسْ لِذَا الصَّبْرَ غَيْر قَلِيلْ

قُلْ اسمَعْ وَجَدْتُ إليك سَبِيْلْ

جِي نَقُلك بالرَسْلَهْ أو بالصِّيَاحْ

ولم يعد ابن قزمان يخشى الفقيه ولومه له، فإذا ما سأله الفقيه ليثبت عليه جرمه في الشرب، يجيبه ابن قزمان بإنه يشرب علناً ، ليلاً ونهاراً، بالقدح حيناً، وبالقلّة أحياناً، وهو يسعى جاهداً ما أمكنه وبأية طريقة كانت لإغاظة الفقيه، يقول في ذلك:

تَدْرِ إذا قُلْتَ لي شَرَبْتَ عُقَار؟

آه حَق، كنبتلعها كِبَارْ

وأنا ذاب نحسُوها لَيْلَ وَنَهار

([1]) ابن قزمان، الديوان ، زجل رقم ٩٤، الدور ٨، ص ٦٣٠.

بقُلَيْلات وَرُبّما بأقْدَاح

ويبدو أن ابن قزمان بدأ يستدرج الفقيه إلى الفخ الّذي نصبه له للإيقاع به، وكشفه على الملأ، وبيان نفاقه وريائه الّذي يخفيه عن الناس، فيسأله عن اسمها، ولكن الفقيه المتغابي يزعم أنه لا يعرف لها اسماً وهو العالم بذلك، وبناء على رد الفقيه يعطي ابن قزمان للفقيه درساً في أسمائها، زيادة في التهكم والسخرية منه ومن نفاقه، فهي القهوة المدامة والطلا حيناً والحميا والخندريس والراح حيناً آخر، يقول في ذلك متهكماً:

تَحْفَظْ أسماها؟ سيَقُلك لا

قُلْ خُذْ نمْلا منها اذنيْك مَلا

هي هي القهْوَة والمُدَامْ والطلا

وَالحُميَّا والخَنْدَريسْ والراحْ

ويعبر ابن قزمان عن سعادته الكبيرة عندما يجتمع مع الفقيه العذول على مائدة الشراب، وهي فرصة عظيمة له ليضع حداً لتدخلات الفقيه ونصائحه، ويجعل من هذه النصائح كلاماً فارغاً لا جدوى منه، يقول في ذلك:

يَا سُرُوري في يَوْمْ مِنَ الأيَّامْ

بِنديماً مليح وَشُرْبْ مُدَام

كَمْ لِ نَنْصَحْ في ذا وذا وَنُلاَم

وَأنَا نستخفّ بالنُصَّاحْ

ويصور ابن قزمان الفقيه وهو يتلذذ بالشراب ويستحسن مذاقه، ويشارك السمّار بالفرح والطرب والصياح، وهو ما أراد ابن قزمان أن يظهر عليه الفقيه، ليكون له رادعاً عن متابعته ولومه أمام الناس على ما يفعل، وفي هذا المعنى يقول:

قَالٌ أحْسَنْتْ والله إنّ ذا مَليحْ

إذ رَاني نشرب قطيعاً صَحيح

وَنَزَهْزَهْ مِنَ الطَّرَبْ ونَصيح

فَشَرَبْ هُ قطيع وزهزه وَصَاح

ويختم ابن قزمان لوحته الّتي رسمها للفقيه بأن صور اللحظات الّتي أعقبت الانتهاء من التهام الطعام وشرب الخمرة، إذ رقد الفقيه فاقد الوعي حتى الصباح، عندها لبس ثيابه وخرج حتى لا يراه أحد، وهو في حالة يرثى لها، فلم يعد يميز نور الصباح من ظلام الليل، يقول ابن قزمان في ذلك:

وَرَقَدْ لَكْ بَعْدَ الشراب والطَّعَامْ

فَكَما أصبَح لبس ثيابُو وقام

فما ابيَضْ في عَيْنِ ذَاك الظّلام

وما أسْوَد في عَيْنِ ذَاك الصباح

هذه هي الصورة المزدوجة التي رسمها ابن قزمان للفقهاء ، صورة تتدخل فيها الحالة النفسية للزجّال ، والظروف التي قيلت فيها هذه الأزجال، فإذا رضي ومدح رفع ممدوحه إلى مصاف الأنبياء والأولياء والصالحين، في الطهر والعفة والدين والتقى، وإذا غضب وهجا نزل به إلى مصاف الشياطين والأراذل في اللؤم والانحلال والانحراف والخسة، وهي بكل حال تعطي صورة عن العصر الذي عاش فيه ابن قزمان بكل ما يحمله من تناقضات .

الباب الثالث :

الدراسة الفنية "دراسة لنماذج من الشعر الأندلسي في نقد الفقهاء":

وجه شعراء الأندلس نقداً شديداً للفقهاء الذين اعتلوا الصدارة بين فئات المجتمع الأندلسي، وشرائحه المختلفة، ونالوا من الحظوة ما لم ينله غيرهم عند أغلب الحكام والملوك، وعلى قلة هذا النوع من الشعر مقارنة بالشعر الذي قيل في مدح الفقهاء ورثائهم والدفاع عنهم، إلا أنه يعطي صورة واضحة عن حياة الفقهاء، ويكشف عن الوجه الآخر الذي يتعاملون به مع غيرهم من فئات المجتمع الأندلسي ويسيرون عليه في سائر شؤون حياتهم.

والهدف من الهجاء عامة لا يقتصر على النقد والذم والقدح، وانتهاك المحارم والأعراض ، والسباب والشتائم والإقذاع ، فهذه وسائل يسعى الشعراء من ورائها إلى تحقيق أهداف أسمى وأجل من مجرد إشاعة الضحك والسخرية من المهجو ، " فالهجاء يمثل روح النقد والمعارضة لكثير من سلبيات المجتمع والأفراد ، ووسيلة تكشف أوجه القصور والخلل ، وكشف العابثين والمخادعين ، إنه يسعى إلى تحقيق عالم مثالي عن طريق السلب لا الإيجاب ،أو بطريقته الخاصة التي لا تتفق مع الطريقة التي تعارف الناس عليها. "(١)

وإلى جانب مظاهره الهدامة التي تبدو للوهلة الأولى ، فللهجاء أو النقد دور كبير وفاعل في التغيير والإصلاح والبناء ، لا يقل أهمية وكفاءة عن أي فن آخر ، أو وسيلة أخرى ؛ لأنه يبصّر المهجو بسلبياته وانحرافاته التي ربما لم يكن يقف عليها أو يدركها ، ويجعله يعيد حساباته ويزن تصرفاته لإبعاد شبح تلك الصورة (الكاريكاتيرية) السلبية المضخمة الساخرة التي رسمها الشاعر بألفاظ منتقاة بدقة ، ذلك أن "أعين الشعراء أشبه بعدسة تلتقط كل ما يقع أمامها من عيوب،فإذا ما أخطأ نحوي أو فقيه أو قارئ تصيد له الشعراء هذا الخطأ وأبرزوه بطريقة تضمن له الشيوع والانتشارعلى ألسنة الناس."(٢)"فالهجاء له فلسفة في الحياة يريد أن يؤديها. "(٣)

السؤال الملح الذي يطرح نفسه ، هل ما وصل إلينا من شعر الهجاء والنقد هو كل ما قاله الأندلسيون في الفقهاء أو غيرهم ؟ الواقع والمنطق يقولان : إن هناك ذخائر كثيرة قد ضاعت ، أو عبث بها ، ربما تكشف الأيام عنها ، وتنشر تلك الكنوز التي اندثرت في طياتها ، ومنها هذا اللون الشعري ، وبها يمكن إعادة تشكيل صورة الفقهاء في الأندلس ، والعمل على ترميمها ، ووضع أجزائها كلٍ في محله ، لتخرج الصورة التي كانت فعلاً أو قريبة منها أبهى وأجمل .

---

(1) عيسى ، فوزي سعد . **الهجاء في الأدب الأندلسي** ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٦ .

(2) عيسى ، فوزي . **الهجاء في الأدب الأندلسي** ص١٤٥ .

(3) عيسى ، فوزي . **الهجاء في الأدب الأندلسي** ص٧ .

وضياع المخطوطات ليس هو السبب الوحيد في قلة الشعر الذي قيل في هذا الموضوع ، بل هناك سبب آخر لا يقل أهمية عن سابقه ، ذلك أن بعض مؤرخي الأندلس تحرجوا من تضمين مؤلفاتهم الشعر الذي قيل في الهجاء، فأبعدوا هذا اللون من الفن عن مؤلفاتهم صوناً لها (كما يدعون) وغاب عن أذهانهم أنهم بهذا العمل ، قد أخفوا جانباً مهماً من حياة المجتمع الأندلسي، وخاصة ما يخص حياة الفقهاء ، كانت الصورة بوجوده أصفى وأوضح ، والحكم لها أو عليها أصدق وأدق ، فابن حزم لم يستجز من رواية الشعر الذي قيل في الهجاء إلا ما تضمن الحِكم و الخير [1] على الرغم من أن الهجاء أحد ضروب الشعر الأربعة[2]الذي يرى وجوب تجنبها،لما فيها من سفاهة وخسة وتمزيق الأعراض،وذكر العورات، وانتهاك الحرمات.[3]وربما تأثر بمقولات ابن حزم كثير من المؤرخين الذين آثروا الابتعاد عن تدوينه بحسن نيه .

أما ابن بسام فقد صرح في الذخيرة بأنه آثر استبعاد الهجاء وعدم تدوينه في هذا الكتاب معللاً سبب ذلك بقوله : " ولما صنت كتابي هذا عن شين الهجاء ، وأكبرته أن يكون ميداناً للسفهاء ، أجريت ها هنا من مُلح التعريض في إيجاز القريض ، مما لا أدب على قائليه ، ولا وصمة أعظم على من قيل فيه ." [4]

ويعيد إحسان عباس سبب إحجام ابن بسام عن تأريخ هذا النوع من الأدب إلى العامل الديني ، والخلقي الذي يحول بينه وبين تدوين أشعار من شأنها إثارة الفتن والإحن بين الناس ، وأضاف عباس عاملاً آخر لا يقل أهمية عن الأول ، وهو حرص ابن بسام على المواضعات والعلاقات الاجتماعية وهو يؤرخ للأحياء من معاصريه .[5]

ومثل هذا الحرج أشار إليه المراكشي في كتابه " المعجب في تلخيص أخبار المغرب " عندما ترجم للشاعر علي بن حزمون [6] وذكر أن له أشعاراً أقذع فيها وأفحش ولكنه " لم يودعه هذه الأوراق لأني لا أستجيز أن ينقل مثل هذا عَلَيَّ ." [7]

---

(1) ابن حزم الأندلسي . **رسائل ابن حزم الأندلسي ، رسالة مراتب العلوم** ، ج٤ ، ص٦٧ .

(2) الضروب الأربعة هي : الأغزال و الرقيق ، والأشعار المقولة في التصعلك و ذكر الحروب ، وأشعار التغرب ، والهجاء . انظر : ابن حزم . **رسائل ابن حزم**، ج٤ ، ص٦٧- ٦٨ .

(3) انظر :ابن حزم ، **رسائل ابن حزم**، ج٤ ، ص٦٧ .

(4) ابن بسام . **الذخيرة** ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص٥٤٤ .

(5) انظر : عباس ، إحسان . **تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف و المرابطين** ، ص١٠٠ .

(6) هو أبو الحسن علي بن حزمون ، صاعقة من صواعق الهجاء ، وأكثر قوله في فن التوشيح فلم يدع موشحه تجري على ألسنة الناس إلا عمل في عروضها ورويها . انظر : ابن سعيد . **المغرب في حلى المغرب** ، ج٢ ، ص٢١٤ .

(7) المراكشي. **المعجب في تلخيص أخبار المغرب** ، ص٤٢٣.

وفي بحث قيّم لإحسان عباس[1] أبان فيه عن وجود ضوابط أخلاقية تحكم الأدب الأندلسي، والشعر خاصة، فقد كان هذا الشعر خاضعاً لضروب مختلفة من الرقابة ، أجبرت الأدباء عامة والمؤرخين على الإحجام عن الخوض في غمار شعر النقد والهجاء، فقد كان الشعراء خاضعين لرقابة ذاتية ترى في هذا اللون من الأدب شيئاً منافياً للقيم الخلقية، ومنبع هذه الرقابة الوازع الديني عند الأديب، والبيئة الأندلسية المشبعة بالثقافة الدينية التي تقيد انطلاقة الشعراء، وتحد منها ، وبالإضافة إلى هذا النوع من الرقابة هناك رقابة نقدية، تمثلت بوجود نقاد أندلسيين كانت الأخلاق هي المعيار الرئيس في نظرتهم إلى الشعر، فالحكم له أوعليه نابع من مضمونه الخلقي، لذلك تحاشى الشعراء النظم في هذا النوع من الأدب، والدليل على ذلك خلو دواوين شعراء الأندلس الكبار من شعر النقد والهجاء، يضاف إلى ذلك الرقابة الرسمية، التي عملت بقوة على الحد من انطلاق شعر الهجاء أو النقد ، ذلك أن الشاعر غالباً ما يكون مرتبطاً اقتصادياً ومادياً بالفرد المتسلط صاحب القرار، وكان بعض الفقهاء منهم، ولكي يحافظ على حياته ومستوى معيشته نجده يتحاشى نظم الهجاء أو النقد.

هذه الضوابط تعد من الأسباب الرئيسة والمهمة التي حدت بالشعراء النفور من مثل هذا النوع من الفن ، كما أن " التحرج الأخلاقي هو الذي حدا بعدد من المؤلفين إلى إسقاط نماذج كثيرة من الشعر الأندلسي، وعدم إدراجها في مؤلفاتهم"[2]

وبناء على ما سبق، يمكن التأكيد على أن قسماً لا يستهان به من الشعر الذي قيل في نقد الفقهاء وهجائهم لم ير النور بعد ، ولم يصل إلينا ، وهذا بدوره أشاع ضبابية على صورة الفقيه كما هي في الواقع ، ومع ذلك فإن الشعر المتوفر في أمهات الكتب في هذا الموضوع يمكن أن يعطي صورة مقبولة لفقيه الأندلس ، وهذا ما سيتم تناوله في هذا الباب للوقوف على طبيعة اللغة وألفاظها ، وأساليبها ، والصورة الفنية التي استخدمها الشعراء في نقد الفقهاء.

أولاً : اللغة والأساليب .

تمثل الألفاظ التي تتشكل منها اللغة اللبنة الأساسية والأداة الرئيسة التي يعتمد عليها الشاعر في بناء قصيدته ، وسبك معانيها ، بعد أن يجيل فكره فيها ، ويتخير اللفظة المناسبة التي تساعده على إرساء دعائم القصيدة الشعرية ، وإخراجها بالصورة التي يرضى عنها ، ويرتضيها الآخرون ، فاللغة عنصر من عناصر الشعر المهمة ، لذلك لا بد "للشاعر أن يسلك فيها مسلكاً

---

(1)انظر: عباس، إحسان. **دراسات في الأدب الأندلسي**، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، تونس، ط٢، ١٩٧٨، الشعر الأندلسي والأخلاق، ص ٧ ــ ٣٤.

(2) عباس، إحسان. دراسات في الأدب الأندلسي، ص١٤.

خاصاً ليستطيع فيها أن يؤدي المعاني بطريقة مختلفة عنها فيما عدا الشعر من فنـــون القـــول ، ومعنى هذا أن عليه أن يختار ، فيتحرى الجميل المناسب ، والأنيق الحسن ." (١)

ويفهم من هذا أن للشعر لغة خاصة يتميز بها ، ذات مواصفات خاصة ومحددة ، يختارها الشاعر بعناية فائقة لتوائم الأفكار والمعاني والمشاعر التي تجول في خاطره ونفسه ، ليتمكن من إيصالها إلى فكر المتلقي دون معاناة من الطرفين ، " فلغة الشعر تختلف عن غيرها مما يتـــصل بضروب الإعراب المختلفة ، فهي لغة فنية ينبغي لها أن تصل إلى معان خاصـــة بـــشيء مـــن الرمز أو الإيماءة أو الإشارة أو اللمحة ." (٢)

والألفاظ اللغة بمفردها لا تنسج معنى سليماً موحياً نابضاً بالحياة والحيويـــة ، إلا إذا نـــسقت هذه الألفاظ ، وآزر بعضها بعضاً في إنتاج المعاني الدقيقة والدلالات الموحيـــة ، التـــي يريـــد الشاعر أن يعبر عنها ، فالكلمة لا يظهر حسنها وجمالها وما توحي به ، إلا بعلاقاتها ومجاورتها لألفاظ أخرى ، وبأخذ مكانها المناسب في البيت الشعري ، " فاللغة ليست ألفاظاً مفردة ، وإنمـــا هي ألفاظ متآلفة لتوصيل المعنى صحيحاً مؤثراً ، وليست هي مجموعة على غير انتظام،وإنمـــا هي علاقات تعين على فهم المعنى والوفاء به،وتأدية الغرض في قوة ووضوح ."(٣)

وفي بحث اللغة الشعرية خاض النقاد كثيراً في ركنيهـــا الأساســـيين : اللفـــظ والمعنـــى وتباينت آراؤهم (٤) في ذلك، فمنهم من انحاز إلى اللفظ،وعده الأساس في بناء القـــصيدة ، مثـــل الجاحظ (٥) الذي يشيد بأصالة اللفظ ودوره الفاعل في الإفصاح عن المعاني التي يـــشترك فيهـــا عامة الناس، وإظهارها بالطريقة المثلى التي تغني القـــصيدة ،وتكـــشف عـــن جمالهـــا ودقـــة معانيها ، فيقول : " والمعاني مطروحة في الطريق ، يعرفهـــا العجمـــي والعربـــي ، والبـــدوي

---

(1) السامرائي ، إبراهيم . **لغة الشعر بين جيلين** ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص٨ .

(2) السامرائي، إبراهيم. **في لغة الشعر**، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٣، ص ٣.

(3) صبح ، علي علي . **البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر** ، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص٦٣

(4) انظر: بكار ، يوسف. **بناء القصيدة في النقد القديم في ضوء النقد الحديث** ، دار الأندلس ، بيروت . ١٩٨٢ ، ص١١٣- ١٤٠ .

(5) هو أبو عثمان عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ، تميز بذكائه المتوقد، وقدرته القوية على الحفظ، فأتقن الفصاحة وأساليب التعبير عن خطباء العرب في المربد، توفي سنة ٢٥٥هـــ . انظر : الجاحظ. **البيان والتبيين**، وضع حواشيه موفق شهاب الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٣، ص٤ وما بعدها.

والقروي والمدني ، وإنما الشأن ، في إقامة الوزن وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وفي صحة الطبع ، فإن الشعر صناعة (صياغة) وضرب من النسج ، وجنس من التصوير ."[١]

ومنهم من قال بالترابط التام بين اللفظ و المعنى ، ولا يمكن الفصل بينهما وتفضيل أحدهما على الآخر مثل ابن رشيق [٢] الذي أكد على عدم فصل اللفظ عن المعنى ، أو التحيز لأي منهما على حساب الآخر ، فيقول في ذلك :" فاللفظ جسم ، وروحه المعنى ، وارتباطه به ارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ، ويقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر ، وهجنه عليه ..... وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ ، ولا نجد معنىً يختل إلا من جهة اللفظ، وجريه فيه على غير الواجب.... فإن اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتاً لا فائدة فيه......... وكذلك إذا اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى ."[٣]

وسار على هذا النهج الآمدي[٤] الذي يميل إلى ترابط اللفظ والمعنى ، وإنه لا يحسن أحدهما إلا بحسن الآخر ، فيقول :" ينبغي أن تعلم أن سوء التأليف ، ورداءة اللفظ يذهب بطلاوة المعنى الدقيق ويفسده ويعميه ، حتى يحوج مستمعه إلى طول تأمل .... وحسن التأليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاءً وحسناً ورونقاً .... وإذا جاء لطيف المعاني في غير بلاغة ولا سبك جيد ، ولا لفظ حسن ، كان ذلك مثل الطراز الجيد على الثوب الخلق ." [٥]

وقسم ثالث انحاز إلى أصالة المعاني ، وتأكيد فضلها على الألفاظ في أكثر الأحيان ، فابن الأثير[٦] رغم تأكيده على أهمية الألفاظ ودورها في صياغة المعاني ، إلا أنه يرى أن الشاعر عندما يأتي بالألفاظ الحسنة والرقيقة الرشيقة لإبراز المعنى وكشفه ، فهذا لا يعني أن الفضل لها

---

(1)الجاحظ ، عمرو بن بحر . **الحيوان** ، تح : عبد السلام محمد هارون ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٩٦ ، ج٣ ، ص ١٣١- ١٣٢ .

(2) هو أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ، أديب ، وناقد،وباحث، وشاعر، تعلم الصياغة، ثم مال إلى الأدب وقول الشعر، توفي سنة ٤٦٣هـ. انظر: ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الرابع، المجلد الثاني، ص ٥٩٧ــ ٦١٥.

(3)ابن رشيق. **العمدة** ، ص ١٢٤.

(4) هو أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، كان حسن الفهم جيد الدراية والرواية، وهو معدود من أئمة البيان والنقد العربي، وكان كثير الشعر، حسن الطبع، مشتهراً بالتشبيهات. انظر: ابن الأثير،ضياء الدين. **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تح: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض، ج٢، ط٢، ١٩٨٣، ص٤٥ــ٤٦.

(5) الآمدي ، أبو القاسم حسن بن بشر . **الموازنة بين الطائيين** ، تح : محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٣٨١ .

(6) هو أبو الفتح نصرالله بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب بضياء الدين، كان من حاشية صلاح الدين ، استوزره الأفضل ابن صلاح الدين ، فكانت أمور الناس كلها مردودة إليه، وصار الاعتماد في جميع الأمور عليه، توفي سنة ٦٣٧هـ . انظر: ابن الأثير، ضياء الدين. **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، ج١، ص٣٩ــ٤١.

فالعكس هو الصحيح ، فالشاعر لم يأت بهذه الألفاظ إلا للمساهمة في خدمة المعنى الذي يريد تأكيده ، " فالعرب إنما تُحَسّن ألفاظها وتزخرفها عناية منها بالمعاني التي تحتها ، فالألفاظ إذاً خدمٌ للمعاني ، والمخدوم بلا شك أشرف من الخادم ." (١)

إن هذا المثال الذي يضربه ابن الأثير لتأكيد فضل المعاني على حساب الألفاظ ، إنما يصدق في الحالات الإنسانية التي فيها فاضل ومفضول ، ويستطيع إي إنسان أن يصدر حكماً بأفضلية أحدهما على الآخر ، أمّا في حالة الألفاظ والمعاني ، فإن إصدار حكم بأفضلية أحدهما على الآخر هو نوع من العبث والمغالطة التي لا تأتي بجديد ، ولا تنتهي باتفاق حاسم وتعميم شافٍ يرضي الجميع ، لأن " اللفظ جسم ، وروحه المعنى " وتفضيل أحدهما على الآخر يعني موت الاثنين معاً .

هذا المدخل النظري عن اللغة يقود إلى التعرف على الخصائص اللغوية والأسلوبية التي يتميز بها الشعر الذي قيل في نقد الفقهاء في الأندلس ،فقد غلب على هذا الشعر المقطعات القصيرة التي لا تتجاوز بضعة أبيات، يركز الشاعر فيها على معنى محدد ،وفكرة واضحة ، يصوغها صياغة مكثفة ، بلغة تتميز بالسهولة التي تصل في بعض الأحيان إلى الكلام العادي ؛ لأن الشاعر لا يريد أن يظهر براعته في استخدام لغة عالية المستوى ، رصينة الألفاظ ، بالغة التعقيد ، بقدر ما يهمه أن يوصل الفكرة إلى أكبر عدد ممكن من الناس ، ويذيعها بينهم؛ ليتمكن الجميع من استيعابها وفهمها وحفظها ، لذلك يلجأ الشاعر إلى انتقاء الألفاظ السهلة التي تميل إلى الشعبية أحياناً .

أما غلبة المقطعات على هذا الشعر فيعود إلى أن هذه المقطعات القصيرة بنت لحظتها ، ونوع من رد الفعل المباشر السريع على أمر ما صدر عن المهجو ، وربما يفسر رد الفعل هذا، القسوة واختيار الألفاظ النابية التي تميزت بها لغة شعر النقد والهجاء، وما تشيع فيها من روح السخرية الحادة ،والنقد الجارح، والانفعال الشديد الذي لم يترك للشاعر مساحة من الوقت للتفكير السليم بالرد الهادئ ، ولا ننسى تلك الحساسية المفرطة التي كان يشعر بها الشعراء تجاه الفقهاء ، وما لها من دور في أن يحيد الشاعر غالباً عن الطريق الصحيح ، والمبالغة في نقد الفقهاء .

ومثلما أن لكل فن شعري ألفاظه الخاصة به ، التي تشكل بناءه ومضمونه ، فلكل فن شعري أيضاً دوافعه التي تدفع الشاعر لإنشاء شعره ، فقد جاء في العمدة : " أن قواعد الشعر أربع : الرغبة ، والرهبة ، والطرب ، والغضب ، فمع الرغبة يكون المدح والشكر ، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف ، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب ، ومع الغضب

---

(1) بكار. بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث، ص١٢٤.

يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع ." [1] ومن هنا فقد شحنت لغة الشعر في هذا المجال بالغضب، والقسوة، والعنف، والسخرية المرة ، والحدة الشديدة التي تقع على المهجو كوقع الصاعقة المفاجئة ، التي تشل تفكيره وتؤثر عليه تأثيراً كبيراً ، فيشعر بالصغار والذلة والمهانة لأن العيون كلها تراقبه .

الألفاظ وطبيعتها في نقد الفقهاء : استخدم الشعراء الألفاظ السهلة الموحية التي لا تجد صعوبة في الولوج إلى أفهام الناس ، فأغلبها مما هو شائع بينهم ، ويتداولونه في حياتهم اليومية ولما كان ارتباط الفقهاء بالدين وبالحلال والحرام أشد من غيرهم ، فإن المساس بالمحرمات والدوران حولها أو الوقوع فيها من أقسى ما نعت به الفقهاء ، لأنها فيهم أشد منها في غيرهم ، ومن هنا لم يجد الشعراء في نقدهم للفقهاء أقسى وأشد إيلاماً من الطعن في دينهم، وأخلاقهم، وسلوكهم ، فلذلك ركز الشعراء على الألفاظ والمعاني التي تمس شرف الفقهاء ومروءتهم ودينهم، ورموهم بها ، سعياً وراء الحط من مكانتهم وقدرهم ، وتشويه الصورة المشرقة التي تمتع بها الفقهاء في الأندلس .

ومن المصطلحات الدينية المحرمة التي شنع الإسلام على مرتكبيها ، وأوردها الشعراء . في حق الفقهاء : الخمر والفاحشة واستخدام المزامير . يقول ابن مغاور في حق القاضي ابن بيش [2]: وهو من البسيط.[3]

قَالَ ابنُ بَيّشٍ المَشْهُورُ مَوْضِعُهُ ... قَوْلاً يُعَابُ عَلَيهِ آخِرَ الأَبَدِ
الخَمْرُ والزَمْرُ والفَحْشَاءُ أَجْمَعُهَا ... حِلٌ و بِلٌّ [4] وتَبْقَى خُطّتِي بِيَدِي

ويقول في موضع آخر وفي حق الفقيه نفسه [5]ذاكراً الخمر والزنا والغناء:وهو من السريع.

الحَمْدُ لله بَلَغْنَا المُنَى ... لا حَدَّ في الخَمْرِ وَلا في الغِنَا
قَدْ حَلَّلَ القَاضِي لَنَا ذَا وَذَا ... وإنْ شَكَرْنَاه أَحَلَّ الزِّنَا

---

(1) ابن رشيق، **العمدة**، ج1 ، ص ١٢٠ .

(2) لم أعثر له على ترجمة في المصادر الرئيسة المتوفرة.

(3) ابن إدريس، صفوان. **زاد المسافر**، ص٨١.

(4) البلُّ : الشفاء.

(5) ابن إدريس. **زاد المسافر**. ص٨١..

والرشوة من المصطلحات التي وصم بها الشعراء فقهاء الأندلس، الذين استغلوا مناصبهم في تجبير الحقوق إلى غير أصحابها ، وفي ذلك يقول اليكي [1] : وهو من الكامل.

أرْشُوا الزَّنَاتِيَّ الفَقِيهَ بِبَيْضَةٍ يَشهَدْ بِأَنَّ مُظَفَّراً ذُو بَيْضَتَيْن

ويقول ابن الطراوة في تعريضه بفقهاء مالقة : [2] وهو من البسيط .

إنْ جِئْتَهُمْ فَارِغَاً لَزُّوكَ فِي قَرَنٍ وَإنْ رَأَوا رِشْوَةً أفْتَوكَ بِالرُّخَصِ

وشهادة الزور من المحرمات العظيمة التي شدد الإسلام على تحريمها ، ذكرها بعض الشعراء في معرض نقدهم ، يقول أبو بكر بن مغاور : وهو من البسيط. [3]

أضْحَتْ شَهَادَتُهُم بِالزُّورِ نَاطِقَةً إنَّ الشُهُودَ لأخْوَانُ الشَّيَاطِينِ

ويعرّض الشاعرالغزال بالشهود الذين يمشون في هذا الطريق،فيقول [4] :وهو من الطويل

رِجَالٌ إذَا صَبُّوا عَلَيْكَ شَهَادَةً حكَتْ فِيكَ وَقْعُ المُرْهَفَاتِ القَوَاطِعِ

والكسب الحرام من المعايب التي عابها الشعراء على الفقهاء ، يقول أبو إسحق الإلبيري موجهاً نقده إلى الفقهاء الذين تخالط أموالهم أموال حرام [5] : وهو من الكامل .

لا خَيْرَ فِي كَسْبِ الحَرَامِ وَقَلَّمَا يُرْجَى الخَلاصُ لِكَاسِبٍ بِحَلالِ

واستخدم الشعراء لفظة الرياء في أشعارهم للدلالة على انحراف سلوكي، وأخلاقي يلازم بعض الفقهاء ، يقول الجزار السرقسطي في الفقيه البرجي : [6] وهو من الطويل.

يُرِيكَ عَلِيٌّ عِفَّةً وَدَمَاثَةً وصَفْوَ وداد جَمْرُ وَارِيهِ ذَائِبُ
وَذَاكَ رِيَاءٌ كُلُّهُ وَتَصَنُّعٌ تَغَذَّى عَلَيْهِ لا طِبَاعٌ تَنَاسِبُ

---

(1) المقري . **نفح الطيب** ، ج٣ ،ص٣٢٤ .
(2) المراكشي. **الذيل والتكملة**، ص١٠٧.
(3) ابن إدريس، **زاد المسافر** . ص ٨٠
(4) الغزال . **الديوان** ، ص ٧٢ .
(5) الإلبيري . **الديوان**، ٧٢ .
(6) الجزار السرقسطي . **الديوان**، ص٩٣ ،

وورد في الشعر الموجه للفقهاء ألفاظ الانحراف والشذوذ ، ولعلها من أقسى ما عيب بـه الفقهاء ، فالأعمى المخزومي يستخدم ألفاظا نابية في التعريض بأحد الفقهاء مثل (اللواط ، قطيم " المخنث") فيقول [١] : وهو من الكامل.

شَهِدَتْ عَلَيْهِ بِاللوَاطِ جَمَاعَةٌ ... وَاللهُ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَظْلُومُ
سَاءَ الفَقِيهَ بِأَنَّنِي مُتَخَلِّعٌ ... وَيَسُرُّنِي أَنَّ الفَقِيهَ قَطِيمُ

ومن التهم التي وردت في شعر نقد الفقهاء ، أكل أموال اليتامى ظلماً ، والجور، والعدل ، والاعتداء على أموال المساجد ، فالشاعر اليكي، يرفع شكواه إلى أمير المسلمين بشأن الفقيه القاضي ابن الأسود [٢]،قاضي مرسية، الذي تجاوز حدود الشرع بأكله أموال اليتامى المسؤول عنها وعن حفظ حقوقهم،والتعدي على أموال المساجد والوقف،فيقول[٣]: وهو من الطويل.

تَسَمَّعْ أَمِيرَ المُسْلِمِينَ لِنَبْأَةٍ ... تُصَمُّ لهـا الآذانُ فِي كُلِّ مَشْهَدِ
بِمُرْسِيَةٍ قَاضٍ تَجَاوَزَ حَدَّهُ ... وَأَخْطَأَ وَجْهَ الرُّشْدِ فِي كُلِّ مَقْصِدِ
يُطَالِبُهُ الأَيْتَامُ فِي جُلِّ مَالِهِم ... وَيَطْلُبُهُ فِي حَقِّهِ كُلُّ مَسْجِدِ
فَمَا بَيَّضَتْ كَفَّاكَ بِالعَدْلِ لَمْ تَزَلْ ... تُسَوِّدُهُ بِالجُورِ كَفُّ ابنِ أَسْوَدِ

والفساد من الألفاظ التي وردت على لسان الأعمى المخزومي، عندما وصف الفقيه القاضي أبا محمد عاشراً [٤]بالفساد والإفساد فقال في ذلك: وهو من المتقارب.

تَأَمَّلْتُ تِسْعَةَ رَهْطِ الفَسَادِ ... فَأَلْفَيْتُ عَاشِرَهُمْ عَاشِرَا [٥]

وهذه الأوصاف كلها خلاف ما يدعو إليه الفقهاء، ويضطلعون بحمله.

---

(1) ابن ادريس ، صفوان . **زاد المسافر**، ص ١١٨ .

(2) هو محمد بن ابرهيم بن أحمد بن أسود الغسّاني ، من أهل المريّة ، يكنى: أبا بكر ، شُوور ببلده لمعرفته و منصبه ، واستقضي بمرسية مدة طويلة لم تحمد سيرته فيها ، ثم صرف عن ذلك و سكن مرّاكش ، توفي سنة ٥٣٦ هـ . انظر : ابن بشكوال . **الصلة**، ج٢ ، ترجمة رقم ١٢٨٦ ، ص ٥٨٤ .

(3) ابن سعيد. **المغرب في حلى المغرب**، ج٢ ص٢٧٠.

(4) هو عاشر بن محمد بن عاشر بن حكم الأنصاري، كان فقيهاً حافظاً للمسائل، معتنياً بالرأي ، معروفاً بالفهم والإتقان، بصيراً بالفتوى، وكان رأس المشاورين ببلنسية، وإليه كانت ترد صعاب الأمور ومشكلاتها، توفي سنة ٥٦٧هـ. انظر: المراكشي. **كتاب الذيل والتكملة**، القسم الاول ، ص٩٩-١٠١.

(5)ابن إدريس. **زاد المسافر**، ص ١١٩.

تميزت المقطعات والقصائد الشعرية في نقد الفقهاء بالهدوء والتعقل حيناً، وبالانفعال الشديد والغضب حيناً آخر، وانعكس هذا الهدوء وذاك الانفعال على لغة القصيدة أو المقطعة وألفاظها " فتراوحت بين الهبوط إلى درجة السباب والابتذال ، وبين الارتفاع من الناحية الفنية إلى درجة التصوير الساخر الممتع الذي يدل على طاقة فنية مبدعة، وذهنية ساخرة ، تعتمد على فن أصيل ، وروح مرحة ضاحكة ، تترفع عن السب الرخيص والاتهامات الدنيئة " [1]، وهذا ما تؤكده المقطعتان التاليتان، وكلتاهما توجه نقداً شديداً للفقهاء بأسلوبين مختلفين، وبلغتين بينهما بون شاسع في طبيعة اللفظ، وبالتالي نتيجة متباينة في التأثير والإعجاب والسمو الشعري، المقطعة الأولى للشاعر الأبيض، يخاطب فيها الإمام مالكاً القدوة الأولى ، والمثل الأعلى لفقهاء الأندلس قاطبة،يشكو ما آل إليه الفقه الذي أرسى قواعده،وانحرف به تلاميذه ــ فقهاء الأندلس ــ إلى ما يحقق رغباتهم وأطماعهم، يقول الأبيض[٢]: وهو من الكامل.

قُلْ لِلإمَامِ سَنَا الأئِمَّةِ مَالِكٍ   نُورِ العُيُونِ وَنُزْهَةِ الأسْمَاعِ
لِلَّهِ دَرُّكَ مِنْ هُمَامٍ مَاجِدٍ   قَدْ كُنْتَ رَاعِيَنَا فَنِعْمَ الرَّاعِي
فَمَضَيْتَ مَحْمُودَ النَّقِيبَةِ طَاهِراً   وَتَرَكْتَنَا قَنَصاً لِشَرِّ سِبَاعِ
أكَلُوا بِكَ الدُّنْيَا وَأنْتَ بِمَعْزِلٍ   طَاوِي الحَشَا مُتَكَفِّتِ الأضْلاعِ
تَشْكُوكَ دُنْيَا لَمْ تَزَلْ بِكَ بَرَّةً   مَاذَا رَفَعْتَ بِهَا مِنَ الأوْضَاعِ

أما المقطعة الثانية فهي للشاعر اليكي، الذي يهجم هجوماً عنيفاً على أحد الفقهاء ويشرّحه تشريحاً مؤلماً ، أفحش فيه وأقذع، وبلغ منتهى الابتذال اللغوي، يقول[٣] اليكي: وهو من الطويل.

ثَمَانِي خِصَالٍ فِي الفَقِيهِ وعِرْسِهِ   وَثِنْتَانِ وَالتَّحْقِيقُ بِالمَرْءِ ألْيَقُ
يُنَاكُ وَتَزْنِي فِعْلُهَا مِثْلُ فِعْلِهِ   فَإن لاطَ يَومَاً فَهْيَ لا شَكَّ تَسْحَقُ
وَيَكْذِبُ أحْيَانَاً وَيَحْلِفُ حَانِثَاً   وَيَكْفُرُ تَقْلِيدَاً وَيُرْشَى وَيَسْرِقُ
وَعَاشِرَةٌ وَالذَّنْبُ فِيهَا لأمِّهِ   إذَا ذُكِرَتْ لَمْ يَبْقَ لِلشَّتْمِ مَنْطِقُ

والمقارنة بين هذين النّصين تكشف مدى التباين بينهما في اللغة ، والأسلوب ، وشدّة التأثير ، فمن ناحية الموضوع : شنّ الأبيض هجوماً عنيفاً على الفقهاء المالكيين الذين ارتفعت مكانتهم ، وعظم شأنهم ، وقويت شوكتهم ، بانتسابهم إلى مذهب الفقيه الإمام مالك بن أنس ،

---

(1) هدارة ، محمد مصطفى. **الهجاء في القرن الثاني الهجري** ، دار المعارف ، القاهرة، ص٣١٦.
(2) المقري، **نفح الطيب**، ج٣ ، ص٤٤٨ ــ ٤٤٩، صفوان بن إدريس. **زاد المسافر**، ص١١٣.
(3) ابن سعيد المغربي. **المغرب في حلى المغرب**، ج٢، ص٢٦٧، زاد **المسافر**، ص١٢٢-١٢٣.

ومتاجرتهم به، فقد اتخذوه وسيلة لتحقيق طموحاتهم وأهدافهم ، وسلماً يتسلّقونه للوصول إلى المكانة الرفيعة حيث المنصب، والجاه ، والثروة ، والمال .

فهذا الإمام الكبير الذي أحبه الناس ، وأحاطوه وعلمه بسياج من التقدير والاحترام والتبجيل ، أصبح مذهبه بدون قصد منه وسيلة لابتزاز الناس ، وسلب أموالهم ،وممتلكاتهم ، والإفتاء بما يحقق لهم غاياتهم باسم الانتماء إلى المذهب المالكي ، وهو منهم براء ، وبقدر ما يمدح الإمام مالكاً ومذهبه ، ويثني عليهما ، بإضفاء الجلال والهيبة والوقار عليه ، فإنه يهاجم الفقهاء الذين ينتسبون إلى العلم انتساباً ، وهم في حقيقة الأمر أهل خسّة ووضاعة ولؤم وانحطاط فيشبههم بالسّباع والوحوش الكاسرة التي تعيش وتتنعم على حساب الآخرين ومصالحهم، من أجل الوصول إلى المراتب السّامية ، والمكانة الجليلة .

أما اليكي : فقد رسم صورة قبيحة ، ومنفرة ، ومقززة لأحد الفقهاء الذي اتخذه رمزاً للفقهاء الذين يميلون عن طريق الحق والدين ،يصور فيها البون الشاسع بين الواقع الذي يعيشه هذا الفقيه في بيته ، وما يتظاهر به أمام الناس ، فصوّر بيت الفقيه ببيت دعارة ، يشترك أفراده في الانحلال الخلقي، والشذوذ الجنسي ، بالإضافة إلى ذكر صفات أخرى لا يمكن أن تكون في إنسان سليم سوي ، فكيف في رجل فقيه يحمل علماً وديناً يردعانه عند ذلك ، ويرسم صورة الفقيه الكذّاب الذي يتخذ من الكذب وسيلة لتحقيق أهدافه ورغباته ، وهو حلاّف يحلف أيماناً كاذبة يعلم كذبها ، وهو إلى جانب ذلك يتخذ مكانته وسيلة للسرقة والرشوة ، وأكل أموال الناس ظلماً وبهتاناً، ويصل به انحرافه إلى حد النطق بالكفر الذي يخرجه من دوحة الإسلام .

أمّا اللغة التي استخدمها الشاعران فقد تباينت طبيعة ألفاظها سمواً وانحطاطاً ، فبينما كانت ألفاظ الأبيض راقية هادئة ، موحية ، سامية ، استطاعت بما تحمله من قوة إيحاء أن تعرض فكرة الموضوع بكل سلاسة وعبقرية ، ولم يحتج إلى إيراد الألفاظ الكثيرة والمكثّفة لإبراز نقده الشديد للفقهاء ، وعدم رضاه عن سلوكهم ، بل اختار ألفاظاً فيها كم هائل من الإيحاء المكثف هي مرتكزات المقطعة كلها ، أو هي الجمل المفتاحية التي تكشف عن فكر الشاعر ومشاعره وأحاسيسه وانفعالاته تجاه الفقهاء ، فاستخدم جملة " أكلوا بك الدنيا " و " ماذا رفعت بها من الأوضاع " لتوحي بكل ما أراد الأبيض أن يقوله عن الفقهاء ، ابتداءً بكل صفة دنيئة يمكن أن توحي بها كلمة " وضيع " وانتهاء بكل سلوك منحرف متهالك على أمور الدنيا الدنيئة، وكلمة الدنيا هنا جاءت في محلها ، ولا يمكن أن تأتي كلمة تحل محلها في قوّة الإيحاء ، فهي توحي بأن هؤلاء المدّعين هم طلاب دنيا و أبعد ما يكونون عن طلب الآخرة .

أمّا الشاعر اليكي ، فقد استخدم ألفاظاً مبتذلة ، ينبو الذوق السليم عن سماعها ، وتمجها النفوس السوية ، فأغرق هذه المقطعة بالألفاظ السوقية ، التي انعكست على شخصية الشاعر نفسه ، ومكانته الشعرية ، وعلى المجتمع الذي يعيش فيه ، فقد أورد الألفاظ (تزني ، لاط ، تسحق ، يكذب ، يحلف ، حانث ، يكفر ، يرشي ، يسرق) ظاناً أنه بهذا الهجوم العنيف المقذع ، وبهذا الأسلوب الرخيص أنه يستطيع أن يشل الفقيه ، ويقضي عليه ، و لا تقوم له قائمة .

وهذه الألفاظ الرخيصة التي رصف بها قصيدته رصفاً ، لم تبنِ مقطعة شعرية ذات قيمة فهذه المقطعة ليس فيها من الشعر إلا الوزن ، فألفاظها ميتة لا روح فيها ، ولا خيال أو إيحاء ، أو حتى صورة شعرية جميلة ، لأن فيها نبرة التشفي والحقد البغيض تجاه فقيه بعينه دون سائر الفقهاء ، بعكس أبيات الأبيض التي حلّق فيها بخياله الخصب ، واختار الألفاظ التي تشي بالمعنى الذي أراده دون ابتذال أو انحطاط ، وفي الوقت نفسه استطاع أن يكشف حقيقة مثل هؤلاء الفقهاء بأقل الألفاظ وأسهلها .

ومن الألفاظ التي استخدمها الشعراء في نقدهم للفقهاء ألفاظ الحيوانات ، ولم يكن اختيارهم لها عشوائياً ، بل استخدموا هذه الألفاظ في مكانها المناسب ، لتتناغم مع سياق المعاني التي أرادوا عرضها ، وتأتي لفظة الذئب في مقدمة هذه الألفاظ ، فقد استخدمها أكثر من شاعر لتؤكد فكرة أن صفات بعض هؤلاء الفقهاء لا تقل شراسة وهمجية عن صفات الذئب .

فالشاعر الأبيض وصف الفقهاء بالسباع كناية عن شراستهم وحقدهم ، يقول [1] مخاطباً الإمام مالكاً وهو من الكامل :

فَمَضَيْتَ مَحْمُودَ النقِيبَةِ طَاهِراً وَتَرَكْتَنَا قَنَصاً لِشَرِّ سِبَاعِ

ووصف الجزار السرقسطي انتقاد الفقيه البرجي له بصوت الجرو الذي لا يخيف أحداً ، وذلك احتقاراً له ، والتقليل من شأنه ، يقول في ذلك[2] : وهو من الكامل

أرْعِدْ وَأبْرِقْ يَا سَخِيفُ فَمَا عَلَى آسَادِ غَيْلٍ مِنْ نُبَاحِ جِرَاءِ

ومن قصيدة أخرى يصف السرقسطي البرجي بالثعلب الذي يوحي بالخداع والمراوغة والمكر ، [3] : وهو من الطويل

---

(1) المقري . **نفح الطيب** ، ج٣ ، ص ٤٤٨ .

(2) الجزار السرقسطي. **الديوان** ، ص١٤٦.

(3) الجزار السرقسطي. **الديوان** ، ص٨٨.

وَكُـــنْ بِمِـــرَاةِ الفِكْـــرِ لِلعَقْـــلِ نَـــاظِراً   يَـــبِنْ لَـــكَ أنَّ النَّـــاسَ طُـــرّاً ثَعَالِـــبُ

ووصف عبد الله بن الشمَّر الفقيه القاضي يخامر الشعباني بالجَحْشِ ، في قلّة الفهم والعقـل ، فيقول [١]: وهو من الطويل

قَفَــاكَ قَفَـــا جَحْـــشٍ وَوَجْهُـــكَ مُظْلِـــمٌ   وَعَقْلُـــكَ مَـــا يَـــسْوَى مِـــنَ البَعْـــرِ دِرْهَمَـــا

ويقول [٢] الغزال واصفاً إياه (يخامراً) بالتيس ، وهو من المجتث :

أتَيْـــــتُ يَوْمَـــــاً بِتَـــــيْسٍ   مُـــــــسْتَعْبِراً مُتَحَاسِـــــــرْ
فَقُلْـــــتُ قُومُـــــوا اذْبَحُـــــوهُ   فَقَـــــالَ : إنِّـــــي يُخَـــــامِرْ

لجأ بعض الشعراء إلى تضمين أشعارهم التي انتقدوا بها الفقهاء بعض المعاني الإسلامية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية ، أو الأمثال العربية ، أو الشعر العربي ، لما له مـن أهمية بالغة ودور كبير في إغناء المعنى وتقويته و تأكيده .

فمما ضمنه الرمادي[٣] في قصيدته في إراقة الخمرة بتحريض من الفقهاء ، ببيـت شـعر للعرجي [٤] جاء في غاية الروعة وفي مكانه ، والبيت هو [٥]

أضَـــاعُونِي وَأيّ فَتَـــىً أضَـــاعُوا   لِيَـــوْمِ كَرِيهَـــةٍ وَسَـــدَادِ ثَغْـــرِ

وأكثر الجزار السرقسطي من تضمين الأشعار في قصائده التي وجهها إلى البرجي هاجيـاً وساخراً ، فأخذ قول النابغة [٦] : وهو من الطويل[٧]

---

(1) ابن حيان. **المقتبس**، مكي. ص ٦٥ .

(2) ابن حيان. **المقتبس**، مكي. ص ٦٥ .

(3) هو يوسف بن هارون الرمادي، من أهل قرطبة، يكنى أبا عمر، كان شاعر أهل الأندلس المشهور، والمقدم على الشعراء، توفي سنة ٤٠٣هـ فقيراً معدماً. انظر: ابن بشكوال. **الصلة** ، ج٢، ترجمة رقم ١٤٩١، ص ٦٧٤.

(4) هو عبد الله بن عمر بن عمرو بن عثمان بن عفان ، كان ينزل في مكان قرب الطائف يقال له : العرج ، فنسب إليه . وهو أشعر بني أمية ، قال هذا البيت و هو في السجن لما كان يهجو به إبراهيم بن هشام المخزومي .انظر : ابن قتيبة. **الشعر والشعراء**، ص ٣٨٦ .

(5) ابن قتيبة . **الشعر و الشعراء** ، ص ٣٦٨ .

(6) هو زياد بم معاوية و يكنى أبا أمامة ، كان شريفاً فغضّ الشعر منه ، وكان النعمان بن المنذر يكرمه و يجزل له العطاء ، وكان يضرب له قبة حمراء في سوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء ، فتعرض عليه أشعارها . انظر : ابن قتيبة . **الشعر و الشعراء** ص ٨٧- ٩٩

(7) ابن قتيبة. **الشعر والشعراء**، ، ص٩٨.

ولَســتَ بِمُســتَبْقٍ أخَــاً لا تَلُمُّــهُ   عَلَــى شَـعَثٍ أيُّ الرِجَــالِ المُهَــذَّبُ

وضمنه قصيدته في عتاب البرجي فيقول: و هو من الطويل [1]:

بَلَــى رُبَّمَــا أوَلَيتُــه عَتْــبَ مُـشْفِقٍ   ولَيْــسَ بِمُــستَبْقِيكَ مَــنْ لا يُعَاتِــبُ

و ضمن قول النابغة في النعمان بن المنذر عندما مدحه بقوله[2] : وهو من الطويل

فَإنَّــكَ شَـمْسٌ وَالمُلُــوكُ كَوَاكِــبٌ   إذَا طَلَعَــتْ لَــمْ يَبْــدُ مِــنْهُنَّ كَوْكَــبُ

فقال الجزار [3] وهو من الطويل.

أمَــا قَــالَ لِلنُعْمَــانِ شَــاعِرُ قَوْمِــهِ   لأنَّــكَ شَــمْسٌ وَالمُلُــوكُ كَوَاكِــبُ

ومن الأمثال العربية التي ضمنها الجزار شعره " المرء بأصغريه" [4] فيقول الجزار في ذلك : وهو من الطويل [5] :

وَبِالأصْــغَرَيْنِ المَــرْءُ كَــانَ مُعَظَّمَــاً   وَمَــا أصْــغَرَاهُ اليَــوْمَ إلا المَكَاسِــبُ

عُرف الفقهاء في الأندلس بأنهم أهل جاه وثراء ، وأن كثيراً منهم قد صانع أولي الأمر وجاملهم على حساب مبادئ الدين والأخلاق ، فاستغل الشعراء هذه الانحرافات ، وبنوا عليها نقدهم الذي بالغوا فيه كثيراً، فرسموا لهم صوراً مضحكة ، تنضح بالسخرية الشديدة ، فالمبالغة في تضخيم صورة الفقيه السلبية من الأساليب الفعالة التي اعتمد عليها الشعراء في توجيه النقد اللاذع لهم ، وتبدو هذه المبالغة في بعض الأحيان مكشوفة لا تنطبق على حالهم وطبيعة حياتهم.

واستخدم بعض الشعراء أسلوب المقارنة لتوجيه النقد الشديد للفقهاء ، فبدلاً من أن يوجه الشاعر نقده الساخر ، وهجاءه المقذع للفقهاء مباشرة ، مال إلى أسلوب المقارنة بينه و بين نماذج عليا ، تعرضت للموقف نفسه ، ولكنها تباينت في ردّة الفعل ،والأثر الذي تحقق على إثر ردة الفعل هذه ، وهذا الأسلوب أقسى على المهجو من الأسلوب المباشر ، وأشد إيلاماً ، وأقدر على كشف الحقائق المتصلة بالفقهاء المهجوين ، خصوصاً عندما "يتضمن هذا الأسلوب إظهار

---

(1) الجزار السرقسطي . **الديوان** ص ٩٠ .

(2) الذبياني، النابغة. **الديوان**، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥، ص ٧٤.

(3) الجزار السرقسطي. **الديوان** ، ص ٩٠ .

(4) الميداني ، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن ابراهيم . **مجمع الامثال** ، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم . دار الجيل ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٧ ، ج٣ ، رقم ٣٩٨٢ ، ص ٣٠١ .

(5) الجزار السرقسطي . **الديوان** ص ٨٩ .

التفاوت بين الناس ، وإيغار الصدور بذكر الفضائل وإشاعة القبح ." [1] علاوة على أن أسلوب المقارنة هذا من شأنه "أن يكسب التعبير طلاوة ويمنحه فضل جمال،إذ بضدها تتميز الأشياء " [2]

وخير مثال على ذلك أبيات الشاعر الأبيض التي انتقد فيها الفقهاء عن طريق توجيه الخطاب إلى الإمام مالك وقصيدة الرمادي في إراقة الخمرة التي استخدم فيها أسلوب الحكاية عندما ضمنها قصة أبي حنيفة مع جاره السكير . [3]

ومن الأساليب التي اتبعها الشعراء في نقد الفقهاء ، أسلوب الحوار القائم بين الشاعر والفقيه حيناً ، وبين الشاعر ومجموعة من الناس حيناً آخر، وهذا الأسلوب يضفي على القصيدة جوّاً من الحركة،والنشاط ، والتفاعل ، وتصبح أكثر صدقاً وواقعية ، يقول ابن سهل اليكي ، ساخراً من أحد الفقهاء ، يدعى ابن ميمون القرطبي [4] الذي نما إلى اليكي أنه يهجوه شعراً ، فنظم حوارية قصيرة ، وصفه فيها بالقطيم " المخنث" وقد شاركه في هذا الوصف مجموعة من الناس ، يقول [5] وهو من البسيط :

قَالُوا هَجَاكَ ابْنُ مَيْمُونٍ فَقُلْتُ لَهُمْ ... يَا لَيْتَ شِعْرِي مَنِ الهَاجِي فَأَدْرِيهِ
قَالُوا الفَقِيهُ الذِي مِنْ أَرْضِ قُرْطُبَةٍ ... قُلْتُ القَطِيمُ فَقَالُوا كُلُّهُمْ إِيهِ

ثانياً:الصورة الفنية.

شغلت الصورة الفنية حيزاً كبيراً من اهتمام النقاد قديماً وحديثاً ، وتشعبت آراؤهم في ماهية الصورة ، وتحديد مفهومها ، والمنابع التي يستقي الشعراء عناصر صورهم منها ، ليتم تشكيلها تشكيلاً فنياً مبدعاً خلاقاً ، باعتبارها " ركيزة أساسية من ركائز العمل الأدبي ، فهي تمثل جوهر الشعر ، وأهم وسائط الشاعر في نقل تجربته ، والتعبير عن واقعه " [6] وهي أقدر

---

(1) عجلان ، عباس بيومي . **الهجاء الجاهلي ، صوره وأساليبه الفنية** ، مكتبة شباب الجامعة ،الاسكندرية ،١٩٨٥ ، ص ٣١٥ .

(2) عجلان، بيومي . الهجاء الجاهلي، ص ٣١٥.

(3) انظر : **هذا البحث** ، قصيدة الرمادي ، الباب الثالث ، ص ١٤٦.

(4)هو أبو بكر محمد بن عبدالله بن ميمون العبدري القرطبي، كان متقدماً في علم اللسان، متصرفاً في غيره من الفنون، متبحراً في النحو، وكان له مُلح ، وشعره مليح، توفي سنة ٥٦٧هـ. انظر: ابن سعيد. **المغرب في حلى المغرب**،ج١، ص١١١ .

(5) ابن ادريس ، صفوان . **زاد المسافر** ، ص ٤٩ .

(6) الشناوي ، علي الغريب محمد . **الصورة الشعرية عند الأعمى التطيلي** ، مكتبة الآداب ، القاهرة ط١ ، ٢٠٠٣ ، ص ١٧ .

الوسائل على نقل الأفكار العميقة والمشاعر الكثيفة ، في أوفر وقت ، وأوجز عبارة ، وأضيق حيّز ، فكلما أمعن الناظر فيها استقطب أفكاراً جديدة ، ومشاعر متجددة "[١]

ولمّا لم يجمع النقاد والدارسون قديماً وحديثاً على صياغة مفهوم صريح ودقيق للصورة ، فقد حاول بعضهم أن يلملم شتات هذه التعريفات ، ويركب منها مفهوماً للصورة يعتمد على المادّة التي تعتمد عليها هذه الصورة ، والأهداف التي يسعى المبدعون في الوصول إليها ، والوسيلة التي يتخذها الشاعر في التعبير عمّا يجول في خاطره ، فطالت هذه التعريفات لتضع القارئ في متاهات جديدة في معرفة وتحديد ماهية الصورة .

ومن أكثر تعريفات الصورة شيوعاً وتداولاً ما جاء على لسان عبدالقادر القط الذي عرفها بقوله : " هي الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات ، بعد أن ينظمها الشاعر في نظام بياني خاص ، ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة مستخدماً طاقات اللغة وإمكاناتها في : الدلالة ، والتركيب ، والإيقاع ، والحقيقة ، والمجاز والترادف ، والتضاد ، والمقابلة ، والتجنيس ، وغيرها من وسائل التعبير "[٢]

وينظر علي أبو زيد إلى الصورة على أنها أداة الشاعر الأساسية التي يصور بها – باستخدام الكلمات– حياته وواقعه ومشاعره، وتبرز من خلالها شخصية الشاعر وتميزه "فالصورة أداة الشاعر الفنية التي يعبر بها عن تجربته،ويرسم مشاهد من حياته وواقعه، قوامه (الكلمات) وما يحدثه بينها من علاقات يبتكر بها دلالات جديدة غير مباشرة يبني بها عالماً متميزاً جديداً ، يجمع فيها بين عناصر متباعدة، في إطار من الانسجام والوحدة ، يصور المعنى تصويرا جمالياً ، وتخاطب المشاعر التي لا تعرف قيداً أو حداً ، أكثر مما تخاطب الفكر وتدع للخيال حرية التخيل حول الصورة المشكّلة، بحيث تظهر شخصية الشاعر واضحة مميزة "[٣]

ويرى علي الغريب الشناوي أن الصورة نظام من العلاقات اللغوية المتشابكة يتلاعب فيها الشاعر ليرسم لوحة فنية معبرة عن كوامن نفسه وموقفه من الحياة ، مؤدية في الوقت نفسه مجموعة من الأغراض التي تكشف عن أحلام الشاعر ، وتبرز ما يختزنه الشعر من سحر ، وسمو ، ودهشة ، وجمال ، فيقول : " الصورة الشعرية : هي الرسم بالكلمات التي تتشكل في إطار نظام من العلاقات اللغوية تتجدد به طاقاته الإبداعية ، ويعبر بها الشاعر عن المعاني العميقة في نفسه ، ويفلسف موقفه من الواقع ، ويخلق به عالمه الجديد من خلال توظيفه لطاقات

---

(1) صبح ، علي علي . **البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر** ، ص ٣ .

(2) القط ، عبد القادر . **الاتجاه الوجداني في الشعر العربي** ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٤٣٨ .

(3) أبو زيد ، علي . الصورة الفنية في شعر دعبل بن علي الخزاعي ، المنصورة ، ١٩٨١ ، ص ٢٤٩ .

اللغة المجازية ، وما تحمله من إمكانات دلالية وإيقاعية ، ويقّرب بهـا بـين عناصـر الأشـياء المتباعدة ، ليجمع بين الفكر والشعور في وحدة عاطفية في لحظة من الزمن ، تتجلى فيها أحلام الشاعر وطموحاته، وتكشف عن سحر الشعر،وما تحمله من دهشة وجدّه " (١).

أما عبد القادر الرباعي ، فيرى أن الصورة الفنية ترجمة لامتزاج بـين حـدين أساسـيين يعملان معاً على تشكيل الصورة . " أحدهما حاضر ماثل أمام الشاعر يريد وصـفه، وثانيهمـا مختزن في الداخل يماثله أو يضاده (٢)،فالمواد الخام أو المواد الأساسية التي تتكون منها الصورة الفنية كما يراها الرباعي : " كلمات وأفكار ومشاعر ومواقف ممزوجة معاً "(٣) ، يؤلف الشاعر بحسه المرهف فيما بينها ، لتوليد صورة نابضة بالحياة ، تثير الإعجاب واللذة في نفس السامع.

تعتمد الصورة الفنية في الشعر عند تشكيلها على عدّة مصادر أو منـابع ، تتفاعـل مـع بعضها وتندمج ، مفرزة صورة بديعة خلاّقة ، تعبر عما يجول في النفس من خواطر وأحاسيس فالصورة اللطيفة الجميلة الموحية ، تعتمد على اللفظ الذي يتناسب مع الغرض والعاطفة،وعلـى الخيال بأنواعه الخلابة الكثيرة ، وعلى الموسيقى الشعرية التي تعزفهـا التراكيـب والعبـارات، نتيجة التفائها والتحامها، وعدم تنافرها والأنغام اللطيفة التي تصدرها المحسنات اللفظيـة التـي تتناسب مع الوزن و القافية (٤)

استخدم شعراء الأندلس في شعرهم النقدي الموجه للفقهاء جميع الأنماط البلاغيـة مـن تشبيه، واستعارة ، وكناية ، فصوروهم صورة بشعة توحي بانحرافهم عـن المـنهج الإسـلامي القويم الذي يتخذون منه وسيلة لتحقيق أطماعهم الدنيوية ، من منصب وجاه وثروة .

وكانت الطبيعة " بكل ما تنطوي عليه من أشياء وجزئيات ، هي المصدر الأساسي لإمـداد الشعراء بمكونات الصورة " (٥) التي رسموها للفقهاء ، لذلك تميزت هذه الـصورة المحسوسة بالسهولة ؛ لتأخذ طريقها إلى أذهان السامعين وأفهامهم بكل سلاسة ويسر وبدون تعقيد وإعمـال الذهن الذي قد يقف حائلاً دون تحقيق ما أراده الشعراء من وراء صورهم .

أكثر الشعراء من تصوير الفقهاء بالحيوانات،وأسقطوا عليهم صفاتها،ولونـوهم بألوانهـا، فاتخذوا من الذئب رمزاً للفقيه،بكل ما توحي به هذه الكلمة من سطوة ،وبطش، وقسوة ، وغـدر

---

(1) الشناوي. **الصورة الشعرية عند الأعمى التطيلي**، ص ٣٠ .

(2) الرباعي، عبدالقادر. **الصورة الفنية في شعر أبي تمام**، إربد ،ط١، ١٩٨٠، ص ٢٩.

(3) الرباعي. **الصورة الفنية في شعر ابي تمام**، ص ٢٩.

(4) انظر : صبح ، علي علي . **البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر** ، ص ٢٦ .

(5)عبد الله ، محمد حسن . **الصورة والبناء الشعري** ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص ٣٣ .

وحقد، وبعد عن الرحمة والشفقة ، يدل على هذا كثرة استخدام هذا الرمز في تصوير الفقيه الذي ترك واجبه واتجه نحو مصالحه، فكانت الاستعارة واضحة بقوة في هذا الشأن ، فابن صارة

الشنتريني[1]وعلى سبيل الاستعارة التصريحية ، شبه الفقهاء وتمسكهم بالمدونة ، وأخذ الأحكام منها ، وعدم العدول عنها ، واستغلالها أسوأ استغلال في العبث بحياة الناس ودينهم ، بالذئاب التي تخلو قلوبهم من الرحمة عندما قال [2]: وهو من مجزوء الخفيف .

يَـا ذِئَابـاً بَـدَتْ لَنَـا فِـي ثِيَـابٍ مُلَوَّنَـة
أَحَـلالاً رَأَيْـتُمُ أكْلَنَـا فِـي المُدَوَّنَـة

وأبو إسحق الإلبيري يستخدم الاستعارة التصريحية عندما شبههم بالذئاب التي لاترحم ، للتعبير عن القسوة التي لا تقل شأناً عن قسوة الذئاب في محاولتهم الاستيلاء على كل شيء كونهم أصحاب السطوة واليد الطولى، فيقول معبراً عن ذلك[3]:وهو من الوافر .

وَكَـمْ ذِيـبٍ نُجَـاوِرُهُ وَلَكِـنْ رَأَيْـتُ الـذِيبَ أسْـلَمَ مِـنْ فَقِيـهِ

وكذلك فعل أبو المغيرة بن حزم [4] في معرض نقده لابن عمه أبي محمد بن حزم ، الذي نادى بالمذهب الظاهري ، متحدياً فقهاء عصره أصحاب مذهب مالك ، فاتخذ الاستعارة وسيلة للتعبير عن صوره من خلال عقد مقارنة بينه وبين أنداده الفقهاء الذين ناصبوه العداء، وأغروا به الحكام والناس،فصور مناداته بالظاهر بصوت الغراب الذي يعد نذير شؤم على الساحة الفقهية، ، ثم يجري المقارنة بينه وبين الفقهاء ، فيصور ابن عمه جواداً يلهث وحيداً في حلبة السباق ، بعد أن رفض الفقهاء تلك الدعوة التي تحاول الطعن في مذهبهم الذي يسيرون عليه ،فهو جواد ضعيف بالمقارنة بالجياد الأصيلة (الفقهاء) ولا طاقة له بمقارعتهم ، ثم يأتي بصورة جديدة أكثر وضوحاً وتعبيراً عن الحال التي وصل إليها ابن حزم بمعاداته للفقهاء، عندما يصوره بالكلب الذي ينبح بلا هدف ولا غاية أو فائدة ، وهذا النباح جر عليه حقد الذئاب (الفقهاء) الذين

---

(1) هو عبد الله بن محمد بن صارة (سارة) البكري الشنتريني ، نزل إشبيلية وسكنها وتعيش فيها بالوراقة ، وتجول في بلاد الأندلس شرقاً وغرباً للتعليم بالعربية، وسكن المرية وغرناطة، وامتدح الملوك والرؤساء، توفي سنة ٥١٧ هـ . انظر : ابن بسام . **الذخيرة** ، القسم الثاني ، المجلد الثاني ، ص ٨٣٤ .

(2) ابن خاقان. **قلائد العقيان**، المجلد الثاني، ص٨١١.

(3)الألبيري . **الديوان** ، ص ٧٢ .

(4) هو أبو المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن حزم ، الوزير الكاتب ، وهو ابن عم الفقيه أبي محمد علي بن أحمد بن حزم المشهور ، توفي سنة ٤٣٨ هـ ، ودفن في طليطلة . انظر : ابن خاقان . **مطمح الأنفس**، ص ٢٠٢ .

يحاولون بلا هوادة إخماد دعوته والقضاء عليها .يقول أبو المغيرة في ذلك[1]: وهو من المتقارب.

نَعقْتَ وَلَمْ تَدْرِ كَيْفَ الجَوَابُ وَأَخْطَأْتَ حَتَّى أَتَاكَ الصَّوَابُ
وَأَجْرَيْتَ وَحْدَكَ فِي حَلْبَةٍ نَأَتْ عَنْكَ فِيهَا الجِيَادُ العِرَابُ
وَبِتَّ مِنَ الجَهْلِ مُستَنْبِحاً بِغَيْرِ قِرَىً فَأَتَتْكَ الذِّئَابُ
فَكَيْفَ تَبَيَّنْتَ عُقْبَى الظُّلُومِ إِذَا مَا انْقَضَتْ بِالخَمِيسِ العُقَابُ

واستخدم الاستعارة التصريحية الشاعر الأبيض عندما وصفهم بالسباع ، تعبيراً عن شراستهم وحقدهم ، فيقول مخاطباً الإمام مالكاً[٢]: وهو من الكامل .

فَمَضَيْتَ مَحْمُودَ النَّقِيبَةِ طَاهِراً وَتَرَكْتَنَا قَنَصاً لِشَرِّ سِبَاعِ

واتخذ الشاعر الأبيض التشبيه وسيلة لتصوير الفقهاء المرائين الذين يظهرون غير ما يبطنون ، فشبههم بالذئاب التي تتصيد فرائسها على حين غفلة منها ، فيقول[3]:وهو من الكامل.

أهْلَ الرِّيَاءِ لَبِسْتُمُ نامُوسَكُمْ كَالذِّئْبِ يُدْلِجُ فِي الظَّلامِ العَاتِمِ

ومثله فعل الجزار السرقسطي عندما شبه الفقيه البرجي وأمثاله الذين لا يحفظون الودَّ والأخوة بالعقارب التي لا يؤمن شرها ، فيقول [٤] وهو من الطويل :

وَقَدْ كَانَ حَقّاً أَنْ يُرَاعِيَ وُدَّنَا وَلَكِنَّ إِخْوَانَ الزَّمَانِ عَقَارِبُ

وشبهه بالعصفور الضعيف الذي لا يقوى على مواجهة البازي فيقول مخاطباً البرجي[٥] :

---

(1) المقري. **نفح الطيب**، ج٢، ص٨٠ ، ابن بسام. **الذخيرة**، القسم الأول، المجلد الأول، ص ١٦٥.
(2) المقري. **نفح الطيب**، ج٣، ص٤٤٨.
(3) المقري ، **نفح الطيب** ، ج٣ ، ص ٤٤٨ .
(4)الجزار السرقسطي . **الديوان** ص ٨٨ .
(5) الجزار السرقسطي. **الديوان** ، ص ١٤٥ .

وَأرَاكَ يَـــا عُـــصْفُورُ تُوعِـــدُ بَازِيَـــاً بِمَخَالِـــبٍ لَيْـــسَتْ بِـــذَاتِ مَـــضَاءِ

وبالتيس الضعيف البليد فيقول :

يَـــا أيُّهَـــا التَّـــيْسُ المُجَمّـــرُ قُـــلْ : مَتَـــى حُـــزْتَ الـــسَّبَاقَ بِحَلْبَـــةِ الفُـــصَحَاءِ

وشبه الشاعر الرمادي نبات الخيري بالفقيه المرائي المنافق ، فهو ينشر رائحتــه الطيبــة ليلاً ، وفي النهار يكتمها، كالفقيه الذي يرائي الناس زهده، وورعه ، وتقواه ، وما أن يجنّ الليل ، وإلا به يعكف على الخمرة يعاقرها مع ندمائه ، يقول الرمادي في تشبيه الخيــري بالفقيــه:(١) وهو من الطويل.

عَجِبْتُ مِـنَ الخِيـرِيِّ قَـدْ نَـمَّ بِالـدُّجَى وَقَـدْ صَـارَ رَيَّـاهُ مَـعَ الـصُّبْحِ يَـذْهَبُ
فَخِلْـتُ الرِّيَـا مِـنْ طَبْعِـهِ فَكَأَنَمَـا فَقِيـهٌ يُرَائِـي وَهْـوَ بِاللَّيْـلِ يَـشْرَبُ

ومن الكنايات الجميلة ما جاء على لسان الشاعر الغزال ، معرّضاً بجهل الفقيــه يخــامر الشعباني بأمور الدين ، وعدم قدرته على حمل الأمانة التي لا يحملها إلا علماء متبحرون بــالعلم الديني وفقهه ، يقول في ذلك (٢) وهو من الطويل :

فَلَـنْ يَحْمِـلَ الـصَّخْرَ الـذُّبَابُ وَلَـنْ تَـرَى الـسَّلاحِفَ يُـزْجِينَ الـسَّفِينَ المَـوَاخِرَا

فقد كنى عن ضعف يخامر بأمور دينه ، وجهله بها ، وبالتالي عدم قدرتــه علــى القيــام بمسؤولية القضاء ، كنى بذلك عن الذباب الضعيف الذي لا يقــوى علــى حمــل الــصخر ، أو السلاحف الضعيفة البطيئة التي ليس بمقدورها دفع السفن الكبيرة في البحر .

وكنى الجزار السرقسطي عن شاعريته الفذّة، بالبحر الزاخر ، وعــن شــاعرية البرجــي المتواضعة الضعيفة بالمزائب ، لبيان الفرق بينهما ، ولتسفيه ما يدعيه البرجي من عدم وجــود أكفاء له ، يقول الجزار (٣) : وهو من الطويل .

أَقُـــولُ لَـــهُ وَالمَقْـــتُ يُـــزْرِي بِعُجْبِـــهِ مَتَـــى سَـــاجَلَتْ فَـــيْضَ البُحُـــورِ المَزَائِـــبُ

ومن الكناية أيضاً قول الجزار : وهو من الكامل.

---

(1) الحميري. **البديع في وصف الربيع**، ص ١١٥

(2) ابن حيان . **المقتبس** ، مكي ، ص ٦٤ .

(3) الجزار السرقسطي . **الديوان** ، البيت (٥٥) ، ص ٩٤ .

الكَلْــــبُ أَقْـــــذَرُ خِلقَــــةً وَخَلِيقَـــــةً   مِــــنْ أنْ يَكُـــونَ مُبَخَّــــراً بِكُبَـــــاء

فقد كنى عن سوء خلق الفقيه البرجي المتأصل فيه ، ولا يستطيع الانفصال عنه بنجاسة الكلب وقذارته التي لا تفيد كل أنواع الطيب بإزالتها .

تحليل قصيدة الرمادي في إراقة الخمرة (١)

من القصائد الجميلة التي انتُقِدَ فيها الفقهاء قصيدة الرمادي في إراقة الخمرة في شوارع قرطبة، زمن الحكم المستنصر(٢) بتحريض من الفقهاء ، وفيها وجه لهم نقداً مبطناً يوحي بتخاذلهم عن العمل في إقامة الدين والسعي وراء أمور محددة لإقامة الشرع فيها ، والتغاضي عن أمور جوهرية لا تقل أهمية عن الخمرة ، ويمكن تقسيم هذه القصيدة الجميلة إلى أربع لوحات ، يقول فياب: وهي من الوافر.

اللوحة الأولى :

١ . بِخَطْـبِ الـشَّارِبِينَ يَـضِيقُ صَـدْرِي   وَتُرْمِـضُنِي بَلِيَّــتُهُم لَعَمْـــرِي

٢ . وَهَـلْ هُـمْ غَيْـرُ عُـشَّاقٍ أُصِـيبُوا   بِفَقْــدِ حَبَائِـــبٍ وَمُنُـــوا بِهَجْــــرِ

٣ . أَعُـــشَّاقَ المُدَامَــــةِ إنْ جَـــزِعْتُمْ   لِفُرْقَتِهَـــا فَلَـــيْسَ مَكَـــانَ صَـــبْرِ

اللوحة الثانية :

٤ . سَــعَى طُلاَّبُكُـــمْ حَتَّـــى أُرِيقَـــتْ   دِمَـــاءٌ فَـــوْقَ وَجْـــهِ الأَرْضِ تَجْــرِي

٥ . تَـــضَوَّعَ عَرْفُهَـــا شَـــرْقاً وَغَرْبـــاً   وَطَبَّـــقَ أُفْـــقَ قُرْطُبَـــةٍ بِعِطْــــرِ

٦ . فَقُـــلْ لِلمُـــسْفِحِينَ لَهَـــا بِـــسَفْحٍ   وَمَـــا سَــكَنَتْهُ مِـــنْ ظَـــرْفٍ بِكَـــسْرِ

٧ . وَلِلأَبْـــسوَابِ إِحْرَاقـــاً إِلَـــى أَنْ   تَـــرَكْتُمْ أَهْلَهَـــا سُـــكَّانَ قَفْـــرِ

٨ . تَحَـــرَّيْتُمْ بِـــذَاكَ العَـــدْلَ فِيهَـــا   بِـــزَعْمِكُمُ فَـــإِنْ يَـــكُ عَـــنْ تَحَـــرِّي

---

(1) الرمادي، يوسف بن هارون. **الديوان**، جمعه وقدم له: ماهر زهير جرار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٠، ص ٧٣ــ٧٥.

(2) هو أبو العاصي الحكم بن عبدالرحمن الناصر المعروف بالمستنصر بالله، من أهل العلم والدين، أفاء على العلم، ونوه بأهله ، ورغّب الناس في طلبه ، وكان رفيقاً بالرعية، محباً للعلم، ملأ الأندلس بجميع كتب العلوم، توفي سنة ٣٦٦هـ . انظر : ابن الأبار. الحلة السيراء ، ج١، ص٢٠٠ــ ٢٠٥.

اللوحة الثالثة :

٩ . فَــإنَّ أبَــا حَنيفَــةَ وَهْــوَ عَــدلٌ وَفَــرَّ عَــنِ القَــضَاءِ مَــسِيرَ شَــهْرِ

١٠ . فَقِيــــةٌ لا يُدَانِيــــهِ فَقِيــــةٌ إذَا جَــاءَ القِيَــاسُ أتَــى بِــدُرِّ

١١ . وكَــانَ مِــنَ الــصَّلاةِ طَوِيــلَ لَيْــلٍ يُقَطِّعُــهُ بِــلا تَغْمِــيضِ شَــفْرِ

١٢ . وكَــانَ لَــهُ مِــنَ الــشُرَّابِ جَــارٌ يُوَاصِــلُ مَغْرِبَــاً فِيهَــا بِفَجْــرِ

١٣ . وكَــانَ إذَا انْتَــشَى غَنَّــى بِــصَوْتِ الْـ مُــضَاعِ بِــسِجْنِهِ مِــنْ آلِ عَمْــرِو

١٤ . " أضَــاعُونِي وَأيَّ فَتَــىً أضَــاعُوا لِيَــومِ كَرِيهَــةٍ وَسَــدادِ ثَغْــرِ "

١٥ . فَغَيَّــبَ صَــوْتَ ذَاكَ الجَــارِ سِــجْنٌ وَلَــمْ يَكُــنِ الفَقِيــهُ بِــذَاكَ يَــدْرِي

١٦ . فَقَــالَ وَقَــدْ مَــضَى لَيْــلٌ وَثَــانٍ وَلَــمْ يَــسْمَعْهُ غَنَّــى لَيْــتَ شِــعْرِي

١٧ . أجَــارِي المُؤْنِــسِي لَــيْلاً غِنَــاءً لِخَيْــرٍ قَطْــعُ ذَلِــكَ أمْ لِــشَرِّ

١٨ . فَقَــالُوا إنَّــهُ فِــي سِــجْنِ عِيــسَى أتَــاهُ بِــهِ المُحَــارِسُ وَهْــوَ يَــسْرِي

١٩ . فَنَــادَى بِالطَّوِيلَــةِ وَهْــيَ مِمَّــا يَكُــونُ بِرَأسِــهِ لِجَلِيــلِ أمْــرِ

٢٠ . ويَمَّــمَ جَــارَهُ عِيــسَى بْــنَ مُوسَــى فَلاقَــاهُ بِــإكْرَامٍ وَبِــرِّ

٢١ . وقَــالَ : أحَاجَــةٌ عَرَضَــتْ فَــإنِّي لَقَاضِــيهَا وَمُتْبِعُهَــا بِــشُكْرِ

٢٢ . فَقَــالَ : سَــجَنْتَ لِــي جَــاراً يُــسَمَّى بِعَمْــرٍو . قَــالَ : يُطْلَــقُ كُــلُّ عَمْــرِو

٢٣ . بِــسِجْنِي حِــيْنَ وَافَقَــهُ اسْــمُ جَــارِ الْـ فَقِيــهِ وَلَــوْ سَــجَنْتُهُمْ بِــوِتْرِ

٢٤ . فَــأطْلَقَهُمْ لَــهُ عِيــسَى جَمِيعَــاً لِجَــارٍ لا يَبِيــتُ بِغَيْــرِ سُــكْرِ

٢٥ . فَــإنْ أحْبَبْــتَ قُــلْ لِجِــوَارِ جَــارٍ وَإنْ أحْبَبْــتَ قُــلْ لِطِــلابِ أجْــرِ

٢٦ . فَــإنَّ أبَــا حَنِيفَــةَ لَــمْ يَــؤُبْ مِــنْ تَطَلُّبِــهِ تَخَلُّــصَهُ بِــوِزْرِ

اللوحة الرابعة :

٢٧ . نُوَاقِعُهَــا مِــنَ اجْــلِ النَّهْــيِ سِــرّاً وَكَــمْ نَهْــيٍ نُوَاقِعُــهُ بِجَهْــرِ

الناظر في هذه القصيدة للوهلة الأولى ، يخيل إليه أن الرمادي أنشأ هذه القصيدة في مدح الإمام أبي حنيفة النعمان [١] على تسامحه وتعاطفه وحسن جواره وأخلاقه العظيمة، التي دفعته دفعا إلى التدخل في إطلاق سراح أحد جيرانه ، الذي اعتاد على معاقرة الخمرة ليلاً ونهاراً دون

(١) هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي، أحد أئمة الإسلام ، وأول من دون الفقه والأحكام، وكان لا يعجزه دليل، وكان عالماً، عاملاً، زاهداً، عابداً، ورعاً، تقياً، كثير الخشوع، دائم التضرع إلى الله ، توفي سنة ١٥٠هـ . انظر: العمري، ابن فضل الله . **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، ، ج٦، ص ٢٠ـ ٣٠.

رادعٍ أو وازع ، أمّا الحقيقة فهي أن الرمادي أنشأ قصيدته هذه موجهاً نقداً شديداً للفقهاء الذين حرضوا الحكم المستنصر على ملاحقة حانات الخمرة وروادها ، والعمل على التخلص ممّا هو موجود فيها ، بإراقته في الشوارع ، وهذا الأمر لم يعجب الرمادي ولم يرق له ، فأراد أن يعبّر عن شعوره تجاه هؤلاء الفقهاء ، ويبين ضيق أفقهم ، ونظرتهم القاصرة تجاه تطبيق الأحكام والحدود ، فلم يلجأ إلى لغة السب والشتم كغيرة من الشعراء ، بل استخدم اللغة السلسة الواضحة ، الهادئة التي تنم عن شاعر يعرف كيف يوجه سهام نقده المبطن إلى الفقهاء، من خلال استغلال أسلوب الحكاية ، فجاء بقصه الإمام أبي حنيفة مع جاره السكير ، موجهاً لهم درساً عظيماً في التسامح ، وحسن المعاملة بالتي هي أحسن ، وليبين لهم أنهم لم ولن يصلوا إلى مستوى أبي حنيفة علماً وتقىً ، فهو يضع أبا حنيفة والفقهاء في كفتي ميزان ليقارن بينهم دون أن يذكر صراحة أي عيب فيهم ، بل ذكر محاسن أبي حنيفة وصفاته وأخلاقه ، وبقدر ما مدح أبا حنيفة وأثنى عليه، فإنّه قد انتقد سلوك الفقهاء ، وشنع عليهم ، وأظهرهم بصورة قاتمة ، كان الأولى أن تكون صورة جميلة ومشرقة لرجال نذروا أنفسهم في سبيل إقامة العدل ونشره بين الناس جميعاً ، كونهم القدوة والمثال الذي ينظر الناس إليهم ، ويهتدون بهديهم .

ويمكن تقسيم هذه القصيدة إلى أربع لوحات مترابطة ، لا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى ، لتندمج في النهاية ، مشكلة لوحة فنية متكاملة تعبر عن شخصية قائلها ، وأسلوبه الاحترافي في توجيه النقد البنّاء ، وتقديم الدروس والعبر دون أن يمسّ الذوق العام ، والنفس السوية ، متكئاً في ذلك على إرثه الثقافي ، ولغته السامية ، وألفاظه الأنيقة ، وصوره الساحرة .

اللوحة الأولى : الأبيات (١ – ٣) يظهر الرمادي فيها المصاب العظيم الذي أصاب عشاق المدامة ، والمصير المجهول الذي وصلوا إليه ، من جرّاء تحريض الفقهاء ، وسعيهم لملاحقتهم ، وإحراق أماكن لهوهم ، مستخدماً في ذلك مجموعة من الألفاظ التي تعبر تعبيراً دالاً على شدة هذا المصاب ، فبدأ لوحته الأولى بكلمة " خطب" لتشير إلى فداحة المصيبة والجريمة التي اقترفت بحق هؤلاء العشاق " عشاق المدامة " .

وتوالت الألفاظ التي تعبر عن حجم المأساة ،والشعور بالإحباط ،فاستخدم الألفاظ " أصيبوا فقد ، يضيق ، الهجر ، الجزع ، وترمضني ، والفرقة ، والصبر " لتأكيد هذه المصيبة ، ويتكامل المعنى عندما يصور الرمادي هؤلاء الشاربين " بالعشاق " الذين سعى الفقهاء بعملهم هذا إلى التفريق بينهم، وتشريدهم، فهم وشاة وعذّال يسعون بالقطيعة بين المحبين .

وفي اللوحة الثانية، الأبيات (٤ – ٨) يصور فيها إراقة الخمرة بالجريمة الفظيعة ، هذه الجريمة التي اقترفها مجموعة من الفقهاء ، الذين يدّعون السعي إلى إقامة العدل في المجتمع ،

والحرص على تطبيق نصوص الشريعة ، ولم يعبر عنهم بالاسم ، بل استخدم لفظة أشد وأعنف عندما وصفهم بـــ " سعى طلابكم " التي توحي بالحقد الدّفين، والعداوة الشديدة التي يكنها الفقهاء لكل من لا يسير على خطّهم ونهجهم .

ثم يصور الفقهاء بأنهم قتلة، وسفّاحو دماء بما اقترفت أيديهم من تكسيرهم لدنان الخمرة ، وإحراق أبواب الحانات ، وتشريد أصحابها ، وملاحقتهم بعد أن أصبحت قفراً وخراباً وأطـــلالاً دارسة ، ثم يسخر منهم ومن ادعائهم زوراً بأنهم بفعلهم هذا إنّما ينشدون إقامة العدل في الأرض وما هذا إلا غطاءٌ لإبعاد الأنظار عن ممارساتهم المنحرفة ، وسلوكهم الشاذ وبإظهارهم بمظهـــر الحريصين على حفظ الدين، وصيانته من كل عابث .

أمّا اللوحة الثالثة الأبيات(٩ــ ٢٦) فهي الأطول بين اللوحات ، إذ أخذت ثلثـــي أبيـــات القصيدة ، يرسم الرمادي فيها صورة مشرقة للفقيه المثال والقدوة ، الذي على جميع الفقهـــاء أن يتخذوا من سيرته ورجاحة عقله، وحسن معاملته منهجاً ومسلكاً يسيرون عليه، ويهتدون بهديـــه، فيتخذ من أبي حنيفة مثالاً ونموذجاً للتسامح وحسن المعاملة ، من خلال ترجمة قصّته مع جـــاره السّكير ، وليس الهدف من ذلك إلا تعرية لادّعاء الفقهاء في تحرّي إقامة العدل ، فشرع في ذكر أخلاقه وتسامحه ، ومراعاته لحقوق جاره ، بغض النظر عن سلوكه وأخلاقه ، وكأنه يقارن بين هذا الإمام التقي الذي وصل علمه إلى كل مكان ، وبين من يدّعون التقوى ولا علم عندهم إلا ما جاء به الإمام مالك وتلاميذه ، وما وضعوه في المدونة والمستخرجة من أقوال وتعليقات جامـــدة لا تتغير، ولا تتطور ، فمدحه لأبي حنيفة من خلال تسامحه وأخلاقه وتقواه ما هـــو إلا إظهـــار للصورة القاتمة التي صوّرها لفقهاء عصره . فهم مهما فعلوا لن يصلوا إلى ما وصل إليه أبـــو حنيفة ، ومع ذلك نجده يتسامح مع جاره ، ويسعى بكل ما لديه من قوّة تأثير ومكانـــة لإطـــلاق سراحه ، بعكس هؤلاء الفقهاء الذين سعوا جاهدين للخلاص منهم ، وتأليـــب الحـــاكم والرّعيـــة عليهم، فأين أخلاق التسامح منهم ؟

والملاحظ هنا أنه ذكر كلمة الجار ثماني مرّات ليؤكد على أهمية المحافظة على الجـــار وعدم الإساءة إليه مهما اقترف من آثام ومعاصٍ ، هذا الذي فهمه أبو حنيفة ، وغاب عن أفهـــام الفقهاء .

أما اللوحة الرابعة : فهي بيت القصيد ، والفكرة التي أراد الرمادي أن يعرضها بعد هـــذا التمهيد الطويل، وهي أن شرّاب الخمر يتعاطونها سرّاً ، لأنه قد جاء نهي عنها ، فهم يحـــافظون على مشاعر النّاس ، ولكن كثيراً من النواهي التي لا تقل شأناً عن الخمرة ، لا يعار لها بـــال ، وتمارس على مرأىً من الناس دون ضابط ، أو رادع ، أو ناهٍ ، ، فأين الفقهاء الـــذين يـــدّعون

السعي إلى إقامة الدين من هذه الأمور ، فهؤلاء قد تركوا جميع الموبقات التي تمارَس علناً ، وركزوا جهدهم على ملاحقة الخمرة وأهلها ، ، فاقتصارهم على تحريم الخمرة يعد نوعاً من ضيق الأفق عند هؤلاء الفقهاء ، لما فيه من تناقض صارخ لما يجري في المجتمع .

وعلاوة على الفكرة الناقدة التي طرحها في هذا البيت (اللوحة) فقد كثف الرمادي من استخدام المحسنات اللفظية ، فاستغل الطباق بين " سراً و جهراً " لتوضيح المعنى ، والجناس في " النهي ، النهي " والتكرار في " نواقعه ، نواقعه " لإشاعة جرس موسيقي تطرب له الآذان ، وينتعش فيه الخيال والقلب .

لقد وظّف الرمادي الألفاظ أروع توظيف ، وكان دقيقاً في اختيار ألفاظه المعبرة عن المعنى الذي يريد ، فالشاعر المبدع هو الذي يختار ألفاظه بدقة " لأن الدّقة في اختيار اللفظ تمثل شحنه فكرية و شعورية و عاطفية ، و تصور المغزى والهدف أروع تصوير ، من غير زيادة ولا نقصان " (١)

ورغم السهولة الواضحة التي أضفاها أسلوب الرمادي على هذه القصيدة ، إلا أن الصورة كان لها حضور واضح،فقد شبّه الشّاربين بالعشّاق ، وشبّه الخمرة بالحبيبة التي هجرت حبيبها مكرهة (البيت٢)، وشبّه الخمرة بالمرأة الجميلة التي يسعى العشّاق لطلب رضاها (البيت ٣) على سبيل الاستعارة المكنية ، وشبّه رائحة الخمرة المنبعثة من شوارع قرطبة، برائحة الأزهار الندية العطرة (البيت٥) ، وشبّه الفقهاء الذين حرّضوا على إراقتها بالقتلة المجرمين ، على سبيل الاستعارة التصريحية . البيت(٦)، وفي البيت(٤) شبه الخمرة المراقة في الشوارع بالدماء الجارية، كناية عن فداحة الجريمة التي اقترفت، " فجاءت هذه الصور وسيلة لإثبات المعنى عن طريق تحسينه وتجميله للتأثير في المتلقي " (٢) ، وهذا ما كان فعلاً .

أما الألفاظ فقد جاءت سهلة بعيدة عن كل غموض وتعقيد، وذلك لمناسبة الغرض الذي من أجله بنى القصيدة، وهو الكشف عن التناقض الذي يعيشه مجتمع الأندلس، وتحديداً سلوك الفقهاء، وادعائهم بالسعي لإقامة العدل وحكم الشرع.

أما الأسلوب الذي انتهجه الرمادي في هذه القصيدة، فهو أسلوب الحوار القائم على الحكاية، فأكثر فيه من الأسلوب الخبري، بذكر مناقب أبي حنيفة، ليدين من خلاله سلوك الفقهاء المتناقض في انتقاء المحرمات التي يجب إقامة حكم الشرع فيها، والطريقة التي انتهجوها في

---

(1) صبح ، علي علي ، **البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر** ، ص ٣٩ .

(2) دعدور ، أشرف علي . **الصورة الفنية في شعر ابن درّاج القسطلي الأندلسي** ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ،١٩٩٤، ص ٥٠ .

تحقيق ذلك العدل المزعوم، واستخدم الرمادي جملة من الأساليب الإنشائية لتحقيق بعض الأغراض التي لم يفصح عنها مباشرة ، فاستخدم أسلوب الاستفهام (البيت٢) الذي خرج عن معناه الاستفهامي لإفادة التقرير،وأسلوب التوكيد (البيت٩) لإظهار صفة التسامح وحسن المعاملة عند أبي حنيفة، وكذلك في البيت (٢٦) لإظهار أن أبا حنيفة لم يرتكب جريمة، ولم يحمل وزراً من توسطه لجار منحرف يجاهر بالمعاصي.

أما المحسنات اللفظية فقد جاءت في الأبيات لتضفي عليها جمالاً ورونقاً، وجرساً لطيفاً على السمع، فجاء بالترادف(البيت٥) بين " العرف والعطر"، والطباق (البيت ١٧) بين " خير وشر"، والتكرار(البيت ٢٢) "عمرو ،عمرو" و(البيت٢٧) " نواقعها، نواقعه"، ورد العجز على الصدر(البيت ٨) تحريتم و تحري" ، والجناس الاشتقاقي (البيت ٧) المسفحين و سفح"، والجناس التام (البيت ٢٧) بين نهي والنهي.

إن هذا الأسلوب الجميل الذي اتخذه الرمادي ليوجه من خلاله النقد غير المباشر للفقهاء ، لهو أبلغ من أي أسلوب آخر ، وأشد تأثيراً من أي نهج سلكه الشعراء في توجيه النقد للفقهاء، فقد استخدم أسلوباً تربوياً ، شديد الوقع على من توجه إليه، وربما يكون قادراً على تعديل السلوك أكثر من أسلوب القدح والذم والطعن في الأعراض الذي اتخذه بعض الشعراء للتشهير بالفقهاء والحط من مكانتهم.

تحليل قصيدة [1] الجزار السرقسطي في هجاء الفقيه البَرجي:

قبل الشروع في الوقوف على ما جاء في هذه القصيدة ، يحسن الوقوف على حيثياتها ، ودواعي إنشائها ، فقد كان الجزار السرقسطي على علاقة وثيقة بالفقيه علي البرجي ، قائمة على الأخوة الصادقة والمودة الكبيرة ، وكان الجزار قد أنشأ قصيدة في مدح زهير العامري [2] وتهنئته بالزواج ، فانتقد البرجي بيتاً من أبيات القصيدة الذي يقول فيه : وهو من الكامل :

لَمْ تَسْمَعِ الآذَانُ قَبْلَ هِدَائِهَا بِحَمَامَةٍ زُفَّتْ إِلَى فَتْخَاءِ[3]

وقال البرجي في معرض انتقاده : " إن الفتخاء مؤنثة ولا يوصف بها مذكر " [4] فكتب الجزّارُ قصيدة [5] إلى صديقه البرجي يوبخه فيها ، ويعاتبه عتاباً شديداً على توجيه ذلك النقد إليه ، وصل إلى حد التحامل والذم ، مذكراً إياه بالعلاقة الوثيقة بينهما ، فأنكر البرجي ما نُقِلَ إلى صديقه الجزار من انتقاد له ، واعتذر إليه ، وعاهده بأن لا يتعرض له بشيء ، ولكن البرجي أخلف ما وعد به ، فأنشأ قصيدة يرد فيها على قصيدة الجزار معرضاً به ، ومفتخراً بنفسه وشاعريته ومكانته ، ويذم فيها الجزار ذمّاً قاسياً (القصيدة ملحقة بهذه الرسالة) فوقعت قصيدته بين يدي الجزار ، الذي غاظه ما صنع صديقه ، فأنشأ هذه القصيدة التي عبث فيها بالبرجي ، ولم يترك صفة دنيئة إلا وصفه بها ، ويذكر جامع الديوان[6] : أنّه ترك الأبيات التي تحمل ألفاظاً ينبو الذوق عن سماعها [7] .

يبدو من هذه القصيدة أن الجزار السرقسطي كان على دراية تامّة ، وفهم عميق بفن النقائض الذي نشأ وترعرع في ظل دولة بني أمية في المشرق ، يظهر هذا واضحاً وجلياً من اتباعه الأسلوب نفسه الذي سار عليه أمراء هذا الفن من الشعراء ، عندما استخدموا أسلوب

---

(1) الجزار السرقسطي، الديوان ، **روضة المحاسن وعمدة المُحاسن** ، ص ١٤٢ــ ١٥٢.

(2) هو أبو القاسم ، زهير الصقلبي العامري ، فتى المنصور بن أبي عامر ، ولي أمر ألمرية بعد وفاة أخيه خيران ، وقام بأمره خير قيام سنة (٤١٩) ، امتدت أطناب مملكته من ألمرية إلى قرطبه و نواحيها ، وإلى بياسة ، وإلى الفج من أول طليطلة ، توفي سنة ٤٢٩هـ . انظر : **ابن الخطيب . الإحاطة** ، ج١ ، ص ٥١٧- ٥٢٠ .

(3) الفتخاء : العقاب اللينة الجناحين .

(4) الجزار السرقسطي . **الديوان** ، ص ٨٨ .

(5) انظر : الباب الثاني من هذا البحث ، ص١٠٠.

(6)هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن مطروح السقسطي، أحد أبناء عمومة الجزار السرقسطي، أديب، ناقد، ومذهبه في جمع الديوان يقوم على أساس اختيار محاسن أشعاره في البلاغة والفصاحة،توفي سنة ٦٠٦هـ. انظر مقدمة محقق **الديوان** ، ص٩ــ١٢.

(7) الجزار السرقسطي ، **الديوان** ، ص ١٥٢ .

الهدم والبناء معاً ، فالشاعر الثاني يهدم ما جاء به الشاعر الأول ، وينقضه ، وينسب إليه معايب فيه ، أو يضيف إليها معايب من عنده ، في الوقت الذي يعمد فيه إلى تبرئة ساحته مما وصم به ، وإثبات المفاخر والمآثر التي يتمتع بها .

والناظر إلى قصيدتي البرجي والجزار لا يميزهما من ناحية الأسلوب عن النقائض التي ازدهرت في العصر الأموي من حيث الطول والموضوع والأسلوب الهزلي الذي يعتمد على السخرية والتهكم ، واختيار الألفاظ النابية التي تخرج أحياناً عن الذوق العام ،ومن هنا يمكن القول إن الجزار قد تأثر بشكل كبير بفن النقائض من ناحية الأسلوب والموضوع والمضمون ، وربما يكون الجزار قد حاول نقل هذه البذرة (النقائض) وغرسها في الأندلس ، وإحياء هذا الفن من جديد ، ولكن الظروف عاندته .

بدأ الجزار قصيدته بدون تمهيد وتهيئة للموضوع ، شأن غيره من الشعراء في ذلك العصر ، إذ دخل مباشرة بموضوع الهجاء والنقد الشديد، بعكس قصيدته الأولى(١) التي بدأها بالحكمة والهدوء، ويعود هذا إلى أن نفس الشاعر وقلبه يملأهما الغضب والحقد ، فعاجله بهذا الهجوم العنيف، ولم يدع مجالاً للعقل والحكمة والتهيئة لتأخذ مكانها ودورها في القصيدة، حتى لا تتأثر ثورته العارمة ، ويخف لهيبها وغليانها.

يبدأ الجزار قصيدته بأسلوب خبري ، مفاده أن أمر صديقه البرجي قد انكشف ، وأن ثوب التقى والصلاح والأخوة والمودة الكاذبة قد انحسر ، وبان ما كان يحاول إخفاءه عن صديقه وعن الناس ، فظهر بوجهه الحقيقي القبيح ، الذي هو مزيج من النفاق والغباء والسخف ، والتكبر ، والانحطاط ، والخيانة ، حين قابل الإحسان بالإساءة،والعتب الصادق ، بالذمّ والفحش فيقول الجزار (٢) : وهو من الكامل :

١ . بَرِحَ الخَفَاءُ فَلاتَ حِيْنَ خَفَاءِ   فَاجْهَرْ فَبِئْسَ الثَّوبُ ثَوبُ رِيَاءِ
٢ . يا سَالِحَاً مِنْ نَوْكِهِ في لُجَّةٍ   سُجِرَتْ لَهُ بِالسُّخْفِ وَالخُيَلاءِ
٣ . إنْ تُجْزِنَا بِالعَتْبِ ذَمّاً فَاحِشَاً   فَبِمَا حَوَاهُ رَشْحُ كُلُّ إِنَاءِ

ويبدو أن قصيدة البرجي قد أصابت الجزار في مقتل ، وأن ما جاء فيها من تهجم وتعريض وذمٍّ به ، قد أثار حفيظته ، وشَحَنه ، ليفرغ كل غضبه وحقده على البرجي الفقيه ، يظهر هذا جليّاً من حشد الألفاظ القاسية الوقع على النفس ، مثل : الرياء ، سالحاً ، نوكه ،

---

(1) ورد جزء كبير منها في **هذا البحث**، انظر: الباب الثاني، الفصل الثاني، صورة الفقيه السلبية. ص١٠٠.
(2) الجزار السرقسطي . **الديوان** ، القصيدة ، ص ١٤٢- ١٥١ .

السخف ، الخيلاء . إذ يصف الغرور الذي يكتف البرجي ، القائم على الأوهام الكاذبة ، والتخيلات الخادعة ، فأوصله ذلك إلى أن يحسب نفسه إنساناً له شأن عظيم يشار إليه بالبنان ويجعل الأنظار والألسنة تتجه إليه مدحاً أو تعريضاً ، ويؤكد أن البرجي ليس من الذين يشغلون باله وتفكيره ، ليوجه لهم نقداً وهجاء ، يقلل من قيمته ، ويحط من قدره ، لأن ما فيه من عجز وانحطاط وخسّة ، ليس بحاجة إلى كشفه والتنويه به ، وهو من القذارة ما يجعله يتعفف عن هجائه والخوض فيه ، يقول الجزّار :

٤ . رُؤيَا تَرَاءَى ضِغْثُهَا لَكَ فِي الكَرَى فَحَسِبْتَ نَفْسَكَ مَوْضِعاً لِهِجَاءِ

٥ . لا تَنْتَحِيْكَ بِسَمِّ هَجْوٍ صَائِبٍ مَا يَصْنَعُ العِنِّيْنُ بالعَذْرَاءِ

٦ . الكَلْبُ أَقْذَرُ خِلقَةً وَخَلِيْقَةً مِنْ أنْ يَكُونَ مُبَخَّراً بِكِبَاءِ

٧ . وَلِعِلَّةٍ عِفْتُ الهِجَاءَ وَرُبَّمَا حَمَتِ المَوَارِدَ كَثْرَةُ الأَقْذَاءِ

لقد شحذ الجزار عصارة فكره في هذه الأبيات ، وصاغ عبارات محكمة تجري مجرى المثل السائر ، وتنضح بالكلمة السديدة ، رمى بها صديقه الفقيه بكل قسوة وبلا رحمة ، مؤكداً أن البرجي ليس أهلاً للهجاء ، والخوض فيه منقصة بحقه ، فجاءت عباراته في مكانها ، مؤدية الغرض الذي وضعت من أجله ، ومعبرة عمّا أراده من تعريض أجمل وأصدق تعبير . فما أقسى عبارة " ما يصنع العنِّين بالعذراء" (البيت الخامس) وما أجملها ، ولا تقل عنها قسوة وجمالاً عبارة " حمت الموارد كثرة الأقذاء" (البيت السابع) وأمّا البيت السادس " والكلب أقذر خلقة .... فيعبر عن نفسه أجمل تعبير .

ولما كان البرجي في قصيدته قد جعل نفسه شاعر الشعراء ، وبأن قصيدته في الجزار أم القصائد ، فإن الجزّار يسخر منه ومن شعره الذي يشبهه في هبوط مستواه بحظيرة الإبل والأغنام التي تنبعث منها الرائحة النتنة ، أو بالرائحة الكريهة التي تخرج من جوف الإنسان ، لذلك يطلب منه أن يبعد هذه القصيدة " البكر " عنه ، ويأخذ مهرها ، لأن نفسه تعاف مثل هذه الأبكار ذات الرائحة الكريهة .

وفي المقابل، فإن الجزّار يبين أن قصيدته في عتاب صديقه البرجي ، هي القصيدة " البكر " فعلاً ، وهي التي رسمها رسماً رائعاً ، ووضع فيها كل نَفَسه الشعري ، يعجز أمثال البرجي إنشاء مثلها ، لأن مثل هذه القصيدة تستحق الجهد الذي بُذِلَ فيها . يقول الجزار :

٨ . إنِّي وَهَجْوَكَ يَا "عَلِيُّ لَكَالَّذِي   بَاهَى كَنِيفاً [1] مُتْرَعاً بِفُسَاءِ
٩ . خُذْ مَهْرَ بِكْرِكَ لا أُحِبُّ سِفَاحَهَا   لَيْسَ السِّفَاحُ بِشِيْمَةِ الكُرَمَاءِ
١٠ . أغْلَيْتُهَا مَهْراً وَلَمْ أَكُ بَاخِلاً   وَغَلاءُ مَهْرِ البِكْرِ غَيْرُ غَلاءِ
١١ . مَنْ يَخْطِبِ الحَسْنَاءَ يُغْلِ مَهرَهَا   إنَّ الحِسَانَ فَوَارِكُ [2] البُخَلاءِ

استخدم الجزار أسلوب النقائض في هجاء البرجي ، فكان يتكئ على معاني خصمه ، ويتخذها نقطة انطلاق لهجوم عنيف عليه ' فعندما أورد البرجي في قصيدته ما يهجو به الجزار ويحط من قدره ، ويدعي أنه بهجائه هذا يرفع من قيمته المنحطة ، وذلك في قوله [3] :

فِي الهَجْوِ رِفْعَةُ كُلِّ مَرْءٍ سَاقِطٍ   وَالغَبْنُ فِي سَفَهٍ عَلَى السُّفَهَاءِ
إنْ كُنْتَ تَبْغِي أنْ تُنَاسِبَنِي اسْتَعِرْ   نَسَباً أُجِبْكَ فَلَسْتَ لِي بِكِفَاءِ

رد عليه الجزار معانيه ، وحاول نقضها وهدمها ، وزاد عليها بما هو أشنع من هجوم البرجي ، مستخدماً نفس المعاني التي جاء بها فيقول [4] :

١٢ . إنْ كَانَ رِفْعَةُ كُلِّ مَرْءٍ سَاقِطٍ   فِي هَجْوِهِ فَهُنَاكَ جَزْلُ هِجَاءِ
١٣ . بِمَ تَعْتَلِي حَتَّى تَقُولَ لِيَ اسْتَعِرْ   نَسَباً أُجِبْكَ : فَلَسْتَ لِي بِكِفَاءِ
١٤ . اخْسأْ عَلِيُّ فَلَيْسَ كُفُؤَكَ غَيْرَ مَا   يَجْرِي مَعَ الأعْقَاجِ وَالأَمْعَاءِ
١٥ . وَمِنَ العَجَائِبِ وَالعَجَائِبُ جَمَّةٌ   أن تَسْخَرَ القَرْعَاءُ بِالفَرْعَاءِ

فيخاطب الجزارُ البرجيَّ في البيتين (١٢ ، ١٣) ويقابلهما في قصيدة البرجي البيتان (٣ ، ٤) ، بأنه إذا كان الهجاء يرفع قدر الساقط الوضيع ، فإن البرجي بحاجة إلى الكثير من

---

(1) كنيفاً : حظيرة من الخشب للإبل و الغنم تقيها الريح والبرد ، والكنيف : المرحاض .
(2) فوارك : مبغضات و كارهات .
(3) الجزار السرقسطي . **الديوان** . قصيدة البرجي ، ص ٩٩ .
(4) الجزار السرقسطي ، قصيدة الجزار ، **الديوان**، ص ١٤٣ .

القصائد الهجائية ، حتى ترفع مقامه وشأنه ، لأنه في غاية السقوط والانحطاط والـضعة ، ثـم يبادره بسؤال استنكاري ، تنبعث منه رائحة السخرية والتهكم " بم تعتلي" للدلالة على أن البرجي يدعي ادعاءً كاذباً بأنه صاحب نسب ومكانة ، فيهدم الجزار هذا الادعاء الكاذب ، عندما يؤكـد إنما كفؤه القاذورات ومخلفات الطعام التي تجري في الأمعاء ، وردّه هذا فـي منتهـى الإهانـة "اخسأ عليّ" ، ثم " كفؤك ما يجري مع الأعفاج والأمعاء " .

ومن هذه الأبيات يلاحظ أن الجزار قد نوّع من أساليبه في هجـاء البرجـي ، فاسـتخدم أسلوب الشرط " إن كان" ، لتأكيد سوء البرجي وانحطاطه ، واستخدم أسـلوب الاسـتفهام " بـم تعتلي " الذي يستنكر فيه ادعاء البرجي برفعة نسبه وعظيم قدره ، واستخدم أسلوب الأمر "اخسأ عليٌ" للإهانه والتحقير والازدراء ، وأسلوب النفي " فليس كفؤك " لينفي عنه كل صـفة حـسنة ادعاها لنفسه .

وبعد هذا الانفعال الشديد هدأت وتيرة الغضب عند الجزار ، ومال إلـى ضـبط الـنفس والعتاب الرقيق ، واستخدم الألفاظ التي تدل على الصداقة وحسن المودة " كالعتاب ، والمـودة ، والإخاء ، والوداد "، وفي المقابل استخدم ألفاظ الجفوة " البغضاء ، الشحناء ، الرمضاء ، النار " للمقارنة بين مشاعره تجاه صديقه البرجي ، وما قابله به من بغض وحقد ، وعدم مقابلـة الـود بالود ، وكأن الجزار هنا قد أراد أن يأخذ نفساً ليعاود الهجوم من جديد ، أو أنه قد استشعر قسوة ردّه على صديقه ، فيؤكد له أن قصيدته الأولى (ورد جزء منها في الفصل الثاني من الرسالة) ما هي إلا عتاب مودّة ، عتاب الصديق لصديقه ، والتي إن دلّت على شيء فإنما تدل على عمق الصداقة والأخوّة التي كانت بينهما ، ولكن البرجي لَم يعِ حقيقتها ، فعجّل بهجوم عنيـف علـى الجزار ،ونتج عنها هذه القصيدة التي شنع فيها الجزارعلى صديقه الفقيه.يقول الجزارفي هذا :

١٦ . أَتَسُبُّنِي مِنْ غَيْرِ ذَنْبٍ جِئْتُهُ إلا عِتَابَ مَوَدَّةٍ وإخَاءِ

١٧ . وَالعَتْبُ يَشْهَدُ بِالوِدَادِ لأَهْلِهِ فِي أَكْثَرِ الأشْيَاءِ وَالأنْحَاءِ

١٨ ، فَعَلامَ قَارَضْتَ العِتَابَ بِجَفْوَةٍ تَدْعُو إلَى البَغْضَاءِ وَالشَّحْنَاءِ

١٩ . وَغَدَوْتَ مِنْ عَتَبِي بِهِ مُسْتَبْدِلاً كَمُعَوِّضٍ نَاراً مِنَ الرَّمْضَاءِ

٢٠ . إنْ تُبْدِ مِنْ عَتَبِي عَلَيكَ تَأَلُّمَا فَالعَيْرُ يَضْرُطُ خِيفَةَ الكَوَّاءِ

ثم ترتفع حدة الهجاء والذم فيذكّره بمكانته الوضيعة التي تناساها ، وطمح إلى المعالي ، ووضع نفسه في موضع لا يناسبه ، عندما أكدّ شاعريته ، وأنه لا يستطيع أحد الوقوف أمام شعره ، يقول (1) :

٢١ . عَهْدِي بِقَدْرِكَ فِي الحَضِيْضِ مُبَوَّأً   وَلَقَدْ أَرَاكَ طَمِحْتَ لِلعَلْيَاءِ

٢٢ . وَوَصَفْتَ نَفْسَكَ قَائِلاً ....(٢)   وَالأُسْدُ قَدْ هَابَتْ كَرِيْهَةَ لِقَائِي

استغل الجزار مديح البرجي لنفسه ؛ ليعيد الهجوم عليه ثانية ، ويبين أن البرجي قد ذمّ نفسه ذمّاً شديداً من حيث لا يدري ، عندما وضع نفسه موضع الوزراء والملوك ، ووصف نفسه بما يوصف به هؤلاء ، فالممدوح إذا مُدح بما ليس فيه ، فإن هذا المدح يخرج في دلالته إلى الاستهزاء والسخرية والذّمّ ، يقول :

٢٣ . وَكَفَاكَ ذَمّاً مَدْحُ نَفْسِكَ بِالّتِي   هِيَ مِنْ حِلَى الأَمْلاكِ وَالوُزَرَاءِ

٢٤ . مَنْ كَانَ مَمْدُوحاً بِغَيْرِ صِفَاتِهِ   آلَ المَدِيحُ بِهِ إِلَى اسْتِهْزَاءِ

ثم يستغل الجزار هفوة للبرجي، ينفذ من خلالها إلى مزيد من التهكم والسخرية ، فعندما قال (البرجي)(3) :

يَا لَيْت شِعْرِي مَا الَّذِي أَغْرَاكَ بِي ؟   أَأَمِنْتَ مِنْ بَطْشِي وَمِنْ غُلَوَائِي

وصفه وصفاً غاية في السخرية والتهكم ، فهو وحيد عصره، وفارس الفرسان ، يهابه الجميع خوفاً من بطشه والتنكيل به ، وربّما يشبهه بزياد بن أبيه(4) الذي أقسم أن يأخذ المحسن بالمسيء ، والصحيح بالسقيم ، والبريء بالمذنب ، فيستحلفه بالله أن يرفق بالناس، ولا يأخذ فاضلهم بسفيههم ، ثم يبين أن هذه الإدعاءات الكاذبة التي يحاول أن يظهر بها ، وهذا الجلد المزيف الذي يلبسه، لا يغير في حقيقته شيئاً ، فهو يتزين بها لا أكثر، مثل والده الفراء الذي يجعل زينة الثياب والفراء التي يصنعها القُمّل والخراء ، ثم يبين له أن هذا الشعر الذي يهذي به واللسان الذي يهدد به ويصول ، ما هو إلا سلاح واهن ، عاجز عن إحداث أي نوع من التأثير ، فما يسميه شعراً وهو ليس كذلك ، ما هو إلا كإبرة صدئة في يد إنسان ضعيف ، لا تحدث أثراً حتى في أضعف الأشياء ، فكيف يستخدم هذا الشعر الوضيع الضعيف في هزّ شاعر كبير

---

(1)الجزار السرقسطي . الديوان، ص ١٤٣.

(2) هكذا ورد الفراغ في الديوان ، وعلل محققه ذلك بأن الشاعر أسقط تفعيلة العروض ، وذلك أبلغ في الدلالة على الاستخفاف بوصف البرجي نفسه .

(3) الجزار السرقسطي . الديوان ، قصيدة البرجي ، البيت الخامس ، ص ٩٩ .

(4) هو زياد بن أبي سفيان، استلحقه معاوية بأبيه، وأمه سمية جارية الحارث بن كلدة، ولد عام الهجرة، استعمله عمر بن الخطاب على بعض أعمال البصرة ، واستعمله علي على بعض أعمال فارس، توفي سنة٥٣هـ . انظر: ابن الأثير. المثل السائر، ص ٦٦.

كالجبل الراسخ الذي لا تهزه العواصف ، فهو هنا يعرض بشاعرية البرجي، الذي يظن أنه وصل إلى مرتبة الفحول من الشعراء . يقول في هذا [١] :

٢٥ . وَعَطَفْتَ تَدْعُونِي بِقَوْلِكَ مُفْصِحاً　　أَأَمِنْتَ مِنْ بَطْشِي وَمِنْ غُلَوَائِي

٢٦ . اللهَ يَا لَيْثَ العَرِينِ المُنْتَقَى　　اللهَ فِي دَمِ فِتْيَةٍ بُرَآءِ

٢٧. خُذْ مَنْ أَسَاءَ بِذَنْبِهِ وَبِجُرْمِهِ　　لا تَأْخُذِ الفُضَلاءَ بِالسُّفَهَاءِ

٢٨ . هَذِي الرُّقَاعُ رُقَاعُ وَالِدِكَ التي　　طُرَّتْ بِطُرَّيْ قُمَّلٍ وَخَرَاءِ

٢٩ . هَلْ رُمْحُكَ المَهْمُوزُ إلا إِبْرَةٌ　　أَمِنَ الطَّعِينُ بِهَا مِنَ الإِدْمَاءِ

٣٠ . لَوْ أَنَّهَا فِي عَيْنِ مَرْمُودٍ لَمَا　　مَنَعَتْ مَلاحِظَهُ مِنَ الإِغْضَاءِ

٣١ . أَبِإِبْرَةٍ مِثْلَ الهَبَاةِ كَسِيرَةٍ　　تَسْتَطِيعُ قَلْعَ الهَضْبَةِ الصَّمَّاءِ

يركز الجزار كثيراً في نقده وهجائه للبرجي على عدم علو كعبه في الشعر ، ويحاول أن ينقض ادعاءاته في أبياته (٧-٩) فيرد عليها بيتاً بيتاً ، كما هي عادة شعراء النقائض ، مبيناً الهفوات والزلات التي تدين البرجي ، وتبين أنّه ليس كما يصور نفسه الشاعر الكبير الذي تخشى لقاءه الشعراء ،فعندما يقول البرجي [٢]:

فُرْسَانُ قَوْلِي تَتَّقِيهَا إِنْ عَدَتْ　　فُرْسَانُ كُلِّ كَتِيبَةٍ خَضْرَاءِ

أَنَّى تَفُوتُ مَخَالِبِي فِي بَلْدَةٍ　　أَرْضِي بِهَا مَبْسُوطَةٌ وَسَمَائِي

لِي صَارِمٌ مَا شَامَهُ مِنْ غِمْدِهِ　　أَحَدٌ فَأَفْلَتَ وَهْوَ ذُو سَرَّاءِ

يسعى الجزار إلى هدم ما بناه البرجي لنفسه ، فيصوره بالعصفور الضعيف الذي لا يقوى على حماية نفسه ، فضلاً عن مواجهة الآخرين أمثال الجزار (البازي) ، ومع ذلك يكابر ويجعل نفسه نداً للجزار في قرض الشعر ، ولكن هذا الشعر في ضعف معناه وركاكته أشبه ما يكون بنسج العنكبوت الذي يبدو جميلا وقوياً ، ولكن حقيقته في غاية الضعف والهوان ، ومن كان هذا حال شعره ، فلا ضير أن يرفع صوته به عالياً ، لأنه أشبه بنباح الجراء على الآساد ، لا يضيرها ،ولا يخيفها ، وهي لا تعير له بالاً أو اهتماماً .

يتهكم الجزار من قول البرجي عندما وصف شعره الذي يقف في صدارة الأشعار جودة وجمالاً ، ولا يستطيع شاعر أن يجاريه أو يقف أمامه ، فيرد الجزار ساخراً ، بأن الشعر الذي

---

(1) ا لجزار السرقسطي . **الديوان** ، ص ١٤٥

(2) الجزار السرقسطي . **الديوان** ، ص ١٠٠ .

ينظمه البرجي (فرسان قولي) لا يرقى بأي شكل من الأشكال إلى مستوى الشعر الذي يجود به فحول الشعراء ، لرداءته وسقوطه ، وضعف معانيه، ولتأكيد هزالة شعر البرجي ، ينبه الجزار البرجيَّ إلى خطأ وقع فيه ، في البيت الثامن من قصيدته فيقول : بما أنك شاعر وتنقد الشعر ، فلماذا جعلت السماء التي رفعها الله مبسوطة مع الأرض ، فهذا عجز منك أن تقرن هذه بتلك في صفة واحدة ، وقد جعل الله لكل منهما صفة بعينها .

وهو يشير بذلك إلى قوله تعالى في سورة الغاشية(1): ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ۞ وإلى السماء كيف رفعت ۞ وإلى الجبال كيف نصبت ۞ و إلى الأرض كيف سطحت ﴾ يقول الجزار في هذه المعاني (٢)

٣٢ . وَأَرَاكَ يَا عُصْفُورُ تُوعِدُ بَازِيَاً بِمَخَالِبٍ لَيْسَتْ بِذَاتِ مَضَاءِ
٣٣ . لَوْ كُنْتَ مُنْشِئَهَا بِنَسْجِ خَدَرْنَقٍ* ضَعُفَتْ عَلَى الإِيْهَانِ وَالإِنْهَاءِ
٣٤ . أَرْعِدْ وَأَبْرِقْ يَا سَخِيفُ فَمَا عَلَى آسَادِ غَيْلٍ مِنْ نُبَاحِ جِرَاءِ
٣٥ . وَأَرَى سَمَاءَكَ يَا عَلِيُّ جَعَلْتَهَا مَبْسُوطَةً مَعْ أَرْضِكَ البَوغَاءِ*
٣٦ . أَعَلَى المَجَازِ وَضَعْتَهَا أَمْ لَمْ تَكُنْ بِكَ قُدْرَةٌ تَدْعُو إِلَى الإِعْلاءِ
٣٧ . مَا كَانَ أَوْلَى أَنْ تَعُمَّكَ بَلْدَةٌ تَعْتَدُّ ذَا أَرْضٍ بِهَا وَسَمَاءِ
٣٨ . فُرْسَانُ قَوْلِكَ خَيْلُهَا مُنَكَّبَةٌ تَكْبُو إِذَا ذَهَبَتْ إِلَى التَّعْدَاءِ
٣٩ . وَتَرَى حِرَانَاً كُلَّمَا هَمَزَتْ فَمَا تَخْشَى فُجَاءَةَ غَارَةٍ شَعْوَاءِ
٤٠ . وَحُسَامُكَ العَضْبُ الطَّرِيْرُ المُنْتَقَى قَدْ فَلَّهُ فَالُوذُ حَدٍّ ذَكَاءِ

ويرد الجزار على قول البرجي في البيت العاشر ، معرضاً أشد التعريض به من خلال مهنة والدة (الفراء) ، فيصفه بالحمق ، وقلة العقل ، والجهل ، وأن الأمثال التي تضرب في هل هذه المهنة ، منطبقة تماماً على أوصاف البرجي ، يقول في ذلك: (٣)

٤١ . أَتَقُولُ لِي : لَوْ كُنْتَ تَعْقِلُ لَمْ تُطِعْ كُلَّ امْرِئٍ بِنَمِيْمَةٍ مَشَّاءِ
٤٢ . عُذْرَاً فَلَمْ أَعْلَمْ بِأَنَّ الْعَقْلَ مَخْصُوصٌ بِهِ كُلُّ امْرِئٍ فَرَّاءِ

---

(1) سورة الغاشية: الأيات١٧ـ٢٠.

(2) الجزار السرقسطي. الديوان، ص ١٤٥ـ١٤٦.

* الخدرنق: العنكبوت.

* البوغاء: التربة الرخوة كأنها ذريرة.

(3) الجزار السرقسطي، الديوان، ص ١٤٦.

٤٣ . وَجَهِلْتَ مَا ضَرَبْتَهُ مِنْ أَمْثَالِهَا فِيكُمْ قَدِيمًا عِتْرَةَ الحُكَمَاءِ

ينتقل الجزار إلى موضوع آخر ، ومنه يوجه نقداً شديداً للفقيه البرجي ، وذلك بالرد على ما جاء في أبيات قصيدته (١١– ١٧) فيحاول نقض وتكذيب ما ادّعاه زوراً من محافظته على العهد ، وإدامة المودة والصّداقة ، فيبين أن هناك بوناً شاسعاً ، وتناقضاً واضحاً بين ما يدّعيه وما يمارسه قولاً وعملاً ، لدرجة أن الجزار يعتريه الحياء من تمادي الفقيه بغيّه ونفاقه ، وهو لم يعر ذلك أدنى انتباه أو اهتمام ، فيذَكِّره بما كان قد عاهده عليه من العمل على إبقاء حبل الصداقة والمودّة موصولاً بينهما ، بعد أن أرسل قصيدته الأولى يعاتبه فيها على ما بدر منه من انتقاد شعره ، ولكن البرجي أخلف ما عاهد عليه الجزار ، بشهادة الشهود الذين أكّدوا ذلك ولا يستطيع البرجي أن ينفي ذلك عنه ، يقول الجزار (١)

٤٤ . عَجَبَاً لِدَعْوَاكَ الوَفَاءَ وَأَنَّهُ عَمْرِي لأَغْرَبُ فِيكَ مِنْ عَنْقَاءِ
٤٥ . إِنِّي لأَسْتَحْيِي وَأَيْمَ اللهِ مِنْ طُولِ ادِّعَائِكَهُ بِلا اسْتِحْيَاءِ
٤٦ . أَوَلَمْ تَكُنْ عَاقَدْتَنِي أَنْ لا تُرَى أَلْطَافُنَا مَمْزُوجَةً بِجَفَاءِ
٤٧ . فَنَكَثْتَ مَا شَدَّ الإِخَاءُ عُقُودَهُ وَمَزَجْتَ بِالأَقْذَاءِ مَاءَ صَفَاءِ
٤٨ . وَلَئِنْ دَفَعْتَ مَقَالَتِي وَجَحَدْتَهَا فَأَبُو مُحَمَّدٍ اعْدَلُ الشُّهَدَاءِ

يرد الجزار على أبيات البرجي (١٢– ١٥) التي يتهم فيها الجزارَ بأنه يضمر العداوة والبغضاء له ، عندما ينكر فضائله وأخلاقه ، ويحاول الشك والطعن فيهما ، وجعل من نفسه ندّاً للبرجي ، مع أنه ليس من الذين يُعَدُّون أندادا له ، فأسخط بهذا الجحود ، وهذه النديّة، البرجيَّ في الوقت الذي كان عليه أن يعرف مقداره ، ويحاول إرضاءه ، فيرد الجزار محاولاً نقض تلك الفضائل التي يدّعيها البرجي تكبراً واختيالاً ، مؤكداً أن صفاته وأخلاقه وأخباره السيئة لم تعد خافية على أحد ، وهذه الأخلاق ليست مدعاةً لأن يحسده عليها ، أو يبغضه من أجلها ، فلو كانت فاضلة كما يدعي ، لما سُرَّ بها أعداء البرجي ، ثم يتساءل باستنكار وتعجب وسخرية من ادعاء البرجي بأنه حامل لواء الشعر ، وفارسه الذي لا يجاريه أو يدانيه أحد في ذلك، إذ يؤكّد (الجزار) أن البرجي لم يكن في يوم من الأيام من الشعراء الذين يشار إليهم بالبنان في قوة

---

(١) الجزار السرقسطي . الديوان ص ١٤٧ .

شعرهم ، وسمو شاعريتهم ، فما هو إلا كالتيس العاجز الذي لا يقوى على شيء وادّعاؤه عبارة عن هذيان وأمانٍ من الصعب تحقيقها ، يقول في ذلك [١] :

٤٩ . وَأَرَدْتُ أَنْ أُرْضِيكَ وَالزِّنْدِيْقُ فِي إِرْضَائِهِ إِسْخَاطُ ذِي الآلاءِ
٥٠ . هَذِي خِلالُكَ قَدْ نَشَرْتَ مَلاءَهَا مَشْهُورَةَ الأَسْمَاءِ وَالأَنْبَاءِ
٥١ . فَعَلامَ تَزْعُمُ أَنَّنِي بِجُحُودِهَا مُغْرَىً أَهَذَا مِنْكَ حَقُّ جَزَائِي
٥٢ . شه تِلْكَ مَنَاقِبَاً وَمَآثِرَاً فَلَقَدْ أَقَرَّتْ أَعْيُنَ الأَعْدَاءِ
٥٣ . يَا أَيُّهَا التَّيْسُ المُجَمَّرُ قُلْ : مَتَى حُزْتَ السِّبَاقَ بِحَلْبَةِ الفُصَحَاءِ
٥٤ . حَتَّى تَقُولَ مُصَرِّحَاً وَمُلَجْلِجَاً "هَلْ قِيْسَتِ الدَّامَاءُ بِالأَحْسَاءِ"

يعاود الجزار ثانية التقليل من شان البرجي ، ووضعه في مكانه الطبيعي ، فالبرجي أصغر من أن يضع نفسه في مواجهة الجزار ، عندما يحاول تشويه صورته الشعرية ، فالشمس (الجزار) بنورها الساطع القوى ، لا تقوى النجوم أو الأنوار الضعيفة (البرجي) على إخفاء وجهها الحسن ، أو تشويه صورتها البهية ، فإذا كان البرجي كما يدعي نجماً في الشعر فإن هذه الهالة الضعيفة تختفي وتتوارى أمام ضياء الشمس المبهر ، ثم يصف البرجي في ضعفه وضعة شعره بالدراهم الزائفة التي لا قيمة لها ، فأين هي من الذهب الخالص ، الذي عنى به نفسه ، فالفرق بين مكانة الجزار وشاعريته و ما عليه الجزار ، كالفرق بين الضياء والظلام.

يستخدم الجزار مجموعة من الألفاظ المتقابلة للمقارنة بينهما ، فبينما يستخدم ألفاظ " أنوار الشمس ، محاسن ، العسجد ، الضياء " للدلالة على مكانته الشعرية السامية ، نجده يضع مقابلها ألفاظ " إطفاء ، غطّى ، برقع الأنواء ، بهرج ، الزيف ، غياهب " لتشير إلى مكانة البرجي الشعرية الوضيعة ، وإزاء هذا يصل الجزار إلى قمة سخريته وتهكمه في مخاطبة البرجي عندما يصفه وينعته " بربّ اللواء " الذي يحاول دون طائل التشبه بالزّعماء وهو ليس منهم ، والوصول إلى مراتبهم وصعوبة ذلك ، يقول الجزار في هذا المعنى [٢] :

٥٥ . إِطْفَاءُ أَنْوَارِي تَرُومُ وَدُوْنَ مَا قَدْ رُمْتَهُ إِطْفَاءُ نُورِ ذُكَاءِ
٥٦ . الشَّمْسُ لا تَخْفَى مَحَاسِنُهَا وَإِنْ غَطَّى عَلَيْهَا بُرْقُعُ الأَنْوَاءِ
٥٧ . أَبِبَهْرَجٍ * زَيْفٍ تُنَاقِضُ عَسْجَدَاً شَتَّانَ بَيْنَ غَيَاهِبٍ وَضِيَاءِ

---

(1)الجزار السرقسطي . الديوان ص ١٤٧ .
(2)الجزار السرقسطي . الديوان ص ١٤٨ .
* البهرج: الدراهم الزائفة.

٥٨ . وتَقُولُ : لَوْ شِئْتُ القَوَافِي لَمْ تَكُنْ   إلا مِلاكَاً تَحْتَ ظِلٍّ لِوَائِي
٥٩ . أحْسَنْتَ يَا رَبَّ اللِّوَاءِ الْمُرْتَقِي   بِفَخَارِهِ لِمَرَاتِبِ الزُّعَمَاءِ

يتابع الجزار نقض ما يدّعيه البرجي في أبياته ، فعندما ادّعى أنه يترفّع عن استجداء لأمراء شعراً ، وأنّه يرضى بالكفاف ، ردّ عليه معانيه هذه ، وسخر من ادّعاءاته ، فهو ليس من الشعراء الفحول الذين عاشوا في الجاهلية و الإسلام ، فقد مدحوا و تكسّبوا بالشعر و هم أكبر منه قدراً وأرفع منه مكانة في الشعر ، فيخاطبه بسخرية و تهكم ، من تكون أنت حتّى تترفع عن عامّة الناس ، فضلاً عن الملوك و الوزراء ، فإحجامك عن المديح و الدخول إليهم ، و التكسب بالشعر ليس لأن البرجي عزيز النفس ، فعزّة النفس لتي يدّعيها ما هي إلاتظاهراً وعجزاً وذلاً وخضوعاً ، لأنه ليس من الشعراء الذين يدخلون على الأمراء ويمدحونهم ، فيؤكّد له لو أنه جرّب الفقر ، وعاش الحرمان لما اعتبر مدح الملوك استجداءً ، فمن هم أفضل و أشرف منه ومن غيره : أنبياء الله عندما حرموا واحتاجوا ، استطعموا أهل الفضل ، وليس هذا استجداءً ويضرب قصة موسى عليه السلام مع أهل القرية مثلاً يوضح فيه معناه ، فغندما دخل موسى وصاحبه القرية استطعما أهلها فأبوا ، وهو بهذا يشير إلى الآية الكريمة من سورة الكهف:﴿ **فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما ۞ فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه ۞ قال لو شئت لاتّخذت عليه أجرا** ﴾ [(١)] فطلب الرزق والعيش الكريم ما لم يخالطه الفحش ليس عاراً أو عيباً ، وإذا كان التعزز الذي يتظاهر به البرجي نتيجة ثرائه ورخاء عيشه ، فإن هذا لا يدوم ، فقد يأتي اليوم الذي يكون هذا عبئاً ثقيلاً عليه ، إذا لم يحسن حفظه ورعايته. يقول في هذه المعاني [(٢)]

٦٠ . نَزَّهْتَ هِمَّتَكَ الوَضِيعَةَ أنْ تُرَى   مُسْتَجْدِيَ الأمَرَاءِ وَالوُزَرَاءِ
٦١ . قُلْ أنْتَ مَعْنٌ بنُ أوْسٍ هِمَّةً   أمْ مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ الشُّعَرَاءِ
٦٢ . حَتَّى تُرَى متنَزِّهاً عَنْ سُوقَةٍ   فَضْلاً عَنِ الوُزَرَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ
٦٣ . لَمْ تُبْدِ هِمَّةَ عِزَّةٍ لَكِنَّمَا   أعْرَبْتَ مُعْتَزّاً عَنِ اسْتِخْذَاءِ
٦٤ .وَلَوِ ابْتُلِيتَ _ وَعَلَّ ذَلِكَ _ كَائِنٌ   بِالفَقْرِ مَا عَيَّرْتَ ذَا اسْتِجْدَاءِ

---

(1) الكهف .آيه (٧٧)
(2)الجزار السرقسطي . الديوان ص ١٤٨- ١٤٩

٦٥ . وَالأَنْبِيَاءُ المُرْسَلُونَ اسْتَطْعَمُوا وَبُلُوا بِدَاءِ الفَقْرِ كُلَّ بَلاءِ
٦٦ .أَولَيْسَ مُوسَى قَدْ تَوَخَّى قَرْيَةً مُسْتَطْعِماً فَأَبَتْ بِكُلِّ إِبَاءِ
٦٧ . لا عَارَ يَلْحَقُ سَاعِياً فِي عَيْشِهِ مَا لَمْ يَجِئْ فِي سَعْيِهِ بِخَنَاءِ
٦٨ . لا تَغْتَرِرْ بِرَخَاءِ بَالِكَ وَالغِنَى فَالدَّهْرُ يَمْزِجُ شِدَّةً بِرَخَاءِ
٦٩ . كَمْ مِنْ فَتَىً هَبَّتْ رَخَاءً رِيحُهُ كَانَتْ عَوَاقِبُهَا إِلَى نَكْبَاءِ
٧٠ . لَيْسَ الفَتَى المُضْطَرُّ يَمْلِكُ عِزَّةً قَطَعَ الشَّقَاءُ تَعَزُّزَ الفُقَرَاءِ

يحاول الجزار هدم ما ادّعاه البرجي من أنّه يرضى بالكفاف من العيش ، ويحجم عن استجداء الملوك والأمراء في شعره ، فيوبخه الجزار ويبين له أن أشعاره كلها نفاق وخداع ولا تقول الحقيقة ، فيُظهر للناس غير ما يبطن ، فلو كان صادقاً فيما يقول ويزخرف من أقوال ، لما أعلن على الناس بأنه غير ذي غنى ، والمعروف عند الناس أن البرجي من أهل الغنى والثروة ولكن طبيعة الإنسان جبلت على نكران النعمة التي أنعمها الله عليه ، وأمّا ادّعاء البرجي بأن الغنى هو غنى النفس لا غنى المال فمردود عليه ، لأنه لو كان يؤمن بهذا القول حقيقية الإيمان لما اشتكى الفقر والحاجة . يقول الجزار في هذا [1]

٧١ . نَزَعَاتُ شِعْرِكَ فِي مِحَالٍ كُلُّهَا وَكَذَا المِحَالُ خَلائِقُ السُّفَهَاءِ
٧٢ . لَو كُنْتَ تَقْنَعُ بِالكَفَافِ لِمِثْلِ مَا زَخْرَفْتَ لَمْ تُعْلِنْ بِعُدْمِ ثَرَاءِ
٧٣ . وَأَبُوكَ قَارُونُ الغِنَى فِي خِفِّهِ مَا أَكْفَرَ الإِنْسَانَ بِالنَّعْمَاءِ
٧٤. وَإِذَا حَوَتْ يَدُكَ الكَفَافَ وَتَشْتَكِي عُدْماً فَأَيْنَ إِذَاً غِنَى الحَوْبَاءِ

يكرر الجزار المعاني نفسها التي ذكرها في أبياته السابقة ، إذ يفتخر بنفسه وبصفاته وبشاعريته الفذّة ، وبقصائده التي سبقت جميع القصائد ، وبزت جميع الشعراء ، وفي الوقت نفسه يواصل ذم البرجي والسخرية منه ، وينعته بأبشع الصّفات ، ومنهجه في ذلك : أنّه يأخذ المعاني والأفكار التي جاء بها البرجي ، ويحاول نقضها والطعن فيها ، ورد الفضائل التي ادّعاها البرجي لنفسه إلى رذائل ومساوئ ، فيردّ على البيت (٢٦) " أجرى الهجين قريضه بخلاء" بأن قصائده ليست هجيناً أو مغمورة لم يكتب لها أن تذاع و تنشر ، بل هي قصائد في قمّة الشاعرية والجميع يشهد لها بذلك ، ويصفه بالزّنديقِ الذي يحاول الطعن بالدين ، باتّباعه

(1) الجزار السرقسطي . الديوان ص ١٤٩.

الزنادقة أمثاله رغم ارتدائه ثوب الدين ، ثم يطعن في فهمه وعقله رداً على اتهامه بالجهل (البيت ٢٩) ، ويفتخر بخلّة الحياة التي تعتبر رأس ماله الذي يفتخر به بين النّاس ، في الوقت الذي ينفي هذه الصفة عن البرجي ، فالصّاعقة الكبيرة لا تؤثر في هذا الوجه الجهم الذي يخلو من أي نقطة ماء ، فما بالك بالكلام والذّمّ . يقول في ذلك [1] :

٧٥ . أجْرَيْتُ فِي مَلأٍ سَوَابِقَ مَنْطِقِي فَشَأَوْتُ فِي مَلأٍ بِهَا وَخَلاءِ
٧٦ . لا كَالَّذِي قَدْ قُلْتَ إِنِّي بِالْخَلا أَجْرَيْتُهُنَّ فَفُزْتَ بَيْنَ بِطَاءِ
٧٧ . زَيَّنْتَ مَا قَدْ عَابَهُ ابْنُ قَمِيئَةٍ مِمَّا نَفَثْتَهُ شِرْعَةُ الحُنَفَاءِ
٧٨ . فَجَعَلْتَ تُفْصِحُ قَائِلاً مُتَزَنْدِقَاً: " بِدْءُ التَّفَكُّرِ آخِرُ الأَنْسَاءِ"
٧٩ . وَحَكَمْتَ أَنِّي جَاهِلٌ مَا قُلْتُهُ وَنَسَبْتَنِي لِبَصِيرَةٍ عَمْيَاءِ
٨٠ . وَلَوِ الزَّمَانُ جَرَى بِفَهْمِكَ أَوَّلاً مَا جِئْتَ إِلاّ آخِرَ الفُهَمَاءِ
٨١ . وَرَفَعْتَ عَنْ وَجْهِي الحَيَاءَ وَإِنَّهُ لَمُلاءَتِي بَيْنَ الوَرَى وَرِدَائِي
٨٢ . وَلَوْ انَّ صَاعِقَةً هَوَتْ مَا أَثَّرَتْ فِي وَجْهِكَ الجَهْمِ القَلِيلِ المَاءِ

ينتقد السرقسطي بشدّه ما يدعيه البرجي لنفسه من صفات وفضائل ، ويستغرب من شدّة التناقض بين ما يدّعيه لنفسه ، وما يفعله ويطالب الآخرين بفعله ، ففي الوقت الذي ينهى عن السب والشتم في الردّ عليه ، ويعتبر ذلك ضعفاً وحمقاً في المرء ، تراه يمعن فيهما غاية الإمعان ، فهذا الفقيه الذي يدعو إلى الفضيلة وحفظ اللسان ، يحل لنفسه ما يحرّمه على الآخرين وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على السخف والبله ، وهو بهذا قد وصف نفسه من حيث لا يدري بالضعيف الأحمق الذي يتفوه بكلام لا يدري معناه ، فالبرجي قد جعل نفسه ناقداً ينتقد الشعر وينقضه ، وهو يهذي فيه هذياناً ويتخبّط فيه تخبّط العشواء ، ويتخذ الجزار من هذا الضعف مدخلاً للطعن في علمه ودينه ،فإذا كان مستوى العلم الذي يحمله ، ويدعو النّاس إليه بمستوى عقله الجاهل؛ فإنه أبعد ما يكون عن العلماء وصفاتهم، وإن ما يدعو إليه من اتخاذ العلم وسيلة للرد، وحجة في إثبات ما يقول؛ فإن هذه الحجج التي يتفوه بها قد أوقعته في مزالق كثيرة، وأدانته من حيث لا يدري . يقول في هذه المعاني [2] :

٨٣ . هَذَا الثَّنَاءُ فَهَلْ سَمِعْتَ بِمِثْلِهِ؟ لَقَدْ احْتَوَيْتَ فَضَائِلَ الظُّرَفَاءِ
٨٤ . وَاللهِ مَا أَدْرِي وَإِنِّي حَائِرٌ فِي أَمْرِكَ المُتَخَالِفِ الأَنْحَاءِ

(1) الجزار السرقسطي . **الديوان** ص ١٥٠ .

(2)الجزار السرقسطي . **الديوان** ص ١٥١ .

٨٥ . تَنْهَى عَنِ السَّبِّ الَّذِي قَدْ جِئْتَهُ وَتَرَاهُ فِعْلَ الرَّعْنِ وَالضُّعَفَاءِ
٨٦ . كَمُحَرِّمٍ مَا يَسْتَحِلُّ لِنَفْسِهِ هَذَا أَدَلُّ دَلائِلِ السُّخَفَاءِ
٨٧ . أَنْتَ الضَّعِيفُ إِذَا عَلا مَا قُلْتَهُ وَالأَرْعَنُ الآتِي بِكُلِّ هُذَاءِ
٨٨ . تَسْمُو إِلَى نَقْدِ القَرِيضِ وَنَقْضِهِ وَأَرَاكَ تَخْبِطُ فِيهِ كَالعَشْوَاءِ
٨٩ . مَا فِيكَ مِنْ فَهْمٍ يَسُرُّ وَإِنَّمَا تَهْذِي عَلَيَّ وَتَدَّعِي بِذَكَاءِ
٩٠ . إِنْ كَانَ عِلْمُكَ مِثْلَ عَقْلِكَ ذَا فَقَدْ أَخْلَيْتَ نَفْسَكَ مِنْ حُلَى العُلَمَاءِ
٩١ . بَيْضَاءُ حُجَّتُكَ الَّتِي أَوْضَحْتَهَا جَاءَتْ بِكُلِّ مُصِيبَةٍ سَوْدَاءِ

بعد أن جرد الجزار صديقه الفقيه من كل فضيلة، ووضع فيه كل خلة ذميمة، ووصفه بأبشع الصفات العقلية والخلقية، يتساءل باستهجان واستغراب وسخرية عن الفضائل التي يدعيها البرجي لنفسه ، وسمت به إلى مصاف فحول الشعراء، وأصحاب المكانة الشعرية العالية ، وجعلته ينظر إلى الجزار وغيره نظرة احتقار وازدراء ، وكأنه الوحيد الذي يصول في ساحة الشعر ، ومن هنا ينطق لسان الجزار بالحكمة ،عندما يؤكد أن أشد ما يوجع القلب ويؤلمه أن ترى إنساناً عظيماً رفيع القدر يعيش في حالة من الذل والازدراء، وإنساناً وضيعاً كالبرجي يعيش في عزة وكرامة، فالموازين قد انقلبت لترفع الوضيع إلى مكانة ليست من حقه ، وتنزل العزيز إلى الحضيض ، لا لشيء إلا لأنه عزيز النفس ، ولمّا كان ذلك كذلك ، فالجزار يستعد لمواجهة البرجي ، وتحديه، عندما يطلب منه الاستعداد لتلقي كل ضربات الهجاء ، حتى يعريه ، ويكشفه أمام الناس على حقيقته الكاذبة المخادعة،ولم يجد الجزار ما يعبر به عن شدة الخصام والمواجهة بينه وبين البرجي أجمل مما يعبر عنه المثل القائل " هذا أوان الشد فاشتدي زِيَم" (١) ليعلنها حرباً شاملة على البرجي الذي حاول تهميشه والتقليل من شأنه، يقول في ذلك:

٩٢. قُلْ يَا سَخِيفُ : بِمَ ادّعيت بَسَالَةً وَجَعَلْتَ نَفْسَكَ مُرْتَقَى الجَوْزَاءِ
٩٣. وإِذَا عَدَا فِي الشَّيْءِ مَرَّةً طَوْرَهُ فَبِمَ ادّعَاؤُك عِزَّةَ القَعْسَاءِ
٩٤. وَإِذَا عَدَا فِي الشَّيْءِ مَرَّةً طَوْرَهُ دَبَّتْ إِلَيهِ عَقَارِبُ البَغْضَاءِ
٩٥. شَيْئَانِ مَا فِي الأَرْضِ أَوْجَعُ مِنْهُمَا ذُلُّ الرَّفِيعِ وعِزَّةُ الوُضَعَاءِ
٩٦. أَشْهِرْ حُسَامَكَ يَا عَلِيُّ مُكَافِحاً فَضَحَ الشُّجَاعُ ضَمَائِرَ الجُبَنَاءِ

---

(1) الميداني. **مجمع الأمثال** ، ، ج٣، رقم ٣٠٦٤ ، ص ٣٤.

٩٧. هَـــذا أوَانُ الـــشّدِّ فَـــابْرزْ مُقْـــدِماً   حَتَّـــى تَـــرَى مَـــنْ فَـــارِسُ الهَيْجَـــاءِ

هذه مجمل المعاني التي عبر عنها الجزار في قصيدته ، وتدور حول محـورين رئيـسين أولهما :الفخر بنفسه وبشاعريته والدفاع عنهما بكل ما أوتي من براعة، وفصاحة ،وثقافة دينيـة وأدبية ، وتلاعب بالألفاظ ، واستخدام الأساليب المتنوعة ، وثانيهما نقد البرجي والتعـريض بـه ووصفه بكل صفة وضيعة ، ومسخ صورته المشرقة التي رسمها لنفسه .

ولتسليط الضوء على هذين المحورين استخدم الجزار جميع الأساليب البلاغية والمحسنات اللفظية، وصاغها صياغة متينة بأسلوب النقائض التي تعتمد أسلوب الهـدم والبنـاء، وتجريـد المهجو من كل فضيلة، وإلباسه رداء كل رذيلة ، بأسلوب ساخر مضحك، وبلغة سهلة مفهومـة وبعيدة عن كل تعقيد. ولإخراج معاني القصيدة لتؤدي الغرض الذي يريده الجزار بطريقة مؤثرة وفاعلة، فقد حشد فيها من الخصائص الفنية اللغوية والأسلوبية، ما جعلها قطعـة فنيـة جميلـة زاخرة بالتعبيرات الموحية ، والصور الجميلة، فقد ضمن الجزار في قصيدته المعـاني الدينيـة المقتبسة من القرآن الكريم لدعم وتأييد أحكامه التي أطلقها على البرجي ، أو الدفاع عن نفـسه، كما ضمنها الأشعار والأمثال العربية للهدف نفسه ولشحنها بالحيوية والنشاط والتألق.

تأثر الجزار بالمعاني والألفاظ القرآنية في مواقف عدة ، فضمنها أبياته لتـسليط الـضوء على ما يريد قوله وتأكيده، ففي مطلع القصيدة، يقول:

١ . بَـــرِحَ الخَفَـــاءُ فَـــلاتَ حِـــيْنَ خَفَـــاءِ   فَـــاجهَر فَبِـــئْسَ الثَّـــوبُ ثَـــوبُ رِيَـــاءِ

فقد استعار الشاعر عبارته " فلات حين خفاء" من قوله تعالى ﴿ كم أهلكنا من قـبلهم مـن قرن فنادوا ولات حين مناص ﴾ [١] .

وفي البيت الرابع :

٤ . رُؤْيَا تَرَاءَى ضِـغْثُهَا لَـكَ فِـي الكَـرَى   فَحَـسِبْتَ نَفْـسَكَ مَوْضِـعاً لِهِجَـاءِ

ففيه اقتباس إشاري من قوله تعالى : ﴿ قالوا أضغاث أحلام وما نحـن بتأويـل الأحـلام بعالمين ﴾ [٢] ومن قوله تعالى : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنـا بآيـة كما أرسل الأولون ﴾ [٣] .

---

(1) سورة ص ، آية (٣) .

(2) سورة يوسف ، آية (٤٤) .

(3) سورة الأنبياء ، آية (٥) .

وفي البيت (٤١) :

٤١ . أَتَقُولُ لِي : لَوْ كُنْتَ تَعْقِلُ لَمْ تُطِعْ كُلَّ امْرِئٍ بِنَمِيمَةٍ مَشَّاءِ

فقد ضمن عجز هذا البيت ما جاء في قوله تعالى : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ۞ هماز مشاء بنميم ﴾ (١)

وفي البيت (٦٦) :

٦٦ .أَوَلَيْسَ مُوسَى قَدْ تَوَخَّى قَرْيَةً مُسْتَطْعِماً فَأَبَتْ بِكُلِّ إِبَاءِ

أشار الجزار إلى ما جاء في قوله تعالى، في قصّة سيدنا موسى عليه السلام مع العبد الصالح ، عندما دخلا القرية فاستطعما أهلها فأبوا ، ﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما ۞ فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه ۞ قال لو شئت لاتّخذت عليه أجرا ﴾ (٢)

و في البيت (٧٣) :

٧٣ . وَأَبُوكَ قَارُونُ الغِنَى فِي خِفِّهِ مَا أَكْفَرَ الإِنْسَانَ بِالنَّعْمَاءِ

فقد أشار الجزار في عجز البيت إلى قوله تعالى ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ (٣) وفي صدره إشار إلى قصة قارون التي وردت في القرآن الكريم.(٤)

و في البيت (٨٥) :

٨٥ . تَنْهَى عَنِ السَّبِ الَّذِي قَدْ جِئْتَهُ وَتَرَاهُ فِعْلَ الرَّعْنِ وَالضُعَفَاءِ

ففيه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ (٥) و قوله تعالى : ﴿ يا أيها اللذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ (٦) .

---

(1) سورة القلم . الآية (١٠ – ١١)

(2) سورة الكهف . آية (٧٧)

(3) سورة عبس آية (١٧) .

(4) سورة القصص. الآيات ٧٦ـــ ٨٢.

(5) سورة البقرة . آية (١٧) .

(6) سورة الصف . آية (٢) .

وفي البيت (٨٦) :

٨٦ . كَمُحَــرِّمٍ مَــا يَــسْتَحِلُّ لِنَفْــسِهِ   هَـــذَا أَدَلُّ دَلائِـــلِ الــــسُّخَفَاءِ

أشار في صدر البيت إلى قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ [١]

أمّا تضمين الشعر فقد حفلت القصيدة به ، خصوصاً ما جاء في قصيدة البرجي في ألفاظه ومعانيه ، فقد أورد الجزار كثيراً مما جاء في هذه القصيدة التي يهجو الجزارَ بها ، لتفنيد ادعاءاته وردها عليه ، فمما قاله البرجي وضمنه الجزار في قصيدته ما جاء في البيت الثالث من قصيدة البرجي[٢] :

فِــي الهَجْــوِ رِفْعَــةُ كُــلِّ مَــرْءٍ سَــاقِطٍ   وَالغَــبْنُ فِــي سَــفَهٍ عَلَــى الــسُّفَهَاءِ

أخذه الجزار في قوله : البيت (١٢)

١٢ . إِنْ كَــانَ رِفْعَــةُ كُــلِّ مَــرْءٍ سَــاقِطٍ   فِــي هَجْــوِهِ فَهُنَــاكَ جَــزْلُ هِجَــاءِ

وقول البرجي في البيت (٤) :

إِنْ كُنْــتَ تَبْغِــي أَنْ تُنَاسِــبَنِي اسْــتَعِرْ   نَــسَبَاً أُجِبْــكَ فَلَــسْتَ لِــي بِكِفَــاءِ

أخذه الجزار للرد عليه والسخرية منه فيقول : البيت (١٣)

١٣ . بِمَ تَعْتَلِي حَتَّــى تَقُــولَ لِــيَ اسْــتَعِرْ   نَــسَبَاً أُجِبْــكَ : فَلَــسْتَ لِــي بِكِفَــاءِ

وقول البرجي في البيت (٥) :

أَعَلَــيَّ يَــا عَيْــرَاً خُــصُوصَاً تَجْتَــرِي   وَالأُسْــدُ قَــدْ هَابَــتْ كَرِيــهَ لِقَــائِي

أخذه الجزار في قوله : البيت (٢٢)

٢٢ . وَوَصَفْتِ نَفْــسَكَ قَــاتِلاً .... [٣]   وَالأُسْــدُ قَــدْ هَابَــتْ كَرِيــهَ لِقَــائِي

وقول البرجي في البيت (٦) :

يَــا لَيْــتَ شِــعْرِي مَــا الَّــذِي أَغْــرَاكَ بِــي ؟   أَأَمِنْــتَ مِــنْ بَطْــشِي وَمِــنْ غُلَــوَائِي

---

(1) سورة التحريم. آية (١)

(2) انظر قصيدة البرجي، ديوان الجزار السرقسطي، ص٩٩ ــ ١٠٤.

(3) هكذا ورد الفراغ في الديوان ، وعلل محققه ذلك بأن الشاعر أسقط تفعيلة العروض ، وذلك أبلغ في الدلالة على الاستخفاف بوصف البرجي نفسه .

أخذه الجزار ليوجه من خلال معناه أقسى الهجاء فيقول : البيت (٢٥)

٢٥ . وَعَطَفْتَ تَدْعُونِي بِقَوْلِكَ مُفْصِحاً ألْمِنْتَ مِنْ بَطْشِي وَمِنْ غُلَوَائِي

وقول البرجي : البيت (١٠)

لَوْ كُنْتَ تَعْقِلُ لَمْ تُطِعْ كُلَّ امْرِئٍ مُتَزَنِّمٍ بِنَمِيمَةٍ مَشَّاءِ

أخذه الجزار للرد عليه في البيت (٤١) :

٤١ . أتَقُولُ لِي : لَوْ كُنْتَ تَعْقِلُ لَمْ تُطِعْ كُلَّ امْرِئٍ بِنَمِيمَةٍ مَشَّاءِ

و قول البرجي في البيت (١٥) :

وَزَعَمْتَ أنَّكَ فِي القَرِيضِ مُسَاجِلِي هَلْ قِيسَتِ الدَّأمَاءُ بِالأحْسَاءِ

رد عليه الجزار في البيت (٥٤) :

٥٤ . حَتَّى تَقُولَ مُصَرِّحاً وَمُلَجْلِجاً "هَلْ قِيسَتِ الدَّامَاءُ بِالأحْسَاءِ"

وقول البرجي : البيت (١٧)

إنَّ القَوَافِي لَوْ أرَدْتَ مِلاكَهَا مَا صَارَتِ الاّ تَحْتَ ظِلِّ لِوَائِي

رد الجزار عليه للسخرية منه في البيت (٥٨) :

٥٨ . وَتَقُولُ : لَوْ شِئْتُ القَوَافِي لَمْ تَكُنْ إلا مِلاكَاً تَحْتَ ظِلِّ لِوَائِي

و قول البرجي البيت (١٨) :

لَكِنَّنِي أرْضَى الكَفَافَ فَلا أرَى مُستَجْدِيَ الأمَرَاءِ وَالوُزَرَاءِ

أخذه الجزار للحط من شأنه فيقول : البيت (٦٠)

٦٠ . نَزَّهْتَ هِمَّتَكَ الوَضِيعَةَ أنْ تُرَى مُستَجْدِيَ الأمَرَاءِ وَالوُزَرَاءِ

و قول البرجي : البيت (١٩)

لَيْسَ الغِنَى بِالمَالِ يَجْمَعُهُ الفَتَى خَيْرُ الغِنَى عِنْدِي غِنَى الحُوبَاءِ (١)

رد عليه الجزار ساخراً ومعرضاً : البيت (٧٤)

٧٤. وَإذَا حَوَتْ يَدُكَ الكَفَافَ وَتَشْتَكِي عُدْماً فَأيْنَ إذاً غِنَى الحُوبَاءِ

(1) الحوباء : النفس .

وقول البرجي البيت (٢٨) :

إنْ كَـــانَ أخّرَنِـــي زَمَـــانٌ جِئْتُـــهُ   بَـــدْءُ التَّفَكُّـــرِ آخِـــرُ الأَنْـــسَاءِ

أخذه الجزار للرد عليه : البيت (٧٨)

٧٨ . فَجَعَلْـــتَ تُفْـــصِحُ قَـــائِلاً مُتَزَنْـــدِقًا: " بَـــدْءُ التَّفَكُّـــرِ آخِـــرُ الأَنْـــسَاءِ"

وبالإضافة إلى ما أخذه الجزار من ألفاظ البرجي ومعانيه ، فقد ضمن هذه القصيدة بعض المعاني والألفاظ التي جاء بها شعراء آخرون .فالبيت (١١) من قصيدة الجزّار :

مَـــن يَخْطُـــبِ الحَـــسنَاءَ يُغْـــلِ مَهرَهـــا   إنَّ الحِـــسَانَ فَـــوَاركُ الـــبُخَلاءِ

أخذه من قول أبي فراس الحمداني (1): و هو من الطويل (٢)

تَهُـــونُ عَلَيْنَـــا فِـــي المَعَـــالِي نُفُوسُـــنَا   وَمَنْ يَخْطُـــبِ الحَـــسنَاءَ لَـــمْ يُغْلِهَـــا المَهْـــرُ

والبيت (١٥) من القصيدة :

وَمِـــنَ العَجَائِـــبِ والعَجَائِـــبُ جمَّـــةٌ   أنْ تَـــسْخَرَ القَرعَـــاءُ بالفَرعَـــاءِ

فقد أخذ الجزار صدر البيت كاملاً من قول أبي مروان الجزيري (٣) الذي يقول فيه:(٤) وهو من الكامل :

"وَمِـــنَ العَجَائِـــبِ وَالعَجَائِـــبُ جَمَّـــةٌ   أنْ يَلْهَـــجَ الأَعْمَـــى بعَيْـــبِ الأَعْـــوَرِ"

وضمّن الجزار قصيدته هذه بعض الأمثال العربية ، فالمثل العربي : " كل إناء يرشح بما فيه " ويروى ينضح بما فيه " (٥)، ضمنه الجزار البيت الثالث في قوله :

---

(1) هو الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربيعي اشتهر بكنية (أبي فراس) و هو ابن عم سيف الدولة الحمداني ، أمير دولة بني حمدان المعروفة بحلب ، أسر سنة ٣٥١ هـ ، ثم فداه سيف الدولة ، مات مقتولاً سنة ٣٥٧ هـ . انظر : الحمداني ، أبو فراس **الديوان** ، تح : إبراهيم السامرائي ، المقدمة .

(2)الحمداني ، أبو فراس **الديوان** ، تح : إبراهيم السامرائي ، دار الفكر ، عمّان ، ط١ ، ١٩٨٣ ، ص ٦٦ .

(3)هو أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري ، أحد شعراء المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر ، وهو معدود من كبار شعراء عصره وأدبائهم ، توفي مقتولاً سنة ٣٩٤ هـ ، انظر : ابن الأبار . **الحلة السيراء**، ج١ ، ص ٣٦٦ ، **مطمح الأنفس** ، ص ١٧٧

(4)الجزيري ، أبو مروان عبدالملك بن إدريس. **قصيدة أبي مروان في الآداب والسنة**، تح: هلال ناجي، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، ط١، ١٩٩٤، البيت ١٥٥، ص٦١.

(5)الميداني . **مجمع الأمثال** ، ج٣، رقم ٣١٥٩، ص ٥٨.

٣ . إنْ تُجْزِنَـــا بِالعَتْــبِ ذَمّـــاً فَاحِـــشاً فَبِمَـــا حَـــوَاهُ رَشْـــحُ كُـــلِّ إِنَـــاءِ

والمثل العربي: كالمستغيث من الرّمضاء بالنار(١) أخذه الجزار وضمنه في البيت (١٩) :

١٩ . وَغَدَوتُ مِـنْ عَتْبِـي بِـهِ مُـسْتَبْدِلاً كَمُعَـوِّضٍ نَـاراً مِـنَ الرَّمْـضَاءِ

أما المثل العربي : " هذا أوان الشد فاشتدي زيم " (٢)، فقد أخذه الجزار وضمنه في آخر بيت في القصيدة (٩٧) ليعلنها حرباً ضروساً على البرجي فيقول :

هَـذا أَوَانُ الـشَدِّ فَـابْرِزْ مُقْـدِماً حَتَّـى تَـرَى مَـنْ فَـارِسُ الهَيْجَـاءِ

أضفى الجزار على قصيدته القوة والجمال ، بما استخدمه مـن صـور ذهنيـة جميلـة ، مستغلاً موهبته الشعرية ، وقدرته اللغوية ، وثقافته المتنوعة ، فاستخدم الكنايـة لتأديـة بعـض الوظائف الجمالية والفنية ،لما لها قدرة على إبراز المعاني العقلية (غير المحسوسة) في صورة المحسوسات ، فتكشف عن معانيها وتوضحها وتثير عنصر الإعجاب الـذي لا تـستطيع اللغـة العادية المباشرة أن تؤديه أو تأتي به .

فمن الكنايات الطريفة التي استخدمها الجزار ما جاء في البيت (١٤) فـي معـرض رده على ادعاء البرجي ، بتميزه وتفرده ، وبأن الجزار ليس من أكفائه فيقول :

١٤ . اخْسَأْ عَلِيُّ فَلَـيْسَ كُفْـؤُكَ غَيْـرَ مَـا يَجْـرِي مِـعَ الأَعْقَـاجِ وَالأَمْعَـاءِ

فقد كنى عن انحطاط مكانته ، وضعف شاعريته ، ونفاقـه ، وخبثـه ،وقبـيح صـفاته ، بمخلفات الطعام والقاذورات التي تجري في الأمعاء، فعبر عن المعاني غير المستحسنة بألفاظ لا تعافها الأذواق ، ولا تمجها الآذان ، وهذا الأسلوب يضفي على المعنى جمالاً، ويزيـده قـوةً ، ويحرك الذهن، ويمده بالمتعة والبهجة والإعجاب.

وفي البيت (١٥):

١٥ .ومِـنَ العَجائِـبِ والعَجائِـبُ جمَّـةٌ أن تَـسْخَرَ القَرعَـاءُ بالفَرعَـاءِ

فقد كنى عن البون الشاسع في المكانة الأدبية ، والجودة الشعرية، والثقافة المتنوعة بينـه وبين الفقيه البرجي بالقرعاء التي تساقط شعرها لمرض أو لغيره، وذهـب جمالهـا واختفـى ،

---

(1) الميداني، **مجمع الأمثال**، ج٢ رقم ٣٠٦٤، ص ٣٤.

(2) الميداني. **مجمع الأمثال** ، رقم ٤٥٢٠، ص ٤٧٦.

والفرعاء غزيرة الشعر، جميلة المنظر، مما يوحي بسعة خياله ، وقدرته على التلاعب بالألفاظ التي وظفها للتعبير عن المعنى الذي يجول في خاطره ، والفكرة التي يود إيصالها للبرجي وغيره.

وفي البيت(٣٨):

٣٨ .فُرْسَانُ قَوْلِكَ خَيْلُهَا مُنَكَّبَةٌ تَكْبُو إِذَا ذَهَبَتْ إِلَى التَّعْدَاءِ

فقد كنى عن قلة خبرة البرجي في نظم الشعر ، والهذيان بشعر غير ناضج يفتقر إلى الأصول المرعية في نظم الشعر ، ويتخلف عن الشعر الراقي ولا يجاريه ، بالخيول المريضة التي تقع على وجهها ، وتخذل صاحبها إذا ما شاركت في سباق للخيول ، فلجوء الشاعر إلى الكناية هنا شحذ عقل المتلقي ، وحركه إلى المعنى الذي يريده .

وفي البيت (٤٠) :

٤٠ . وَحُسَامُكَ العَضَبُ الطَّرِيرُ قَدْ فَلَّهُ فالُوذُ حَدِّ ذَكَاءِ

فقد جاء الجزار بكنايتين جميلتين ، ليعقد مقارنه بينه وبين البرجي ، ففي الأولى: كنّى عن لسان البرجي الفصيح الحاد (كما يدعي) الذي لا يصمد أمامه شاعر ، بالحسام العضب ، وكنى عن فصاحة لسانه وقوّة شعره الذي لا يجاريه فيه مجار إلا بزّه بالفالوذ القوي الصلب الذي لا يماثله أي معدن آخر، فمهما اعتقد البرجي أنه شاعر عظيم ، إلا أنّه لا شيء أمام الجزّار وشعره .

وفي البيت (٥٥) :

٥٥ . إِطْفَاءُ أَنْوَارِي تَرُومُ وَدُونَ مَا قَدْ رُمْتَهُ إِطْفَاءُ نُورِ ذَكَاءِ

فقد كنى عن محاولة البرجي تشويه صورة الجزار ، والحط من مكانته الشعرية ، وتحويل الأنظار عنه بإطفاء الأنوار التي تخفي الأشياء ،وتبعد الأبصار عنها ، وهذه الصورة الجميلة مستوحاة من القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره و لو كره الكافرون ﴾ [1] .

وفي البيت (٧٥) :

٧٥ . أَجْرَيْتُ فِي مَلأٍ سَوَابِقَ مَنْطِقِي فَشَأَوْتُ فِي مَلأٍ بِهَا وَخَلاءِ

---

(١) سورة الصف، آية ٨.

فقد كنى الجزار عن شهرته ومقدرته الشعرية ، ومكانته بين شعراء عصره ، بل والتفوق عليهم ، بالخيل الأصيلة التي تتفوق على سواها في ميدان السّباق .

وفي البيت (٢٩) :

٢٩ . هَــلْ رُمْحُــكَ المَهْمُــوزُ إلا إبْــرَةٌ   أمِــنَ الطَّعِــينُ بِهَــا مِــنَ الإدْمَــاءِ

فقد كنى عن لسان البرجي الذي امتدّ ليطال الجزار بالهجاء ، بالرمح الهش ، الضعيف الذي لا يؤثر فيمن يطعن به ، وهذا كله كناية عن قلة تأثير هجاء البرجي للجزار .

وفي البيت (٥٧) :

٥٧ . أبَبَهْــرَجٍ زَيْــفٍ تُنَــاقِضُ عَسْجَدَاً   شَــتَّانَ بَــيْنَ غَيَاهِــبٍ وَضِيَــاءِ

فقد كنى عن مكانته ومنزلته الشعرية الرفيعة بالعسجد (الذهب) وكنى عن منزلة البرجي بالدراهم الزائفة (البهرج) التي لا قيمة لها مقارنة بالذهب ، فالفرق بينهما كالفرق بين الضياء و الظلام .

فبهذا الكلام المكنى استطاع الجزار أن يشحن فكر السامع والمتلقي ، ليحلق في تفكيره ، للوصول إلى ما يرمي إليه، لما لهذه الصور من بريق أخّاذ يثير الإعجاب والدّهشة .

أما التشبيه والاستعارة ، فلم يعتمد عليهما كثيراً في إبراز معانيه ، فكان مقلاً في ذلك ، فمن التشبيهات التي وردت في القصيدة ، ما جاء في البيت (٨١) :

٨١ . وَرَفَعْتَ عَــنْ وَجْهِــي الحَيَــاءَ وَإنَّــهُ   لَمُلاءَتِــي بَــيْنَ الــوَرَى وَرِدَائِــي

فقد شبه الحياء الذي يحفظ ماء وجهه ، ويجعل له احتراماً وتقديراً، بالرداء الذي يحفظ عورته بين الناس .

وفي البيت (٣٢) :

٣٢ . وَأرَاكَ يَــا عُــصْفُورُ تُوعِــدُ بَازِيَــاً   بِمَخَالِــبٍ لَيْــسَتْ بِــذَاتِ مَــضَاءِ

فقد شبه البرجي بالعصفور،بجامع الضعف،وعدم القدرةعلى مواجهة البازي (الجزار) ومقاومته

وفي البيت (٥٣) :

٥٣ . يَا أيُّهَــا التَّــيْسُ المُجَمِّــرُ قُــلْ : مَتَــى   حُــزْتَ الــسَّبَاقَ بِحَلْبَــةِ الفُــصَحَاءِ

فقد شبه البرجيَّ بالتيس المريض الذي لا يقوى على مجاراة الآخرين ، فضلاً عن الفوز بحلبة السّباق .

ومن الاستعارات التي جاءت في القصيدة ، ما ورد في البيت (٣١) :

٣١ . أبِـــإبْـــرَةٍ مِـــثْـــلَ الهَـــبَاةِ كَـــسِيرَةٍ تَـــسْـــتَطِـــيعُ قَـــلْعَ الهَـــضْـــبَـــةِ الصَـــمَّـــاءِ

فقد شبه الجزار نفسه بالهضبة الصمّاء التي لا تكترث بما يجري حولها ، ولا تتأثر بمن يحاول التأثير على ثباتها وقوتها ،على سبيل الاستعارة التصريحية .

وفي البيت (٧) :

٧ .ولِعِلَّـــةِ عِفَّـــتُ الهِجَـــاءَ ورُبَّمـــا حَمَـــتِ المَـــوَارِدَ كَثْـــرَةُ الاقْـــذَاءِ

فقد شبه كثرة الأقذاء عند منابع الموارد ، بالجنود أو الفرسان الذين يحمون الحمى ، ويمنعون الآخرين من الاقتراب إليه على سبيل الاستعارة المكنية ، وهو هنا يعرض بالبرجي ، وما يحمله من صفات سيئة تحمل الجزار على التعفف عن هجائه ، لأنه لم يجد ما يهجوه به .

مالت ألفاظ الجزار في قصيدته هذه إلى القسوة ،والشدة ،والتحامل المبالغ فيه ، فهي كالسهام التي تنهش الجسد ، مخلفة آلاماً نفسيه شديدة في نفس من توجه إليه ، و قد تكون طبيعة الهجاء أو النقد تستدعي استخدام مثل هذه الألفاظ لتؤدي الغرض الذي يدور حوله الشاعر ، ولكن الملاحظ أن الجزار قد بالغ كثيراً في إثراء القصيدة بهذه الألفاظ ، مما يوحي بشدة الحقد والغيظ الذي ران على قلبه ، ولم يعد يرى في صديقه إلا الصورة القبيحة المنفرة التي عمل على تضخيمها ، وإعادة رسمها ، وتشكيلها من جديد ، والخروج بصورة" كاريكاتورية" بعيدة عن واقع شخصية البرجي ، بل أكثر ملامحها من نسج خيال الجزار .

وصف الجزار البرجي بصفات خلقية قبيحة ، الهدف منها الحط من شأنه ، ومكانته كفقيه يدّعي العلم والصلاح والتقوى ، فصورته كما نسجها خيال الجزار : " بخيل ، وسفيه ، وزنديق وذليل ، وضعيف ، وأرعن ، وقليل حياء ، ونمام ، وساقط ، وسخيف ، وقليل فهم ، وجاهل ، وماكر " و لم يكتف بذلك ، بل أورد ألفاظاً بذيئة ، توحي بالقذارة ، و النذالة ، وخسة النفس مثل " الفساء ، يضرط ، قمّل ، خراء ، أقذاء ، ما يجري في الأعفاج و الأمعاء (كناية عن القذارة) الخناء ، النسب والشتم " .

وورد في القصيدة ألفاظ بعض الحيوانات التي اختارها الجزار ليستخلص منها صفات لا تخرج عمّا ورد سابقاً ، بل تؤكده ، لأنها مرتبطة بحيوانات معروفة صفاتها للجميع ، فقد أورد الكلب الذي وصف به البرجي بجامع القذارة والحقارة، والجرو بجامع الجعجعة ، وعلو الصوت

بلا فائدة و تأثير ، والعصفور بجامع الجبن وعدم القدرة على المواجهة ، والعنكبوت بجامع الضعف والوهن ، والتيس بجامع عدم الفهم و الإدراك ، والجدول التالي يوضح الألفاظ القاسية والموجعة والنابية التي استخدمها الجزار سلاحاً في مسخ الصورة الحقيقية الفقيه البرجي :

رقم البيت	الألفاظ	السياق الذي ورد فيه
٢	نوكه،السخف،الخيلا	يا سالحاً في نوكه ، سجرت له بالسخف و الخيلاء
٥	العنين	ما يصنع العنين بالعذراء
٦	أقذر	الكلب أقذر خلقة وخليقة
٧	الأقذاء	حَمَت المَوَاردَ كَثْرَةُ الاقْذَاء
٨	كنيفاً ، بفساء	باهى كَنِيْفَاً مُتْرَعَاً بِفِسَاءِ
٩	السفاح	لَيْسَ السَّفَّاحُ بشيْمَة الكُرَماء
١١	فوارك ، البخلاء	إنَّ الحِسَان فَوَارِكُ البُخَلاءِ
١٢	ساقط	. إن كان رفعة كل مرء ساقط
١٤	اخسأ	اخْسَأْ علَيَّ فليس كُفؤُكَ غير ما
١٤	الأعفاج ، الأمعاء	يَجْرِي مَعَ الأعْفَاج والأمعاء
١٨	البغضاء ، الشحناء	تدعو إلي البغضاء والشَّحناء
٢٠	يضرط	فالعَيْرُ يضرُطُ خيفَةَ الكَوَّاء
٢١	الحضيض	عهدي بقدرك في الحَضيْض
٢٣	ذماً	وكفاك ذماً مدح نفسك
٢٤	استهزاء	آل المديح به إلي استهزاء
٢٧	السفهاء	لا تأخذ الفُضلاءَ بالسُّفهاء
٢٨	قُمّل ، وخراء	طُرَّت بطري قُمّل وخراء
٣٤	سخيف	أَرْعِدْ وأبْرِقْ يا سخيف
٣٤	نباح جراء	فما علَي آساد غَيْل من نُبَاح جراء
٤١	نميمة	لم تطع كل امرئ بنميْمَة مَشّاء

رقم البيت	الألفاظ	السياق الذي ورد فيه
٤٢	فرّاء	مخـــصوص به كل امرئ فرّاء
٤٥	بلا استحياء	طول ادّعائكَهُ بلا استحياء
٤٧	الأقذاء	ومزجت بالأقذاء ماء صفاء
٤٩	الزنديق	الزنديقُ في إرضائه إسقاط ذي الآلاء
٦٠	الوضيعة	نزّهت همّتك الوَضيعة
٦٧	الخناء	يجيءُ في سعيه بخناء
٧١	السفهاء	المحال خلائق السُّفهاء
٧٨	متزندقاً	. فجعلت تفصح قائلاً متزندقاً
٨٢	الجهم ، قليل الماء	في وجهك الجهم القليل الماء
٨٥	السب ، الرعن	تنهى عن السب الذي قد جئتهُ وتراه فعل الرعن والضعفاء
٨٦	السخفاء	هذا أدلّ دلائل السخفاء
٨٨	تخبُّط العشواء	تخبط فيه كالعشواء
٨٩	فهم ، تهذي	ما فيك من فهم يسر وإنّما تهذي عَليٌّ وتدّعي بذكاء
٩٠	قلة العقل	إن كان علمك مثل عقلك ذا فقد
٩٢	سخيف	قُلْ يا سَخيفُ
٩٥	ذل ، الضعفاء	ذُلُّ الرّفيع وعزةُ الوُضَعَاء
٩٦	الجبناء	فَضَحَ الشجاع ضَمَائرَ الجُبَنَاء

ومثلما أغرق الجزار قصيدته بالألفاظ التي توحي بانحطاط البرجي ، فقد أغـــرق الـــنص أيضاً بالأساليب اللغوية ، والمحسنات اللفظية ، فأكثر من أساليب الشرط، والاستفهام ، والنـــداء، وبالغ كثيراً في الطباق، والجناس الاشتقاقي ، والترادف، ورد العجز على الصدر ، وجـــاء كـــل ذلك لخدمة القصيدة ، وقوة بنائها، وإيحائها ، فأسلوب الشرط جاء غالباً للـــرد علـــى البرجـــي ، ونقض ادعاءاته وتكذيبها ، معتمداً في ذلك على قوة الإقناع العقلي الممزوج بالحكمة والأدلـــة ،

من أجل التأثير في المتلقي ، وانحيازه إلى جانبه في مواجهة البرجي ،فمن أساليب الشرط التي وردت في النص ، وهي كثر [1] قوله في البيت (٣) :

٣.إن تُجْزِنـا بالعَتْـبِ ذَمّـاً فَاحِـشاً فَبِمَـا حَـوَاهُ رَشْـحُ كُـلِّ إِنَـاءِ

فالجزار من خلال إيراد المثل " كل إناء بما فيه يرشح" يؤكد الصفات السيئة التي وصف بها الفقيه .

وفي البيت (١٢) يبين تأصل الصفات الدنيئة والساقطة في البرجي فيقول :

١٢ . إنْ كَـانَ رِفْعَـةُ كُـلِّ مَـرْءٍ سَـاقِطٍ فِـي هَجْـوِهِ فَهُنَـاكَ جَـزْلُ هِجَـاءِ

وفي البيت (٢٤) يؤكد نفاق البرجي وكذبه عندما يدعي بصفات ليست فيه ، فيقول :

٢٤ . مَـنْ كَـانَ مَمْـدُوحاً بِغَيْـرِ صِـفَاتِهِ آلَ المَـدِيحُ بِـهِ إلـى اسْـتِهْزَاءِ

وفي البيت (٢٠) يبين جبن البرجي في مواجهة الجزار ، فيقول :

٢٠ . إنْ تَبْـدِ مِـنْ عَتَبِـي عَلَيـكَ تَألُّمَـا فَـالعَيْرُ يَـضْرُطُ خِيفَـةَ الكَـوَّاءِ

وفي البيت (٧٤) يرد ادعاء البرجي بأن الغنى هو غنى النفس فيقول :

٧٤. وَإِذَا حَـوَتْ يَـدَكَ الكَفَـافَ وَتَـشْتَكِي عُـدْماً فَـأَيْنَ إِذاً غِنَـى الحُوبَـاءِ

وفي البيت (٩٠) يسخر الجزار من قلة عقل البرجي وقلة فهمه في علوم الدين، فيقول :

٩٠ . إنْ كَـانَ عِلْمُـكَ مِثْـلَ عَقْلِـكَ ذَا فَقَـدْ أَخْلَيْـتَ نَفْـسَكَ مِـنْ حُلَـى العُلَمَـاءِ

وفي البيت (٩٤) يبين الجزار مدى الحقد الذي يكنه البرجي له ، فيقول :

٩٤. وَإِذَا عَـدَا فِـي الـشَيْءِ مَـرْءٌ طَـوْرَهُ دَبَّـتْ إليـهِ عَقَـارِبُ البَغْـضَاءِ

أما الاستفهام فقد ورد بكثرة في الأبيات [2] لأغراض متعددة ، فمنه للاستفهام، ومنه للاستنكار ، ومنه للتعجب ، ومنه للسخرية والتعريض ومنه للتقرير ، والمتتبع للاستفهام الوارد في الأبيات ، يجد أن الجزار قد استخدمه في تمهيد الطريق للانقضاض على البرجي ، وتبرير

---

(1) انظر الأبيات : ٣ ، ١١ ، ١٢ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٦٤ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٨٠ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٤ .

(2) انظر الأبيات : ١٤ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٤١ ، ٤٦ و ٥١ ، ٥٧ ، ٦٩ .

عنف هجومه عليه ، دون أن يجد لوماً أو عتاباً على ذلك ، ففي أسلوب الاستفهام أبان الجزار عن جميع سقطات البرجي ، وسلوكه المنحرف ، ومن خلالها تحامل عليه ، وصوّب إليه سهام نقده الجارحة ، فقد خرج الاستفهام إلى الاستنكار في البيت (١٣) إذ يقول :

١٣. بِمَ تَعْتَلِي حَتَّى تَقُولَ لِيَ اسْتَعِرْ نَسَبَاً أُجِبْكَ : فَلَسْتَ لِي بِكِفَاءِ

وفي البيت (٥١) يقول :

٥١ . فَعَلامَ تَزْعُمُ أَنَّنِي بِجُحُودِهَا مُغْرَىً أَهَذَا مِنْكَ حَقُّ جَزَائِي

وخرج معناه إلى التقرير ، فيقول في البيت (٢٩) :

٢٩ . هَلْ رُمْحُكَ المَهْمُوزُ إلا إِبْرَةٌ أَمِنَ الطَّعِينُ بِهَا مِنَ الإِدْمَاءِ

وفي البيت (٤٦) يقول :

٤٦ . أَوَلَمْ تَكُنْ عَاقَدْتَنِي أَنْ لا تُرَى أَلْطَافُنَا مَمْزُوجَةً بِجَفَاءِ

وخرج معنى الاستفهام إلى السخرية فيقول في البيت (٣١) :

٣١ . أَبِإِبْرَةٍ مِثْلَ الهَبَاةِ كَسِيرَةٍ تَسْتَطِيعُ قَلْعَ الهَضْبَةِ الصَّمَّاءِ

وخرج المعنى إلى التكثير ، فيقول في البيت (٦٩) :

٦٩ . كَمْ مِنْ فَتَىً هَبَّتْ رَخَاءً رِيحُهُ كَانَتْ عَوَاقِبُهَا إِلَى نَكْبَاءِ

واستخدم الجزار في هذه القصيدة الجناس ، خصوصاً الجناس الاشتقاقي أو المجانس وهو " أن تكون المعاني في الألفاظ متجانسة على جهة الاشتقاق " (1) ويتحقق هذا الجناس عندما تشترك كلمتان في أصلهما الاشتقاقي في الحروف والمعنى ، وليس شرطاً أن تتطابق الحروف مطابقة تامة " (2) والوظيفة التي يؤديها الجناس بشكل عام ، وخاصة المجانس أو الاشتقاقي ، أنه يضفي على القصيدة نغمة ترتاح لها النفس ، وتتفاعل معها ، وجرساً موسيقياً طيب الوقع على السمع . ومن ذلك قول الجزار في البيت (٦) :

٦ . الكَلْبُ أَقْذَرُ خِلْقَةً وَخَلِيقَةً مِنْ أَنْ يَكُونَ مُبَخَّراً بِكُبَاءِ

فجانس بين اسم الهيئة خِلقة و بين خليقة .

---

(1) ابن جعفر ، قدامة . **نقد الشعر** ، تح: عبد المنعم خفاجي ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ١٦٣ .

(2) الشناوي. **الصورة الشعرية عند الأعمى التطيلي** ص ٢٣٥ .

وفي البيت (٢٤) جانس بين اسم المفعول (ممدوح) والمصدر (المديح) فيقول :

٢٤ . مَـنْ كَـانَ مَمْـدُوحاً بِغَيْـرِ صِـفَاتِهِ   آلَ المَـديحُ بِـهِ إلـى اسْـتِهْزَاءِ

وفي البيت (٤٥) جانس بين الفعل (استحيي) ومصدره (استحياء) ، فيقول :

٤٥ . إنِّـي لأَسْـتَحْيِي وَأَيْـمَ اللهِ مِـنْ   طُـولِ ادِّعَائِكَـهُ بِـلا اسْـتِحْيَاءِ

وفي البيت (٦٧) جانس بين اسم الفاعل (ساعياً) والمصدر (سعيه) فيقول :

٦٧ . لا عَـارَ يَلْحَـقُ سَـاعِياً فِـي عَيْـشِهِ   مَـا لَـمْ يَجِـيءْ فِـي سَـعْيِهِ بِخَنَـاءِ

وفي البيت (٨٠) جانس بين المصدر (فهم) وجمعه (فهماء) فيقول :

٨٠ . وَلَـوِ الزَّمَـانُ جَـرَى بِفَهْمِـكَ أَوْلاَ   مَـا جِئْـتَ إلاّ آخِـرَ الفُهَمَـاءِ

وفي البيت (٨٦) جانس بين اسم التفضيل (أدلّ) وجمع دليل (دلائل) فيقول :

٨٦ . كَمُحَـرِّمٍ مَـا يَـسْتَحِلُّ لِنَفْـسِهِ   هَـذَا أَدَلُّ دَلائِـلِ الـسُّخَفَاءِ

وفي البيت (٦٣) جانس بين المصدر (عزّة) واسم المفعول ، (معتز) فيقول :

٦٣ . لَـمْ تُبْـدِ هِمَّـةَ عِـزَّةٍ لَكِنَّمَـا   أَغْرَبْـتَ مُعْتَـزّاً عَـنِ اسْـتِخْذَاءِ

وهناك أبيات أخرى ظهر فيها هذا النوع من الجناس [1]

وأسرف الجزار في استخدام الطباق [2] والترادف ، لتأكيد المعاني التي أراد إبرازها ، وللمقارنة بينه وبين البرجي ، ومن خلالهما تظهر براعة الجزار اللغوية في كثرة استحضار المفردة وضدها ، فمن الطباق ما ورد في البيت (١٥) ، إذ يقول :

وَمِـنَ العَجَائِـبِ والعَجَائِـبُ جَمَّـةٌ   أَنْ تَـسْخَرَ القَرْعَـاءُ بِالفَرْعَـاءِ

حيث طابق بين الفرعاء والقرعاء ، لبيان قوته الشعرية مقابل ضعف شعرية البرجي .

وفي البيت (٢١) طابق بين الحضيض والعلياء، لتأكيد ضعف منزلة البرجي وما يطمح إليه ، يقول :

٢١ . عَهْدِي بِقَـدْرِكَ فِـي الحَـضِيضِ مُبَـوّأً   وَلَقَـدْ أَرَاكَ طَمِحْـتَ لِلعَلْيَـاءِ

وفي البيت (٤٩) طابق بين إسخاط وإرضاء ، يقول:

---

(1) انظر الأبيات : ٤ ، ٣٨ ، ٤٩ ، ٦٥ ، ٦٦ .

(2) انظر الأبيات : ١٥ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٦٨ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٩١ ، ٩٥ ، ٩٦ .

٤٩ . وَأَرَدْتَ أَنْ أُرْضِيكَ وَالزِّنْديقُ فِي إِرْضَائِهِ إِسْخَاطُ ذِي الآلاءِ

وفي البيت (٢٧) طابق بين الفضلاء والسفهاء ، يقول :

٢٧ . خُذْ مَنْ أَسَاءَ بِذَنْبِهِ وَبِجُرْمِهِ لا تَأْخُذِ الفُضَلاءَ بِالسُّفَهَاءِ

وفي البيت (٦٨) طابق بين الشدة والرّخاء ، يقول :

٦٨ . لا تَغْتَرِرْنَ بِرَخَاءِ بَالِكَ وَالغِنَى فَالدَّهْرُ يَمْزِجُ شِدَّةً بِرَخَاءِ

وفي البيت (٥٧) فطابق بين غياهب وضياء ، يقول :

٥٧ . أَبِبَهْرَجٍ زَيْفٍ تُنَاقِضُ عَسْجَدَاً شَتَّانَ بَيْنَ غَيَاهِبٍ وَضِيَاءِ

وفي البيت (٧٧) طابق بين زينت، وعابه . يقول :

٧٧ . زَيَّنْتَ مَا قَدْ عَابَهُ ابْنُ قَمِيئَةٍ مِمَّا نَفَتْهُ شِرْعَةُ الحُنَفَاءِ

وفي البيت (٩٦) طابق بين الشجاع والجبان ، يقول :

أَشْهِرْ حُسَامَكَ يَا عَلِيُّ مُكَافِحَاً فَضَحَ الشجَاعِ ضَمَائِرَ الجُبَنَاءِ

وفي البيت (٩٥) أورد المقابلة الجميلة في عجز البيت : ذل الرفيع، وعزّة الوضعاء.يقول :

شَيْئَانِ مَا فِي الأَرْضِ أَوْجَعُ مِنْهُمَا ذُلُّ الرَّفِيعِ وَعِزَّةُ الوُضَعَاءِ

ومن الترادف ما جاء في البيت (١٨) فقد جاء بالبغضاء ، ومرادفها الشحناء ، يقول :

١٨ ، فَعَلامَ قَارَضْتَ العِتَابَ بِجَفْوَةٍ تَدْعُو إِلَى البَغْضَاءِ وَالشَّحْنَاءِ

وفي البيت (٢٧) : فقد جاء بذنبه ومرادفها بجرمه ، يقول:

٢٧ . خُذْ مَنْ أَسَاءَ بِذَنْبِهِ وَبِجُرْمِهِ لا تَأْخُذِ الفُضَلاءَ بِالسُّفَهَاءِ

وفي البيت (٥٢) جاء بـ مناقباً ومرادفها مآثراً ، يقول :

٥٢ . لله تِلْكَ مَنَاقِبَاً وَمَآثِرَاً فَلَقَدْ أَقَرَّتْ أَعْيُنَ الأَعْدَاءِ

وفي البيت (٨١) حيث جاء بملاءتي ، ومرادفها ردائي ، يقول :

٨١ . وَرَفَعْتَ عَنْ وَجْهِي الحَيَاءَ وَإِنَّهُ   لَمُلاءَتِي بَيْنَ الوَرَى وَرِدَائِي

وفي البيت (٨٨) جاء بالنقد ، ومرادفها النقض، يقول :

٨٨ . تَسْمُو إِلَى نَقْدِ القَرِيضِ وَنَقْضِهِ   وَأَرَاكَ تَخْبِطُ فِيهِ كَالعَشْوَاءِ

ومن المحسنات اللفظية التي استخدمها الجزار في هذه القصيدة ، التكرار ، ويكون بتكرار لفظة أكثر من مرّة بدلالات مختلفة ، أي بإعطاء معنى مجازياً جديداً للفظة ، يفهم من خلال السياق والظرف الذي قيلت فيه ، وأهم وظيفة للتكرار أنه " يحدث إيقاعاً موسيقياً ، يجذب السامع معه إلى فائدة معينه لا تتحقق إلاّ به " (1) " ويعطي الشاعر القدرة على التنويع في المعاني ، واستخدامها في صور مختلفة ومتعددة " (2) ومن التكرار الذي ورد في قصيدة الجزار ما جاء في البيت (٩) فقد استخدم لفظة السفاح مرّة استخداماً مجازياً ، وفي الثانية استخداماً حقيقياً .

خُذْ مَهْرَ بِكْرِكَ لا أُحِبُّ سِفَاحَهَا   لَيْسَ السِّفَاحُ بِشِيمَةِ الكُرَمَاءِ

وفي البيت (٢٦) استخدم لفظ الجلالة (الله) الأولى على سبيل الإعجاب والدهشة والسخرية من البرجي، وفي الثانية على سبيل طلب الرحمة والرأفة ، وفيها السخرية والتهكم، يقول:

٢٦ . اللهَ يَا لَيْثَ العَرِينِ المُتَّقَى   اللهَ فِي دَمِ فِتْيَةٍ بُرَآءِ

وفي البيت (٥٥) أكثر من استخدام التكرار، فلفظة (إطفاء أنوار) الأولى استخدمها للتعبير عن محاولة البرجي في تشويه صورته، وفي الثانية استخدمها للتعبير عن مكانة الجزار،ومقدرته الشعرية التي يعجز البرجي عن النيل منها، يقول :

٥٥ . إِطْفَاءُ أَنْوَارِي تَرُومُ وَدُونَ مَا   قَدْ رُمْتَهُ إِطْفَاءُ نُورِ ذَكَاءِ

وفي البيت (٧١) استخدم لفظة (مِحال) الأولى للتعبير عن الجدب ، وقلة الفائدة منها ، وضعفها ، بينما استخدم كلمة (مِحال) الثانية بمعنى المكر والخداع ، يقول :

٧١ . نَزَعَاتُ شِعْرِكَ فِي مِحَالٍ كُلُّهَا   وَكَذَا المِحَالُ خَلائِقُ السُّفَهَاءِ

---

(1) دعدور ، أشرف علي،الصورة الفنية في شعر ابن دراج القسطلي الأندلسي ،مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص ٢٢٤ .

(2) دعدور. الصورة الفنية في شعر ابن دراج، ص ٢٢٩ .

وفي البيت (٧٥) استخدم لفظة (ملأ) استخداماً حقيقياً بمعنى جماعة من الشعراء ، واستخدم الثانية استخداماً مجازياً يقول :

٧٥ . أجْرَيْتُ فِي مَلأٍ سَوَابِقَ مَنْطِقِي فَشَأَوْتُ فِي مَلأٍ بِهَا وَخَلاءِ

لجأ الجزار في هذه القصيدة إلى استخدام أسلوب الهجاء بما يشبه المدح ، أو الهجاء في معرض المدح، والهدف من هذا الأسلوب: التعريض بالمهجو والسخرية منه ، والحط من شانه ، فالجزار عندما أراد ذم البرجي والسخرية منه ، خاطبه بما يظهر فيه المدح ، ففي البيت (٢٦) جاء في صدر البيت سخرية وتهكم مع أن ظاهره يوحي بالمديح ، يقول :

٢٦ . اللهَ يَا لَيْثَ العَرِينِ المُتَّقَى اللهَ فِي دَمِ فِتْيَةٍ بُرَآءِ

وفي البيت (٥٩) ظاهر البيت يوحي بالمديح والإطراء والاستحسان ،مع أنه يخفي في مفرداته تهكماً وسخرية وتعريضاً . يقول :

٥٩ . أحْسَنْتَ يَا رَبَّ اللِّوَاءِ المُرْتَقِي بِفَخَارِهِ لِمَرَاتِبِ الزُّعَمَاءِ

وفي البيت (٦١) شبه الجزارُ البرجيَّ بكبار شعراء الجاهلية همة وشاعرية، ولكنه لم يقصد بذلك مدحه بقدر ما أراد السخرية منه . يقول :

٦١ . قُلْ أنْتَ مَعْنٌ بنُ أوْسٍ هِمَّةً أمْ مَنْ تَقَدَّمَهُ مِنَ الشُّعَرَاءِ

وبهذا استطاع الجزار أن يعري صديقه الفقيه البرجي من كل فضيلة، وأن يلصق به كل صفة بغيضة ، من خلال الألفاظ القبيحة التي بالغ كثيراً في إيرادها، إمعاناً في تشويه صورته ومسخها، وتحويلها إلى صورة قبيحة ومنفرة تبعث على الضحك والسخرية .

الخاتمة :

وبعد . فقد تناولت الدراسة المكانة العظيمة التي وصل إليها الفقهاء في مختلف مراحل الحكم في الأندلس ، والدور المؤثر الذي قاموا به في الحياة السياسية والاجتماعية ، فهم أصحاب الحظوة والكلمة النافذة في كثير من المواقف ، وهم قادة التغيير الذي كان يتم بين حين وآخر .

وبقدر ما كان لهم أدوار إيجابية في الحياة العامّة في المجتمع الأندلسي ، كان لهم دور سلبي خطير ، يتمثل في غض الطرف عن بعض الممارسات المنحرفة التي اقترفها بعض الحكام ، ليس هذا فحسب بل قيامهم بتبرير ذلك شرعاً ، ليكون الحاكم في مأمن من المساءلة .

وأبرزت الدراسة الصورة المشرقة التي رسمها الشعراء لهم ، فقد أحاطوهم بهالة من العظمة والأبهة والمثالية ، وبالغوا أحياناً في عرض صفاتهم وأخلاقهم ، وفي قصائد الرثاء كشفوا عن عظم الفاجعة التي لحقت بالمجتمع الأندلسي ، والخسارة الكبيرة التي حاقت بالعلم وطلابه ، لموت هؤلاء الرموز ،الذين لن يتكرر وجودهم ثانية .

ومثلما كشفت الدراسة عن الجوانب المشرقة في حياة الفقهاء والصفات النبيلة التي وسموا بها ، كشفت أيضاً عن الجوانب القاتمة من حياتهم وصفاتهم ، فقد رسم الشعراء لبعض الفقهاء صوراً سوداء وقبيحة، عندما صوروا الانحرافات السلوكية والخلقية بنوع كبير من المبالغة التي تنم عن حقد دفين ، وتنافس شديد بين هاتين الشريحتين .

ولم تختلف صورة الفقيه في أزجال ابن قزمان عن الصورة التي رسمها الشعراء لهم ، سواء كانت صورة إيجابية مشرقة ، أم صورة سلبية قاتمة .

وفي الباب الثالث من الدراسة ، جاء التركيز على إبراز الجوانب الفنية في شعر نقد الفقهاء ، فقد تم استعراض نماذج من الشعر الذي قيل في نقد الفقهاء وهجائهم ، فتناولت بالتحليل طبيعة اللغة والألفاظ التي استخدمها الشعراء ، والأساليب اللغوية المتنوعة التي لجأ إليها الشعراء في رسم صورة الفقهاء ، تلك الصورة التي كانت منتزعة غالباً من البيئة الطبيعية التي عاش فيها أهل الأندلس .

استخدم الشعراء اللغة السهلة الواضحة الموحية في الوقت نفسه ، التي تأخذ طريقها مباشرة إلى أذهان السامعين وأفهامهم ، لكي تحقق الهدف الذي يريده الشاعر بكل يسر وسهولة ، دون تعقيد أو مواربة أو تأويل ، وهذا الأسلوب موافق لطبيعة الموضوع الذي يتحدث فيه الشاعر .

ويلاحظ قلة الشعر الذي قيل في نقد الفقهاء ، وهو على قلته فقد جاء على شكل مقطعات قصيرة تضم أبياتاً لا يزيد عددها عن أصابع اليد الواحدة ، وقد يعود هذا إلى مجموعة من الأسباب منها ضياع كثير من الشعر الأندلسي ومخطوطاته ، علاوة على إحجام المؤرخين عن

تدوين أشعار النقد والهجاء في كتبهم ، وتحرجهم من ذلك ، وحرصهم على عدم تدنيس كتبهم بمثل هذه الأشعار .

ولعل الجزار السرقسطي من أكثر الشعراء الذين وجهوا نقداً شديداً للفقهاء ، فقد اختص هجاؤه بالفقيه البرجي ، على خلفية نقد وجهه البرجي لبعض استخدامات الجزار اللغوية ، فأثار حفظيته بذلك ، وهذا يدل على أن بعض النقد الموجه للفقهاء ما هو إلا تحامل مبالغ فيه ، فلا يستحق نقد البرجي للجزار في استخدام مفردة استخداماً غير مناسب كل هذا التحامل ، فقد كتب قصيدتين طويلتين يوبخ فيهما البرجي ويعنفه أشد التعنيف على ذلك ، بالإضافة إلى المقطعات القصيرة التي غمز فيها بجانب الفقيه .

ويلاحظ كذلك أن بعض المقطعات قد تجاوزت حدود الأدب والذوق السليم ، فنهشت في الأعراض ، وأقذعت في السباب غير المبرر تحت أي سبب كان .

ومن الملاحظات التي كشفت عنها الدراسة ، أن الشعراء يطرحون في شعرهم قضايا عامّة وأخرى شخصية ، ولكل من هذه القضايا أسلوبه الخاص به ، ففي القضايا العامة يعرض الشاعر قضيته بهدوء ورصانة ، فيورد الأدلة المنطقية والعقلية المقنعة لما يدعيه ، وما يريد أن يكشفه بلغة رفيعة وألفاظ سامية بعيدة عن الابتذال والفحش والإقذاع ، وبأسلوب راقٍ بعيد عن السب والشتم وهتك الأعراض والطعن في الأخلاق ، ويسعى في النهاية إلى تقويم أسلوب معوج ومعالجة انحراف ، وتذكير بالقواعد والمبادئ الأساسية التي يجب أن يسير بمقتضاها الفقهاء . دون المساس بهم ، أو التشهير بأخلاقهم ، فهو يعرض الواقع كما هو ، ويوحي بالتصور المطلوب ، وما يجب أن يكون عليه الفقهاء ، وهم في ذلك يستخدمون أسلوب المقارنة بين ممارسات الفقهاء في عصرهم ، وبين نماذج مثالية من الفقهاء في عصور سابقة ، لتصل الرسالة واضحة وكاشفة في الوقت نفسه عن الخلل وعلاجه .

فالشعراء في القضايا العامة يلقون أضواء كاشفة على جوانب قاتمة من سلوك الفقهاء عامّة ، وطريقة معالجة المواقف ، الهدف منها التقويم ، وتعديل السلوك ، هذا السلوك العام ، فلذلك يمكن القول : أن الشعراء في القضايا العامة كان نقدهم البناء أقرب إلى العتاب منه إلى النقد والهجاء .

أمّا في القضايا الشخصية فيكون الشاعر مضطرباً ومنفعلاً ، فيكون نقده رد فعل صاخب على مواقف شخصية بينه وبين الفقيه ، وغالباً ما تكون دفاعاً عن النفس أكثر منها هجوماً ونقداً للفقيه ، فهنا يعمد الشاعر إلى أسلوب استفزازي ، بأن يختار سلوكاً أو خلقاً يحاول تضخيمه ، والنفخ فيه ، بحيث تختفي الملامح الحقيقية للفقيه ، ويظهره بصورة مغايرة تماماً لواقعه ، بهدف التشهير به ، والحط من مكانته ، وتشويه الصورة الحقيقية له في أعين الناس ، وتجريده من كل فضيلة ، وإلباسه كل رذيلة .

ويمكن القول: إن الشعر الذي جاء به الشعراء في نقد الفقهاء يهدف إلى تحقيق غرضين :

الأول : التشهير ببعض الفقهاء ، وفضح ممارساتهم الشخصية المنحرفة بألفاظ بذيئة ونابية والكشف عن أخلاقهم المنحرفة ، بمحاولة إعادة رسم صورة جديدة لهم تغاير واقعهم تماماً .

الثاني : التشهير بالأسلوب الذي ينتجه الفقهاء في علاج القضايا المستجدة ، بأسلوب راقٍ وبلغة سامية ، الهدف منه التقويم والعلاج .

وفي النهاية يمكن القول أن الصورة العامة التي خرجت بها الدراسة عن الفقهاء أنها كانت صورة مشرقة زاهية ، وأن ما اعتراها من شحوب وقتامة قد أصاب الإطار العام ، ولم ينفذ إلى جوهر هذه الصورة ، رغم أن بعض الشعراء صور الفقهاء تصويراً ساخراً خرج عن المألوف ، وتجاوز الحدود ، وربما يكون هذا نتيجة تصور الشعراء أن الفقهاء عالم مثالي يجب أن يحافظ على هذه الصبغة دون مراعاة لتطور المجتمعات واختلاف الظروف ، وطبيعة الأحوال السائدة التي تفرض على الفقهاء مسايرتها دون المساس بالمبادئ العامّة ، ومع ذلك لا يمكن إنكار جميع ما قاله الشعراء في حق الفقهاء ، فإن كان هناك نماذج لمثل هؤلاء الفقهاء الذين انحرفوا عن الطريق القويم ، وتجاوزوا الخطوط الحمراء ، فإنه لا يمكن تعميم هذه الصورة وإلصاقها بهم لمجرد أن مجموعة منهم قد حادت عن الطريق الذي يتصوره الشعراء في الفقهاء ، وما يجب أن يكونوا عليه .

والله الموفق .

المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر.

١. الآمدي، أبو القاسم حسن بن بشر. **الموازنة بين الطائيين**، تح: محمد محيي الدين عبدالحميد ، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٩.

٢. ابن الأبار، محمد بن عبدالله القضاعي. **تحفة القادم**،تح: إحسان عباس،دار الغرب الإسلامي،بيروت، ١٩٨٦.

٣.ابن الأبار، محمد بن عبدالله القضاعي. **الحلة السيراء**، تح: حسين مؤنس، دار المعارف ، القاهرة،ط٢، ١٩٨٥.

٤. ابن الأبار، محمد بن عبدالله القضاعي.**المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي**، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧.

٥. ابن الأثير، ضياء الدين. **المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر**، تح: أحمد الحوفي و بدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض، ط١، ١٩٨٣.

٦.ابن إدريس، صفوان. **زاد السافر وغرة محيا الأدب السافر**، أعده وعلق عليه: عبدالقادر محداد، دار الرائد العربي،بيروت، ١٩٨٠.

٧. الإلبيري، أبو إسحق. **الديوان**، تح : محمد رضوان الدايه، مؤسسة الرسالة،بيروت، ط١، ١٩٧٦.

٨. ابن بسام، أبو الحسن علي الشنتريني. **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، تح : إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت،١٩٩٧.

٩. ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبدالملك، **كتاب الصلة**، الدار المصرية للتأليف، القاهرة، ١٩٩٦.

١٠.البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن أحمد بن مهدي الخطيب. **الفقيه والمتفقه**، صححه وعلق عليه: الشيخ إسماعيل الأنصاري، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط٢، ١٩٨٠.

١١. ابن بلكين، عبدالله بن باديس بن حبوس، **كتاب التبيان**، حرره : علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠.

١٢.التطيلي، أبو جعفر أحمد بن عبدالله الأعمى. **الديوان**، تح : إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت.

١٣.الجاحظ، عمرو بن بحر. **البيان والتبيين**، وضع حواشيه: موفق شهاب الدين، دار الكتب العلمية،بيروت، ط٢، ٢٠٠٣.

١٤.الجاحظ، عمرو بن بحر. **الحيوان**، تح: عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦.

١٥.الجزار السرقسطي، أبو بكر يحيى بن محمد . **الديوان (روضة المحاسن وعمدة المُحاسن)**، تح : منجد مصطفى بهجت، مطبعة المجمع العلمي العراقي،بغداد، ١٩٨٨.

١٦. الجزيري، أبو مروان عبدالملك بن إدريس. **قصيدة أبي مروان في الآداب والسنة**، تح : هلال ناجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٤.

١٧. ابن جعفر، قدامة. نقد الشعر، تح: عبدالمنعم خفاجي، مكتبة الكليات الأزهرية،القاهرة، ١٩٨٠.

١٨.ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد. **الإحكام في أصول الأحكام**، قدم له : إحسان عباس، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت، ط٢، ١٩٨٣

١٩.ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد. **رسائل ابن حزم**: تح: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١ ن ١٩٨٣.

٢٠. الحمداني، أبو فراس. **الديوان**، تح : إبراهيم السامرائي، دار الفكر، عمّان ، ط١، ١٩٨٣.

٢١. الحموي، أبو عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي البغدادي . معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩.

٢٢.الحميدي، أبو محمد بن أبي نصر فتوح الأزدي الأندلسي، **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**، تح: روحية عبدالرحمن السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ، ١٩٩٧.

٢٣.الحميري، أبو الوليد إسماعيل. **البديع في وصف الربيع**، تح : محمد عبدالرحيم عسيلان، دار مدني، السعودية ، جدة، ١٩٨٧.

٢٤.ابن خاقان، الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي. **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان** تح : حسين خريوش، مكتبة المنار، الأردن، الزرقاء، ط١، ١٩٨٩.

٢٥.ابن خاقان، الفتح بن محمد بن عبيدالله القيسي الإشبيلي. **مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس**، تح : محمد علي الشوابكة، مؤسسة الرسالة،بيروت، ط١ ، ١٩٨٣.

٢٦. الخشني، محمد بن الحارث. ٠(ت ٣٦١) **أخبار الفقهاء والمحدثين**، تح: ماريا لويسا آبيلا، ولويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، معهد التعاون مع العالم العربي، مدريد،١٩٩٢.

٢٧. الخشني، أبو عبدالله محمد بن الحارث.**قضاة قرطبة**، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨٢.

٢٨. ابن الخطيب، لسان الدين. **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تح: محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي،ط٤،القاهرة، ٢٠٠١.

٢٩. ابن الخطيب، لسان الدين. **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلق بذلك من الكلام**، تح : سعيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣.

٣٠. ابن خفاجة، أبو إسحق إبراهيم بن أبي الفتح. **الديوان**، تح : سيد غازي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط٢، ١٩٧٩.

٣١. ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد. **مقدمة ابن خلدون**، تح : علي عبدالواحد وافي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٤.

٣٢. الذبياني، النابغة. **الديوان**، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٥.

٣٣. ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني الأسدي. **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، تح: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة التجارية، مصر، ط٣، ١٩٨٣.

٣٤. الرمادي، يوسف بن هارون. **الديوان**، جمعه وقدم له: ماهر زهير جرار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٠.

٣٥. ابن زيدون، أحمد بن عبدالله بن غالب المخزومي. **الديوان** .تقديم: أحمد الفاضل،دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ٢٠٠٤.

٣٦. السبكي، تاج الدين عبدالوهاب بن علي. **جمع الجوامع في أصول الفقه**، تح: عبدالمنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١.

٣٧. السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث. **سنن أبي داود** ، دار الجنان للطباعة والنشر، بيروت، ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٩٨٨.

٣٨. ابن سعيد المغربي، **المغرب في حلى المغرب**، تح : شوقي ضيف، دار المعارف،القاهرة، ط٣، ١٩٧٨.

٣٩. ابن شهيد الأندلسي، **ديوان ابن شهيد الأندلسي ورسائله**، تح: محي الدين ديب، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط١ ، ١٩٩٧.

٤٠. الضبي، أحمد بن يحيى. **بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس**، تح : روحية عبدالرحمن السويفي، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط ١ ، ١٩٩٧.

٤١. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر. **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٧٩هـ.

٤٢. العمري، ابن فضل الله شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى. (٧٤٩) **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، تح : محمد عبدالقادر خريسات، وعصام مصطفى قلة، ويوسف أحمد بني ياسين، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين ، الإمارات الجزء ٦ ، الخاص بالفقهاء.

٤٣. عياض، القاضي. **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، تح : أحمد بكير محمود، منشورات دار الحياة، بيروت، دار مكتبة الفكر ، ليبيا ، ١٩٨٠.

٤٤. الغزال، يحيى بن الحكم البكري الجياني الأندلسي. الديوان، تح : محمد رضوان الداية، دار قتيبة، ط١، ١٩٨٢.

٤٥. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد . **إحياء علوم الدين**، دار المعرفة للطباعة، بيروت (د ت)

٤٦.ابن الفرضي، أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف بن نصير الأسدي، **تاريخ علماء الأندلس**، تح: روحية عبدالرحمن السويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧.

٤٧. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. **القاموس المحيط**، ضبط وتدقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر ، بيروت، ١٩٩٩.

٤٨. ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم. **الشعر والشعراء**، راجعه وأعد فهارسه: محمد عبدالمنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٢، ١٩٨٦.

٤٩القرطبي، ابن حيان. **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**، تح : محمود علي مكي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٣.

٥٠ابن قزمان. **الديوان،(إصابة الأغراض في ذكر الأعراض)** ، تح: ف. كورنيطي، المعهد الإسباني العربي للثقافة، ١٩٨٠.

٥١. القسطلي، ابن دراج. **الديوان**، تح : محمود علي مكي، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٩٦٨.

٥٢. المالقي، أبو بكر محمد بن محمد بن علي بن خميس، **كتاب أدباء مالقة المسمى " مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار"**، تح : صلاح جرار، دار البشير، الأردن ، ومؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٩.

٥٣. المراكشي، ابن عذارى . البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج٣، ت: ليفي بروفنسال، ج.س كولان، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٨٠.

٥٤. المراكشي، أبو عبدالله محمد بن عبدالملك الأنصاري الأوسي، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، السفر الرابع ، تح : إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥.

٥٥. المراكشي، عبدالواحد بن علي. **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تح : محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط٧، ١٩٧٨.

٥٦.المغربي، ابن سعيد. **رايات المبرزين وغايات المميزين**، تح : النعمان عبدالمتعال القاضي، لجنة إحياء التراث ،القاهرة، ط٢، ١٩٧٣.

٥٧.المقري، أحمد بن محمد . **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك بين السعودية والإمارات، ١٩٧٨.

٥٨.المقري، أحمد بن محمد . **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تح: إحسان عبـــاس، دار صادر، بيروت، الطبعة الجديدة، ٢٠٠٤.

٥٩.ابن منظور. **لسان العرب**، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٣.

٦٠. الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم. **مجمع الأمثال**، تح : محمد أبـــو الفضل إبراهيم،دار الجيل ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٧.

٦١. النباهي، أبو الحسن بن عبدالله المالقي الأندلسي. **تاريخ قضاة الأندلس ، المرقبـــة العليـــا فيمن يستحق القضاء والفتيا)** دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٠.

ثانياً: المراجع

١ . إسماعيل ، محمد شعبان . **التشريع الإسلامي مصادره وأطواره** ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٥ .

٢ . الأشقر ، عمر سليمان . **تاريخ الفقه الإسلامي** ، دار النفائس للنشر و التوزيع ، الكويت ، ط٢ ، ١٩٨٩ .

٣. أفغاني، سعيد. ملخص إبطال الرأي والقياس والاستحسان، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٦٩.

٤ . الأهواني ، عبد العزيز . **الزجل في الأندلس** ، معهد الدراسات العربية العالمية ،القاهرة، ١٩٥٧.

٥ . بالنثيا ، أنخل جنثالث . **تاريخ الفكر الأندلسي** ، ترجمة حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

٦ . بروفنسال ، ليفي . **الحضارة العربية في إسبانيا** ، ترجمة الطاهر أحمد مكي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٥ .

٧. بكار ، يوسف . **بناء القصيدة في النقد القديم في ضوء النقد الحديث** ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨٢ .

٨. بهجت ، منجد مصطفى . **الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهد ملوك الطوائف والمرابطين** ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٦ .

٩ . بوتشيش ، إبراهيم عبد القادر. **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين** ، دار الطليعة للطباعة و النشر ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٨ .

١٠ . ابن بيه ، محمد محمود عبد الله . **الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين** . دار الأندلس الخضراء ، جدة ، السعودية ، ط١ ، ٢٠٠٠ .

١١ . أبو حرب ، محمد خير . **المعجم المدرسي** ، الجمهورية العربية السورية ، ط١ ، ١٩٨٥

١٢ . حسان ، حسان محمد . **ابن حزم الأندلسي عصره ومنهجه وفكره التربوي** ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩٤ .

١٣ . حسين ، حمدي عبد المنعم محمد . **تاريخ المغرب و الأندلس في عصر المرابطين** ، مطبعة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٦ .

١٤ . خالص ، صلاح . **إشبيلية في القرن الخامس الهجري** ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٥.

١٥ . دعدور ، أشرف علي . الصورة الفنية في شعر ابن درّاج القسطلي الأندلسي ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ، ١٩٩٤ .

١٦ . دندش ، عصمت عبد اللطيف . **أضواء جديدة على المرابطين** ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ،ط١، ١٩٩١ .

١٧ . دندش ، عصمت عبد اللطيف . **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني** ، دار الغرب الإسلامي ،بيروت، ط١ ، ١٩٨٨ .

١٨ . دندش ، عصمت عبد اللطيف . **دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا** ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٨ .

١٩ . الرباعي ، عبد القادر ، **الصورة الفنية في شعر أبي تمام** ، إربد ، ط١ ، ١٩٨٠ .

٢٠ . أبو زيد ، علي . **الصورة الفنية في شعر دعبل بن علي الخزاعي**،المنصورة ، ١٩٨١.

٢١ . السامرائي ، خليل . **تاريخ العرب و حضارتهم في الأندلس** ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٠ .

٢٢ . السامرائي ، إبراهيم . **في لغة الشعر** ، دار الفكر للنشر و التوزيع ، عمان ، ١٩٨٣ .

٢٣ . السامرائي ، إبراهيم . **لغة الشعر بين جيلين** ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٠ .

٢٤ . الشعراوي ، أحمد إبراهيم . **هياج الربض ، ثورة شعبية على الحكم الأموي** ، ضمن بحوث الأندلس الدرس و التاريخ ، دار النهضة الجامعية ، القاهرة ، ١٩٩٤ .

٢٥ . الشكعة ، مصطفى . **الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه** ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨٣ .

٢٦ . الشناوي ، أحمد وزملاؤه . **دائرة المعارف الإسلامية** ، القاهرة، ١٩٣٣ .

٢٧ . الشناوي ، علي الغريب محمد . **الصورة الشعرية عند الأعمى التطيلي** ، مكتبة الآداب، القاهرة ، ط٢ ، ٢٠٠٣ .

٢٨ . صبح ، علي علي . **البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر** ، المكتبة الأزهرية للتراث ، القاهرة ، ١٩٩٦ .

٢٩ . الصفار ، عبد الرزاق قاسم . **الإمام الأوزاعي ومنهجه كما يبدو من فقهه** ، بغداد ، ط١ ، ١٩٧٦ .

٣٠ . طقوش ، محمد سهيل . **تاريخ المسلمين في الأندلس** ، دار النفائس ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٤ .

٣١ . العبادي ، أحمد مختار . **دراسات في تاريخ المغرب و الأندلس** ، مؤسسة شباب الجامعة للنشر و التوزيع ،القاهرة، ١٩٧٠ .

٣٢ . عباس ، إحسان . **تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين** ، دار الثقافة ، بيروت ، ط٢ .

٣٣. عباس، إحسان . **دراسات في الأدب الأندلسي**، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ط٢، ١٩٧٨.

٣٤ . عبدالله، محمد حسن. **الصورة والبناء الشعري**، دار المعارف. القاهرة ،١٩٨١.

٣٥ . عجلان ، عباس بيومي ، **الهجاء الجاهلي ، صوره وأساليبه الفنية** ، مكتبة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٩٨٥ .

٣٦. عنان، محمد عبدالله. **دول الطوائف**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٣، ١٩٨٨.

٣٧ . عنان ، محمد عبد الله . **عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس** ، مطبعة لجنة التأليف ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٦٤ .

٣٨ .عناني، محمد زكريا. **الموشحات الأندلسية**، سلسلة عالم المعرفة، الكويت،العدد٣١، ١٩٨٠.

٣٩ . أبو عيانة ، فتحي محمد . **بحوث ندوة الأندلس الدرس والتاريخ** ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٩٤ .

٤٠ . عيسى ، فوزي سعد . **الهجاء في الأدب الأندلسي** ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

٤١ . فؤاد ، عبد الفتاح أحمد . الظاهرية ، **أبحاث مؤتمر التراث الأندلسي الشخصية والأثر** ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية ، ٢٠٠٤ .

٤٢ . فروخ ، عمر . **العرب والإسلام في الحوض العربي من البحر المتوسط** ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٩ .

٤٣ . القط ،عبد القادر. **الاتجاه الوجداني في الشعر العربي**، مكتبة الشباب ، القاهرة ،١٩٧٨.

٤٤ . الكريم ، مصطفى عوض . **فن التوشيح** ، بيروت ، ١٩٥٩ .

٤٥ . كنون ، عبد الله . **أدب الفقهاء** ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء .

٤٦. مؤنس، حسين. **شيوخ العصر** ، دار الرشاد ،القاهرة، ط٢، ١٩٩٧.

٤٧. محمود، حسن أحمد. **قيام دولة المرابطين**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٦.

٤٨ . المرسي ، كمال الدين عبد الغني. **ابن حزم فقيهاً** ، أبحاث مؤتمر التراث الأندلسي الشخصية والأثر ، دار الوفاء لدنيا الطباعة ، الإسكندرية ، ٢٠٠٤ .

٤٩ . مسعد ، سامية مصطفى محمد . **التكوين العنصري للشعب الأندلسي وأثره على سقوط الأندلس الإسلامية** ، عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٤ .

٥٠. مسعد ، سامية مصطفى محمد . **الحياة الاقتصادية و الاجتماعية في إقليم غرناطة في عصري المرابطين و الموحدين** ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ط١ .

٥١ . هدارة ، محمد مصطفى . **اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري** ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٧٠ .

٥٢ . يفّوت ، سالم . **ابن حزم والفكر الفلسفي في الأندلس والمغرب** ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٨٦ .

ثالثاً : الدوريات.

١. ابن بيّه ، عبدالله شيخ محفوظ، **مجلة البحوث الفقهية المعاصرة**، العدد ١، السنة،٢٠٠٦.
٢. عبد الخالق، غسان إسماعيل. الدولة والمذهب في العلاقة بين الأمويين ومالك بن أنس في الأندلس، **مجلة أفكار**، عمان، عدد١٢٤، ١٩٩٦.
٣. العلوي، سعيد بن سعيد. الفقيه معلم السلطان النصيحة والتدبير، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة، بيروت، المجلد الرابع ،١٩٨٩ .

رابعاً: الرسائل الجامعية.

١. أبو لبدة، سامر طلعت توفيق. **أبو إسحق الألبيري الفقيه الزاهد دراسة في شعره وفكره**، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ٢٠٠٣.
٢. عوض الله، رحاب صبري حسن. **دور الفقهاء في الحياة العامة في عصر الطوائف**، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٣.

Abstract

Al-Hosban , Ali Ahmad(2008) .The Faqih (Religious scholar) in Andalusian Poetry from the Imarah Era until the end of Al-Murabitin period ,Master study, Yarmouk University.

Supervised by

Prof. Younes Shenown Shudaifat .

Faqih has a prominent and distinctive rank in the Islamic community; and this rank was highly distinctive in Andalusia. The current study aimed at spotting some revealing lights on the Faqihs's life, and tracing the image constructed by poets about Faqihs through verses revealing their lives. The study consists of a preface, three chapters and a conclusion.

In the preface, the researcher addressed the term 'Faqih' in both language and terminology; moreover, he addressed the Faqih doctrines that spread out in Andalusia, especially the Malki doctrine which became the official doctrine there through all periods of history.

The study addressed three major topics in the first chapter: the Faqih's rank in the Andalusian society during three eras, namely the Ommayyad State, Altawa'ef kings; and Al-Murabitin; the scientific and cultural components of Faqih as well as behavioral and moral characteristics of the ideal Faqih; the nature of the relationship between

Faqihs and other segments of the Andalusian society. The study revealed the prominent rank attained by Faqihs in Andalusia and the great role they had played in the political, scientific, and social life; besides the different types of knowledge acquired by the ideal Faqih that gave him this distinctive position.

In the second chapter, the researcher traced both positive and negative image of Faqih, besides his image in the Azgal of Ibn-Gazman; the study revealed the apparent discrepancy in Faqih's pictures given by poets. On one side, it was a bright and shining one, reflecting the scientific and social ranks of the Faqihs through the praise and lamentations poetry; on the other, it was dark and miserable, and was formulated by poets in an extremely comical way.

The third chapter addressed poetry models of verses criticizing and satirizing Faqihs; it also addressed analyses of the nature of poetry language and expressions and the varied rhetorical patterns used by poets to attain that purpose.

Finally, the conclusion summed up the findings of this study reached at by the researcher.